كليوباترة

سيرتها وحكم التاريخ عليها

تأليف

زكي علي

الكتاب: كليوباترة.. سيرتها وحكم التاريخ عليها

الكاتب: زكي علي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

علي، زكي

كليوباترة.. سيرتها وحكم التاريخ عليها / زكي علي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ١٦ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٧٢٦٧ / ٢٠٢٠

كليوباترة
سيرتها وحكم التاريخ عليها

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

إنه ليسعدني أن أقدم للقارئ العربي، في طيات هذا الكتاب، لمحات عاجلة من حياة شخصية فذة، هي كليوباترة السابعة التي تولت مقادير هذا الشعب المصري في مراحل حاسمة من تاريخه . فتناولت عرض بعض المواقف الهامة من تاريخ حياتها، وسردت بعض أعمالها، وعرجت على سياستها إزاء نفر من عظماء العالم الروماني في ذلك الحين بقدر ما يسمح به المجال، رغبة في التفسير والتوضيح لما غيض من أسرار حياتها، وخني من تصرفاتها في شئون السياسة والحرب. ولست أدعي أنني قد وفيت الموضوع حقه، فالمقام هنا لم يكن ليسمح بذلك، والمجال الذي أتيح لي في هذه الصفحات كان في أضيق نطاق. ومع ذلك فإني آمل أن أكون قد قدمت هنا صورة حية لحياة هذه الملكة، يطالعها القارئ العام في يسر وسهولة، فيكشف النقاب عما غمض عليه من حياة هذه الملكة التي يتردد اسمها على السنة الناس في حياتنا اليومية دون أن يعرفوا حقيقتها، ويتبينوا كنها ومقاصدها، وقد عاشت وجه التاريخ بين مادح يثني عليها، وقادح يذمها . وقد سلكت هنا سبيل التدليل العار لا الاستقراء المستنفذ، إذ أن دون ذلك جهودا ومشقات قد لا يتسع لها وقت القارئ غير المتخصص .

وإني لأرجو أن أكون قد أَثَرْت في نفس القارئ الرغبة في التعرف على مزيد من تفاصيل حياتها الحافلة بالأعمال، ووُفقت في تشويقه إلى الاهتمام بها وإصدار حكم عادل عليها، ولى عودة إلى هذا الموضوع في شيء كثير من التوسع والإفاضة في القريب إن شاء الله .

المؤلف

الفصل الأول

نشأة كليوباترة

تمهيد:

خلدت هذه الملكة اسمها في سجل التاريخ، وطبق صيتها آفاق المشرق والمغرب في العالمين القديم والحديث، وانبرى المؤرخون والمصنفون في كل العصور لهذه الملكة بالذات، يتناولون القصص المحيطة بسيرتها بالسرد والتفنيد، ويعرضون لأعمالها وأحوالها في شيء كثير من الإسهاب والتفصيل . وقد انحاز البعض منهم ضدها جريا على سياسة تقليدية، استسهالهم ساسة الرومان وكتابهم في العصر الأغسطي، فأنحوا باللائمة على هذه الملكة، ورموها بأفحش القول والتبذل، وأسخنوها بالتجريح، ونسبوا إليها شيئاً كثيراً من الشرور والآثام . وقد سرد المؤرخ پلوتارخوس جانباً من حياتها، لعله من أبهج الصفحات التي انبهر لها العالم، وجاء وصفه لذلك الجانب ضمن حديثه عن حياة بطل روماني وقائد كبير هو ماركوس أنطونيوس . ثم جرى الكتاب وراء پلوتارخوس، وأخذوا يرددون ما رواه من قصص ونوادر ساقها عن حياة هذه الملكة، فكان الشاعر الإنجليزي شكسبير من الساقين إلى ترديد لمحات من حياتها مع يوليوس قيصر، فلم يخرج في الصورة التي أبدعها من ثنايا حياة هذه الملكة، عن التقليد المرعي في تصوير هذه الملكة

بالفاتنة وتجريحها بأنها سخّرت جسدها في تحقيق مآربها، وأفرطت في انتهاج هذا السبيل، ثم جاء الكاتب الروائى "برنارد شو" في روايته التي أخرجها عن قيصر وكليوباترة، فأنكر أن كليوباترة أوتيت قسطاً عالياً من التعليم، وتصورها في صورة المرأة اللعوب، قريبة الشبه بالقُطيطة . وإنه ليحق بالطبع لأمثال هؤلاء الكتاب الروائيين من طراز " برنارد شو " وهم الذين عرفوا بأسلوبهم التهكمي اللاذع أن يصوروا شخصياتهم على النحو الذي يروق لهم، وأن يسبغوا على هذه الشخصيات التاريخية أو الخيالية ما يرونه من الصفات . ولكن الأمر الذي لاشك فيه أن الصورة التي ابتدعها " برنارد شو" ليخرج فيها كليوباترة جاءت غير مطابقة للحقيقة، وليس لها سند من الواقع، بل إن الأمر على عكس ذلك، فالظروف التي أحاطت بهذه الشخصية الملكية وضعتها منذ نعومة أظفارها في مهب الريح، وكان عليها أن تواجه تجارب قاسية، إذ تفتحت عينها عقب سن الرضاع مباشرة على فكرة مشوبة بشيء كثير من الغموض، عن قسوة قلوب الرومان، وغلظة أكبادهم ووحشيتهم . وإن ما أتته هذه الملكة في شتى مراحل حياتها من ضروب الشجاعة والبسالة في ميادين السياسة والقتال لينهض دليلا على نقض الرأي المتواتر في كتابات أولئك القصاصين والروائيين، الذين تركوا العنان لخيالهم يسبح، وركبوا في ذلك متن الشطط .

والد كليوباترة

وفي صدر حياة هذه الملكة، كان والدها بطلميوس الثاني عشر وكنيته أوليتيس أي الزمار يمثل صورة هزيلة من ملوك البطالمة أضعاف،

يلاحق قواد الرومان وساستهم بمطالبه، ويرتمي على أعتابهم كسباً للتأييد والاعتراف به، وطلباً لتثبيته على عرش مصر، وكانت الأحداث الجسام تجرى وتتزاحم وقائعها في محيط العالم الروماني ؛ فالجيوش إثر الجيوش يسيرها قواد الرومان بعضهم ضد البعض، تارة لإشباع أغراض ومآرب شخصية، وتارة أخرى بدعوى أنهم انبروا لنصرة الجمهورية الرومانية وهي على شفا جرف هار وفي دور الاحتضار، فكانت هذه الجيوش تجتاح بلاد الشرق أو الغرب. وكانت روما تعمل جاهدة منذ أمدٍ بعيدٍ على التدخل في شئون مصر، وتنصب الشباك لمختلف دول الشرق عامة، وتتربص بها الدوائر، وتقف لمصر بصفة خاصة بالمرصاد . ومن أجل هذا . توالت الوفود والبعثات الرومانية على وادي النيل، وكان الملك مصر بدوره مندوبون، يسعون لدى روما لكسب ودها وعطفها واتقاء شرها، بل إن والد كليوباترة تغالي في هذا السبيل فأراق ماء وجهه، وبقي نحو عشرين سنة واقفة على الأعتاب، يسعى لأن تعترف به روما ملكا على مصر، ويسبغ عليه مجلس شيوخها العتيد لقباً فخرياً كان محل زهوه واعتزازه، فأصبح بذلك الصديق والحليف للشعب الروماني، وكان في تحقيق هذه الأمنية القضاء على نفر من المدعين لعرش مصر . ويرجع الفضل في نيله أمنيته هذه إلى يوليوس قيصر الذي تقدم باقتراحه هذا سنة ٥٩ ق.م عند ما كان متولياً القنصلية، بعد أن قبض رشوة باهظة من الملك تبلغ ستة آلاف من التالنتات (والتالنتوم الواحد كان يساوي نحو ٢٤٠ جنيهاً).

وما كانت حياة هذا الملك في مصر بمستقرة، بل إن شعب

الإسكندرية طرده من البلاد أكثر من مرة، لأنه كان يضيق بتصرفاته وتهتكه بوصفه الإله ديونيسوس الجديد، وما كان يفرضه على كاهل الناس من أعباء مالية، اشتط في جمعها. ونظرة لتقصيره في مساندة أخيه الذي كان حاكما على قبرص عندما طمعت روما في ضم هذه الجزيرة، ونظرا لما ألحقه بمصر من مهانة لسيره في ركب الرومان واعتماده على زعمائهم في الحظوة بالتأييد، أعلن عليه شعب الإسكندرية العصيان العام، وطرده سنة ٥٨ ق.م، ففر إلى روما حيث نزل في ضيافة بمي أحد الشخصيات الكبرى في روما إذ ذاك . وقد استدان كثيرة، وأسرف في تقديم الرشاوى من قبيل السعي إلى كسب التأيد، ورده إلى عرشه وتبارى القواد الثلاثة: مى وقيصر وكراسوس في التسابق على أن يكون لأحدهم الفضل، إما بالذات أو بالواسطة في إعادة هذا الملك، ورده إلى عرشه المسلوب، ولكن مجلس الشيوخ الروماني كان مترددة، فامتنع عن الموافقة على استخدام القوة في تحقيق ذلك، متذرعة بأسباب دينية من الكتب السيلينية، وبقي الوضع على حاله حتى كانت سنة ٥٥ ق.م، عندما أوحى پمي إلى أحد صنائعه وهو أولوس جابينيوس (Aulus Cabinius) حاكم الشام بتبني هذا المشروع، ووعد بطلميوس أوليتيس بدفع مبلغ باهظ قدره عشرة آلاف تالنتوم لجابينيوس في نظير هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر . وعلى الرغم مما كان يحظى به هذا الوالي الروماني من تأييد. يمي له فإنه تقاعس وسوف خوفا من الزج بنفسه في مغامرة عسكرية في الطريق الصحراوي إلى مصر، وخشية أن تواجه بعض الصعاب أمام الفرما ولكن قائد الفرسان لدى جابينيوس وهو شاب في

مقتبل العمر أسمه ماركوس أنطونيوس انبرى الإقدام على كشف الطريق، وتبعه الجيش، واستسلمت الفرما، ودخل جابينيوس الإسكندرية وفي صحبته الملك بطلميوس أو ليتيس وبذا رد الملك إلى عرشه، وترك حامية رومانية لنصرته، ومضى الملك في إشباع شهوة الانتقام من خصومه والتنكيل بهم. وكانت ابنته برنيقة في مقدمة الضحايا نظرا لأنها قبلت من السكندريين أن تنصب على عرش مصر في غيبة أبيها، ولقيت برنيقة هذا المصير الألم أمام أعين أختها كليوباترة البالغة من العمر إذ ذاك الرابعة عشرة . وبذلك أفسحت برنيقة السبيل لكليوباترة التي ضمنت أن يكون مآل العرش إليها . وقيل فيما بعد أنه في هذه المرحلة وقع بصر ماركوس أنطونيوس وهو في الإسكندرية على تلك الأميرة الشابة، وأنها بهر ته واستهوته وهي لا تزال في مطلع شبابها .

ولا بد أن الذعر تملكها، واستولت عليها المخاوف في السنين القلائل الأخيرة من حياة أبيها، وهي تشهد رجال المال من الرومان وقد ضيقوا عليه الخناق لاسترداد جميع ما اقترضه منهم في سني محنته، فعمد إلى تعيين أكبر دائنيه وهو روماني يسمى رابيريوس (Rabirius) في وظيفة رفيعة هي وزير مالية البلاد المصرية أوديويكتيس (Dioecetes) . واستطاع هذا الروماني أن ينهب البلاد حتى ضاق الناس به ذرعاً، وقامت حركات عصيانيه، واختل الأمن وأخذ الفلاحون يهددون بعدم الوفاء بما عليهم من التزاماته قِبَل الدولة، وخشية أن يفتك الغوغاء بوزير المالية الروماني زج به الملك في السجن، ثم ما لبث أن دبر أمر إنقاذه وتهريبه إلى روما. وكانت خاتمة أعمال هذا الملك أن يتخذ من الإجراءات ما

يكفل ضان العرش لكبرى بناته وهي كليوباترة، وكانت تبلغ إذ ذاك من العمر نحو الثامنة عشرة، على أن تشترك مع أخيها الصغير بطلميوس الثالث عشر وله من العمر نحو عشر سنوات . فكتب وصية بهذا المعنى احتفظ بصورة منها في الإسكندرية، وبعث، بأخرى إلى روما، وفيها أشهد الشعب الروماني وقادته على أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة الملكية، فلما توفي في ربيع ٥١ ق.م كان عرشه الذي تركه لابنيه غير مستقر، وبقي على هذين الوريثين أن يثبتنا للعالم كيف يستطيعان الاحتفاظ بهذا الملك الذي أصبح في مهب الريح، تعصف به الأهواء من ناحية، وتطمع فيه روما، ويسيل له لعاب قادة الرومان من ناحية أخرى.

كليوباترة تتربع على عرش مصر

إن تاريخ حكم هذه الملكة لمليء بالأحداث الجسام، بعضها من طابع حلى بحت، وأغلبها مرتبط بتاريخ العالم الروماني وما كان يجرى بين قواده من كفاح من أجل الغلبة والسيطرة . وفي طيات تاريخ هذه الملكة يتجلى ما كان يبدو عليها من أحاسيس وانفعالات، وما كان يسلط عليها من أضواء ساطعة بين حين وآخر، فتارة تظهر في الفرما ثم في الإسكندرية وتارة أخرى في تارسوس بآسيا الصغرى ثم في بلاد الشام، وفي آخر المطاف في إبيروس ببلاد اليونان عند ساحل أكتيوم؛ وهي في كل ذلك قد اتخذت من الإسكندرية مقرها الدائم، تدبر فيه من أمرها ما وسعها التدبير، وتتولى بنفسها شئون الحكم، وتنظم خططها وتستقبل السفراء من الرومان وغيرهم وتبعث بأخصائها والمقربين إليها إلى روما وبلاد الشرق لترقب ما يجري من أحداث جسام على مسرحها .

وعلى ذلك تعددت ميادين نشاطها السياسي بقدر اتساع أفقها ومآربها للسياسية. وإن عرضاً وافياً لسجل كل هذه الأحداث ليتطلب أن تفرد له أسفارة عديدة، حتى يمكن أن نلقي بعض الأضواء الساطعة على كل ما كان يساق من أقوال، تبارى الكتاب والأدباء القدامى في سردها، ونحا نحوهم بعض الكتاب المحدثين ؛ ومن هؤلاء من تجني على مسلك هذه الملكة من قبيل المبالغة، وتشويه السمعة، والإمعان في إرضاء الإمبراطور الروماني الأول، أكتافيوس أغسطس، خصم كليوباترة اللدود.

وقد صمدت الملكة لما كان حاك ضدها من دسائس في محيط البلاط السكندري في أول عهد حكمها، وعقب وفاة والدها مباشرة، جمعته إذ ذاك جيشا على الحدود الشرقية من مصر، واجهت به قوات أخيها وشريكها في الملك. على أنها وقفت موقفة أقسى وأشد من هذا عندما أعلن عليها أكتافيوس الحرب، وتكتل وراءه العالم الغربي باعتباره بطله الذي يريد الانتقام من تلك الملكة الشرقية، ولكنها في كل هذه المواقف الحاسمة والأحداث الجسام لم تلن لها قناة، ولم يتسرب إلى قلبها الخوف أو الوجل، وإنما كانت تظهر من المواهب والقدرات ما كان فيه خلاصها، وإنقاذها من شتى المآزق، وقد مهر الكتاب والمؤرخين ما أوتيته من فطنة وذكاء، كانا بجنباها الكثير من مواطن الزلل، ويجعلانها تكسب إلى جانبها في براعة منقطعة النظير تأييد أكثر من قائد روماني، فكان الدكتاتور الروماني العظيم يوليوس قيصر أول هؤلاء، اتخذت منه أداة لتحقيق مآربها، وتثبيت أركان عرشها بقوات الجيش الروماني وعدته، فأبقي بعض الفرق الرومانية بالإسكندرية لتكون حامية ومؤيدة للمملكة،

تسرد كيد الأعداء عنها في الداخل، ثم كان ما هو أدهى وأمر بأن أوحت إليه بكثير من الأفكار الملكية الهيلينستية وطرازها المطبق في مصر، والمنطوي على حكومة بيروقراطية – مركزية – تسير في يسر وسهولة . ثم جاء من بعده خلفه ماركوس أنطونيوس، فارتمى في أحضانها ومضى في نصرتها وتأييدها بعد أن كان قد بعث في طلبها لتمثل بين يديه في تارسوس بآسيا الصغرى، وتجيب عن تهمة التقصير في المساهمة في الحرب التي شنها هو اوكتافيوس ضد قتلة قيصر من الجمهور بين، لتأديبهم على فعلتهم الشنعاء. وهكذا نهج أنطونيوس نهجاً فريداً، فكان في حبه عنيفاً، وفي إخلاصه متفانياً حتى أصبح مضرب الأمثال الناس في التفاني والمغالاة في الحب والتضحية بالنفس من أجل حبيبته كليوباترة .

من هذا العرض السريع يتبين مبلغ الصعوبة في تفهم تاريخ حياة هذه الملكة على حقيقته، لما فيه من تداخل وازدواج، فانب منه من صميم التاريخ المصري في إحدى حقبه الحاسمة، ولكن الجانب الأكبر منه متغلغل في آفاق أكثر اتساعاً ومثل مرحلة هامة من تاريخ الجمهورية الرومانية نفسها، وبالطبع كان لكل جانب مهما ظروفه وملابساته، وما أكثر التداخل بين الجانبين وما أشد تشابك المصالح بين الطرفين، فالسياسة المصرية في ذلك الحين كانت تدور في الديك الروماني الذي كانت له دخائله ومصالحه البعيدة المرمى، فقواد الرومان وأساطين ساستهم لم يتركوا مصر وشأنها، بل أدخلوها في حسابهم وعولوا على كنوزها وخيراتها في برامجهم السياسية ؛ والملكة بدورها، ورثت عن أبيها تقليداً مرعية، كان يقضي بالانحياز إلى الرومان والاعتماد على جانبهم

في التأييد الداخلي والخارجي ؛ ثم إن أباها كان قد كشف لها وهي لا تزال في مطلع حياتها عن كنه هذه السياسة، وأطلعها على مضمونها، فهل كان في وسعها أن تتبع سياسة استقلالية، وأن تحافظ على هذا الاستقلال مواردها الخاصة ؟ أم أن ظروف الحال كانت تقضي عليها بأن ترتبط أشد ارتباط بزمرة من القواد الرومان اللامعين ؟ إنها رأت رأي العيان أن مقاليد العالم في أيديهم وأنه لا مناص لمصر من أن تصانعهم وتسير في ركبهم ولو إلى حين ؛ وعلى هذا النحو تغلغلت أطوار حياتها في خضم تلك السياسة العالمية، وعاصرت حقبة من التاريخ الروماني كانت حاسمة في تقرير مصير الجمهورية الرومانية (Res Publica) وهي التي تَعِبَ الرومان نحو خمسة قرون في تكوينها، وإرساء قواعدها ونظمها الفريدة والمحافظة على كيانها، وتوسيع رقمة أملاكها في حوض البحر المتوسط حتى أصبحت تضم كل بلاد العالم المتحضر إذ ذاك، والمطلة على حوض هذا البحر، ثم كانت فعالة بالتالي في تقرير مصير مصر، وإنهاء صفحة مجيدة من تاريخها على نحو فريد أخذ بالألباب وشغاف القلوب. وكليوباترة منذ توليها العرش سنة ٥١ ق.م إلى أن انتحرت بطريقة روائية سنة ٣٠ في قصر اعتصمت به في الإسكندرية،كانت تجلس على عرش متأرجح في خضم أحداث جسام طوال هذه العشرين عامة التي قضتها، مؤيدة بجند الرومان، وما كان في مكنتها بوصفها امرأة، لها قصورها الطبيعي، أن تسلك سبيلا غير الذي فعلته، وأن تؤثر إتباع سياسة استقلالية بدلاً من الاعتماد على عظماء الرومان وقادتهم في تأييد حكمها وتثبيت عرشها.

وعقب وفاة بطلميوس أو ليتيس عام ٥١ ق.م تربعت كليوباترة بالاشتراك مع أخيها الصغير على عرش مصر، فكان حكماً ثنائياً غير متكافئ، اكتنفته الظروف والصعاب على نحو غير مألوف فأخوها بطلميوس شاب في العاشرة من عمره وأخته تكبره، إذ تبلغ إذ ذاك ثمانية عشر عاما .. وما كانت العلاقات بين هذين الأخوين ليسودها الوئام والود، والبلاط المحيط بهما فاسد، تغشاه شخصيات متباينة متآمرة، فمن خصيان إلى قواد على قوات من الجند المرتزقة، إلى كهنة ووزراء، وكل يعمل لحسابه الخاص . والملك باعتباره قاصر كان يحيط به ثالوث من الأوصياء، يتألف من الحصى يوثينوس الذي وكل إليه أمر الإدارة العامة وخاصة الشئون المالية، ومن أخيلاس المتولي قيادة القوات المسلحة، ثم من ثيودوتس وهو من أهل ساموس وكان رائد الملك، والمشرف على تربيته وتثقيفه . وسوف نرى ما ما تتمخض عنه ظروف هذا الحال، وهل كان في وسع الملكة الشابة أن تقبل الخضوع لحكم هذا الثالوث وبغيه ؟ أم تتبع سياسة استقلالية ؟ تتخذها منهاجاً لنفسها . وفي خلال السنين الثلاث التالية أصبح لامناص من الإجابة على هذا السؤال بطريقة لا تقبل الشك، فطردت كليوباترة من البلاد في السنة الرابعة من حكمها، مثلها مثل أبيها من قبل، ولكنها لم تستسلم، بل جمعت جيشاً مرتزقاً ما كان لديها من أموال، ووقفت في سنة ٤٨ ق.م بالقرب من الفرما على رأس هذا الجيش على حدود مصر وسوريا، على أهبة واستعداد للدفاع عن حقوقها وتسوية الحساب مع أخيها وبطانته في ميدان القتال . إن إرادتها التي لم تكن تفل، وشكيمتها التي لا تنثني،

ورغبتها في أن تثبت وجودها – كل ذلك كان قد بدا ظاهرا للعيان منذ أول الأمر على نحو جعل هذا الثالوث من رجال البلاط، يخشى بأسها، ويعمل على التخلص منها فَوُجهت إلى الملكة تهمة العمل على تدبير أمر الخلاص من أخيها وشريكها في الملك، وكان جزاؤها الطرد، ولكنها حرصت على أن تبقى ملكة (basilissa) على مصر وعملت على الاحتفاظ بملكها وأبهته مهما كلفها ذلك. وكان أخوها الملك الشاب على رأس جيش عظيم جمعه ليحارب به أخته كليوباترة، التي كان معسكرها على مسافة قصيرة من معسكره.

وصادف في ذلك الحين أن كان يمي يحارب يوليوس قيصر والتقى القائدان في موقعة فرساليا ببلاد اليونان سنة ٤٨ حيث لحقت الهزيمة بالأول وولي وجهه شطر مصر آملا أن يجد فيها الملاذ، وساعيا وراء الحصول على مساعدة تكون بمثابة رد الجميل الذي كان قد أسداه للملك بطلميوس أو ليتيس من قبل، عندما ساهم في رده إلى عرشه ؛ ولكن خاب ظن بهم. وفي هذا الصدد يسرد لنا المؤرخ اللاتيني ليفي والكاتب اليوناني پلوتارخوس بأسلوبه القصص وبطريقة مؤثرة تلك الفاجعة الآلية التي حلت بمي عندما رسا على شاطئ الفرما في قارب صغير فقتلته يد أثيمة بإيعاذ من رجال الحاشية المسيطرين على الملك، طمعا في كسب رضاء قيصر الذي كان يتعقب أثر غريمه مي حتى ساقتهما المقادير إلى مصر . وبحسب ما جاء في پلوتارخوس لم يسع قيصر عندما شاهد خاتم يمي، وتعرف على نقش الأسد المحفور على هذا الخاتم، إلا أن يذرف دمعة هتونة على غريمه الذي خسر في ميدان

الخديعة والخيانة. وبعد ذلك واجه قيصر الوضع الراهن في مصر بشجاعة، وقبض على ناصية الأمور فيها، وبذل جل اهتمامه في تصريف شئون البلاد[1].

---

(1) قيصر، الحرب الأهلية (Bellum Civile) فصل ١٠٧.

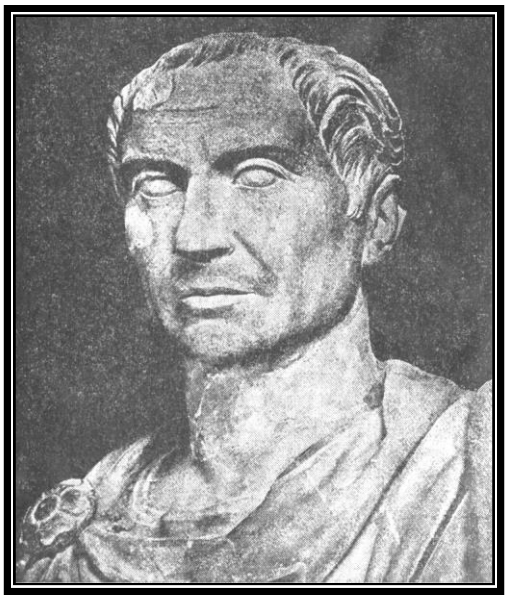
الفصل الثاني

كليوباترة ويوليوس قيصر

في هذه المرحلة الدقيقة من حياة كليوباترة، اعتملت في رأسها شتى المشاعر، فهي امرأة في مقتبل العمر، أوتيت قسطاً لا بأس به من الجمال، على الرغم من أنفها الطويل المحدودب وفها الكبير، وفوق ذلك فإنها كانت على قدر كبير من الذكاء والجاذبية والمعرفة بحسن استغلال الظروف السانحة . إنها كانت تعرف الشيء الكثير عن قيصر الذي كان يبلغ من العمر إذ ذاك اثنين وخمسين سنة ؛ ولا ريب أنها سمعت عن غرامياته ومغامراته، وميله إلى النساء، كما سمعت عما أظهره من مقدرة فائقة في أعمال السياسة وشئون القتال، وما كسبه من انتصارات باهرة. ومع أن هذا القائد الروماني كانت تتوج هامته كل هذه الانتصارات، وغزواته لقلوب كثير من النساء ربما أثارت عجب امرأة شابة مثل كليوباترة، فإنه قبل كل شيء روماني بالنسبة لها، بينها هي سليلة بيت مقدوني مجيد، ويجري في عروقها دم ملكي إلهي .

جالت بخاطرها مثل تلك الأفكار، وأخذت تداعب خيالها آمال كبار، ولكنها لم تنس أبداً في تصرفاتها معه الاحتفاظ هيبتها وسمو مركزها. وهاهى الأقدار وحدها قد ساقت هذا البطل الروماني العظيم إلى مصر، وألقت به في طريق كليوباترة وهي إذ ذاك في محنة قاسية، تقود

جيشا وهي امرأة، لا حول لها ولا طول ضد أخيها وشريكها في الملك وبطانة السوء المحيطة به. فماذا يضيرها أن تجد الخلاص من أزمتها التي ألمت بها على يد قيصر؟ إنها دبرت أمرها، وأحكمت خطتها، وأغنانا پلوتارخوس وديوكاسيوس بأن رويا لنا قصة فرارها على نحو روائي من المعسكر الخاص بها في الفرما إلى الإسكندرية، فركبت قارباً صغيرة في ظلام الليل الدامس متسللةً دون أن يلحظها أحد من حرس خصومها، وفي صحبتها رجل صقلي كان محل ثقتها وهو أبوللودوروس،



يوليوس قيصر

ورست في ميناء الإسكندرية الكبير، وحملت إلى القصر الملكي في طيات بساط أحكم رفيقها لذاته ونشرت هذه الطيات أمام قيصر، فخرجت منها الملكة التي كانت تبلغ من العمر إذ ذاك الواحد بعد

العشرين، ومثلت أمام قيصر المشدوه فهرته في الحال، واستهوته بجرأتها وجسارتها.

وكان المعاصرون لكليوباترة يعرفون جيداً أن قوة جاذبيتها هي في مواهبها العقلية، وطباعها ودماثة خلقها . وفي حين أن أحداً من أسلافها من ملوك البطالمة وملكاتهم لم يستطع أن يقنع نفسه بضرورة تعلم اللغة المصرية، بل إن البعض منهم أهمل كذلك اللهجة المقدونية نفسها، فإن كليوباترة أوتيت ملكة وموهبة مرموقة في هذا الشأن فتعلمت الكثير من اللغات الأجنبية ؛ وبالإضافة إلى اللغة المصرية، واللهجة المقدونية، واللغة اليونانية كانت تعرف لغة الأثيوبيين والعرب والتروجليدتيين، فضلاً عن لغات شعوب آسيا الغربية بما في ذلك السريانية والميدية والآرامية، واستطاعت بفضل هذه المقدرة اللغوية أن تستغني عن المترجمين، وأن تجري أحاديثها وسبل تخاطبها في يسر وسهولة، فكانت تنتقل من لغة لأخرى في براعة تستهوي الأبصار والأسماع وتستحق الإعجاب، وفوق ذلك فإن نبرات صوتها كانت أشبه بصوت القيثارة، له رنين مختلف النغمات، وقيصر الذي عرف بتأنقه البالغ في الأسلوب الكتاني (elegentia summa scribendi) وبتعمقه في المعرفة والعلم بأصول الفنون والعلوم، على قدر معرفته بالسياسة وشئون القتال ولا بد أنه أنس في حديثها والاجتماع بها لذة وإغراءا، فهي امرأة حاضرة الذهن، تألق في شخصها ما بقي لتاج البطالمة من روعة، وانتهجت لنفسها سياسة خاصة، فكان هذا مدعاة لأن تستهوى قيصر بما عرف عنه من حب المغامرة والمقامرة.

كان وصول كليوباترة إلى الإسكندرية على هذا النحو المفاجئ ومحاولتها أن تكسب تأييد سلطان الرومان في شخص قيصر، سببا في غضب السكندريين وسخطهم الشديد . ولما استدعى قيصر في اليوم التالي بطلميوس لإصلاح ذات البين، وإعادة الأمور إلى مجاريها بين الأخ وأخته، جُن جنون هذا الأخ عندما وقع بصره على أخته وخرج ثائراً وسط الجماهير المحتشدة أمام القصر الملكي، وألقى بالتاج من فوق رأسه، وهو يصيح بأنها لخيانة، فثار الجمع، وهدد الغوغاء بمحاصرة القصر، وخرج إليهم قيصر ليعمل على تهدئة خواطرهم، ووعدهم بتنفيذ رغباتهم . وفي جمع للسكندريين حضر قيصر بوصفه ممثلا للشعب الروماني، وقرأ عليهم وصية الملك الراحل، وقضى بأن يتزوج الملك من أخته كليوباترة، وأن يشترك الاثنان في الحكم بمصر تحت حماية الرومان ووصايتهم ؛ واقترح كذلك بحسب ما جاء في "ديو" أن يسمح لبطليموس الأصغر وأخته الصغرى أرسينوي أن يقوما بالحكم في قبرص، وهي إذ ذاك في حوزة الرومان بعد أن كانت قد سلخت من أملاك مصر منذ عشر سنين مضت، وبذلك ردت الجزيرة إلى الملك البطلمي على يد ذلك الغازي الروماني الذي كان قد لقب منذ قليل بالدكتاتور، وأصبح المتصرف وحده في شئون الرومان وأملاكهم، وقد تم الاحتفال بزواج الملك الشاب وكليوباترة في حفل بهيج، وبذا تحقق لكليوباترة أول نصر لها، فالإمبراطورية البطلمية توقف تدهورها وانهيارها، وبقي أن نرى هل تستطيع كليوباترة أن تحقق رسالتها في إعادة المجد الغابر والعظمة التي كانت لهذه الدولة على أيام بطلميوس فيلادلفوس ويورجتيس الأول في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

حرب الإسكندرية بين قيصر والشعب السكندري

على أن موقف هذا الحامي الروماني لعرش كليوباترة ما لبث أن أصبح محفوفة بالمخاطر، في أثناء مقامه في القصر الملكي، محاطاً بسلالة بطلميوس أوليتيس وهم أربعة، اتخذ من كبراهم محظية له . وعندئذ عمدت الأخت الصغرى، أرسينوى، إما بدافع الغيرة من سلطان أختها كليوباترة، وإما بتحريض من بوثينوس، مربي الملك ورائده، إلى الفرار مع خصيها المسمى جانيميديس، ولحقت بالجيش المرابط في الفرما حيث نودى بها ملكة على البلاد المصرية [٢] . وعلى الرغم من أنها كانت تبلغ إذ ذاك سبعة عشر عاما، فإنها أصرت على الإشتراك في تولي قيادة الجيش مع أخيلاس، ثم ما لبثت أن غدرت به ودبرت قتله، وانفردت بتولي القيادة، ونصبت خصيها على رأس القوات المحاربة، فضاعف من أعطيات الجند وهباتهم، أملاً في كسب رضاهم، ولكن قسوته جرَّت عليه كراهيتهم، وسرعان ما ضاق الجند ذرعاً بما كان يبدو على ملكتهم الشابة من تقلب الأهواء، وفي العبارة اللاتينية التالية إشارة صريحة إلى ما كان يساور جموع الجند من ضيق بتلك الملكة الشابة (puellae multitudinem confectam taedio) فبعثوا إلى قيصر يطلبون إليه إعادة ملكهم . وكان قيصر قد احتفظ به في القصر ليكون تحت تصرفه وقد استجاب قيصر لمطلبهم، وسمح للملك الشاب بأن يلحق هم بعد أن زوده بالنصح والإرشاد . وسواء أكان قيصر قد اتخذ هذا الإجراء بدافع الطيبة (bonitas) وحب الخير، أم أن هناك دوافع

---

(٢) Cassius Dio. XLII, 39; Caesar, Bellum Civile 111, 112.

أخرى فإن تصرف قيصر ينم عن حصافة وبُعد نظر، وينطوي على حركة بارعة، إذ كان يأمل أن يشتد التنافس بينه وبين أخته الصغرى أرسينوى وبذلك تخف حدة القوة الضاربة لدى العدو . وقد أشار إلى هذه الواقعة مؤلف كتاب حرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) المنسوب إلى هرتيوس (فصل ٢٤)، فقال إن بطلميوس بعد أن ذرف دموع التماسيح ملحة في الرجاء بأن يسمح له بالبقاء في صحبة قيصر، وثب لتوه بعد إطلاق صراحة متنكرا لتلك الدموع، ومضى يشن حربا شعواء ضد الرومان بعد أن أقصى أخته أرسينوى وخصيها جانيميديس عن قيادة الجيش . فأخذ يشدد الحصار على الإسكندرية، وقاسي قيصر الشيء الكثير من جراء هذا الحصار وتعرض لأشد الأخطار، فسدت القناة الرئيسية التي تمد الإسكندرية مياه الشرب من النيل، وحولت المياه الملحة إلى الأفرع التي تأخذ من هذه القناة وتمد السكان بالمياه، ولكن قيصر كان أوسع حيلة فلم يتسرب اليأس إلى قلبه، وأمر على الفور بأن تحفر آبار بجوار شاطئ البحر، علما منه بأن القاعدة العلمية تقضي بأن مياها عذبة لا بد متفجرة من هذه الآبار المحفورة بالقرب من الشاطئ، وقضى رجال قيصر الليل كله في حفر هذه الآبار التي انبثقت منها على الفور مياه عذبة [٣] . ثم أخذ يقيم المتاريس في شوارع الإسكندرية

([٣]) حرب الإسكندرية، الفصلان ٦، ٨ ؛ يقدم لنا هذا النص اللاتيني بينة من طراز فريد فيصور لنا حالة الإسكندرية ومبانيها وشوارعها ومساقيها وأن المدينة كانت بمأمن من أخطار الحريق لاستخدام الملاط والأحجار والعقود المسقوفة وتجنب الأخشاب . والوصف على روعته وجديته وما يتصف به من أصالة، يمتاز بأنه محكي لنا حالة المدينة وما كان يمتاز به أهلها من ذكاء وحيوية وقدرة فائقة على الابتكار، ومع كل هذا فقد لازمها الحظ العاثر في حربها ضد يوليوس قيصر الذي هزمها رغم ضعف

الضيقة، وعمد إلى اتخاذ موقف دفاعي إلى أن تصله الإمدادات الأولى من آسيا عبر الشام، وقوامها عدد من ناقلات الجند والفرقة السابعة بعد الثلاثين، وعندئذ اتخذ موقفا هجومية. وقد أظهر قيصر ضروبا كثيرة من سعة الحيلة وإحكام الخطة والموهبة العسكرية، فغامر ذات مرة بحياته، غير آبه بها وعام البحر مسافة تلغ مائتى باردة، وكان العدو يقتفي أثره، ووقعت عباءته العسكرية في أيدي خصومه . وقد أنقذ موقف الرومان وصول إمدادات أخرى بمقادير كافية في ربيع سنة ٤٧ ق.م، وكانت هذه تتألف من أهالي آسيا الصغرى وسوريا بالاشتراك مع ثلاثة آلاف من اليهود يقوده ميريداتيس البرغامى . واستولى هذا الجمع على الفرما عنوة، وتقدم صوب ممفيس دون أي عائق ثم سار بحذاء الفرع الغربي للدلتا ميمم شطر الإسكندرية، فكان وصول هذه القوات إلى مشارف المدينة إيذانا بتغير موقف الجانبين المتقاتلين وقلب خططهما رأسا على عقب. وقد عول بطلميوس وهو على رأس جيشه على الإسراع لملاقاة هذا الجيش الزاحف والإلتحام به قبل أن يتصل بقيصر، ولكن هذا التدبير أفسده قيصر بأن رسا ليلا على الشاطئ غربي الإسكندرية، وتابع مسيره وزحفه إلى أن التقى بميثريداتيس في الوقت المناسب، وانقض الجانبان على المعسكر المصري، ففر المصريون إلى سفنهم الراسية في النيل يحتمون فيها، واكتظت أعدادهم، واختل توازنهم، وغرق الكثيرون منهم، وقد أبلى بطلميوس بلاءاً حسناً، ولكنه غرق في النيل، وانتشلت

موارده الحربية وقلة المواد الغذائية وقطع موارد المياه العذبة من النيل عنه، وبذلك وطد مركز ككليوباترة وأمن جانبها .

جثته وجرى عرض درعه الذهبي على شعب الإسكندرية ليكون شاهداً حسياً على وفاة الملك . وعندئذ أسبغ قيصر ملك البلاد على الأخ الأصغر، وله من العمر إذ ذاك أحد عشر عاما، بالاشتراك مع كليوباترة فكما بوصفهما الإلهين المحبين لأبيهما(٤) . وقد حافظت كليوباترة في هذه المرحلة الدقيقة من الحرب على ولائها لقيصر وبقيت في رعايته، أما أرسينوي فقد بعث بها قيصر إلى روما باعتبارها أسيرة لعرضها في موكب نصره، كما أن في إبعادها إزالة مسبب من أسباب قيام الاضطرابات من أجل توليها العرش، وتأمين ظهر كليوباترة، وضمان سواد السلم والطمأنينة في هذه البلاد التي أصبحت بالنسبة له أثمن من أن يسمح بتعرضها للأخطار مرة أخرى، وأبقى ثلاث فرق رومانية تحت إمرة جندى قدير هو روفينوس (Rafinus) لتحمى عرش كليوباترة . وما كانت هذه التخشى شيئا بعد أن تخلصت من الثالوث المؤلف من بوثينوس وثيودوتس وآخيلاس بالقتل ومن بطلميوس بغرقه ومن أختها أرسينوي بإبعادها إلى روما لتلقى حتفها هناك إثر عرضها في موكب نصر قيصر، وهي مكبلة في السلاسل والأغلال. وطالما كانت كليوباترة تحظى بتأييد أعظم الرومان شأنا في عصره فلا خوف عليها . وكانت كليوباترة إذ ذاك (يناير سنة٤٧) تحمل جنينا من قيصر، وركبت في صحبته سفينة فخمة (ذهبية) إلى أعالي النيل بقصد النزهة والترويح عن النفس بعدما ألم بها من جهد وعناء . وقد بالغت في الاحتفاء بقيصر وتكريمه، وإظهار معالم العظمة والفخامة التي اشتهر بها البلاط السكندري، فكانت هذه " الذهبية "

---

(٤) حرب الإسكندرية، الفصلان ٣١ و٣٣.

مثلا رائعة على حب البطالة في إقامة المنشآت الضخمة [فطولها ثلاثمائة قدم وعرضها خمسة وأربعون قدما وارتفاعها ستون قدما] . وقد أتيح لقيصر أن يجوب البلاد في هذا الفلك المشحون، وأن يشاهد معالمها ويتفقد أحوالها، ويتعرف على معالم الجهاز الإداري البيروقراطي السائد فيها، وقد نسق على الطراز الهيلينستي منذ عصر فيلادلفوس فأصبح مضرب الأمثال في الإبداع والإتقان . وإنه لما يسترعى النظر أن الكتاب القدماء كفوا عن تزويدنا بالتفاصيل عن مبلغ ما لقيه قيصر من حفاوة في أثناء تجواله في أرجاء مصر عقب انتهاء حرب الإسكندرية، مع أنه لما جاء ذكر حفلات المرح التي أسهم فيها ماركوس أنطونيوس مع كليوباترة فيما بعد، بالغوا وأسهبوا في وصفهم دون أن يقفوا عند حد . ولعل مرجع هذا التباين الغريب في الحالين من حيث القصور في الناحية الأولى، والإفاضة إلى حد الإغراق في الناحية الثانية، هو إيحاء من أكتافيوس، باعتباره وريث قيصر وربيبه، فكان يرى أن في العلاقة بين أبيه بالتبني وبين كليوباترة التي أصبحت خصماً لدوداً له، ما يشينه ويسيء إليه إذ أن ابنها من قيصر يعتبر وصمة عار في جبينه، ولذلك كان حريصاً كل الحرص على أن يمحو من أذهان معاصريه بقدر المستطاع ذكرى هذه العلاقة المشينة، حتى ينساها الناس أو يتناسوها فتبقى في خلفية الصورة الماثلة في الأذهان.

وإن رحيل قيصر من مصر، ومراحل خطواته التالية ليمكن تأريخها في شيء كثير من الدقة، فاتخذ سبيله عن طريق الشام إلى آسيا الصغرى حيث التحم في زيلا ببنطش في ربيع ٤٧ ق.م بالملك فارناكيس وأنزل

به هزيمة منكرة في أقل من أربع ساعات، وقد بعث إلى روما بنبأ هذا النصر الباهر في عبارة لاتينية مشهورة هذا نصها (Veni , vidi , vici) وترجمتها حضرت فرأيت فانتصرت، وقد جرت مثلا بين الناس على مبلغ الاعتداد بالنفس . وكان هذا النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات التي أنزلها بأنصار يمي وأذنابه في أفريقيا وأسبانيا، وسوف نرى في خضم هذه الأحداث هل يصبح لقاؤه بكليوباترة في الإسكندرية مجرد حلقة براقة عابرة في سلسلة انتصارات هذا القائد العظيم ؟ أم أنه سيمضي في طريقه معها إلى النهاية لا يرعوي ولا يأبه بالنتائج، فيخص الملكة بمنزلة رفيعة في برنامجه، ويضفي عليها من مراتب التكريم أعلى منزلة .

ومرة أخرى كان القدر كريماً مع كليوباترة فوثق العلاقة بينها وبين قيصر بأن ولدت له ابنة في صيف عام ٤٧ ق.م، وقيل إن هذا الابن كان شديد الشبه بأبيه من حيث الخلقة وإنه كان يمشي مشيته عندما شب وكبر [٥]. ومن البين من العبارة الواردة في الفصل التاسع بعد الأربعين من حياة قيصر ابلوتارخوس أن قيصر كان قد رحل إلى سوريا قبل أن تضع كليوباترة هذا الطفل الذي أسماء السكندريون قيصرون، أو قيصر الصغير (Caesarion)، تيمناً باسم أبيه . وقد اكتنفت حياة هذا الابن الكثير من الصعاب نظراً لأن المستقبل الذي كان يعد له، كان مخالفة لغيره من أمراء أسرة البطالمة . إنه كان يربي على أنه وريث قيصر الذي أصبح بعد موت ابنته " يوليا " من غير عقب . ونظراً لما كان يؤهل له هذا القيصر الصغير من دور خطير، ولما كان ينتظر أن يقوم به في المسرحية

(٥) Suetonius, Caesar 52; Plutarch, Caesar XLIX.

السياسية المرتقبة، وما حل به من مصير أليم لقيه في مقتبل حياته بقتله، فإنه لا عجب أنه حتى في العالم القديم انبرى بعض الأطراف المعنيون بهذا الأمر، ومنهم أكتافيوس وريث قيصر بالتبني، وأخذوا يشككون الناس في بنوة قيصرون، ويثيرون الغبار حول صحة مولده ويتساءلون هل كان قيصر والده حقاً ؟ واستناداً إلى بعض العبارات المشوبة بكثير من الغموض مما ورد في خطابات شيشرون لصديقه أتيكوس بشأن الملكة كليوباترة ومقامها في روما نحو سنتين من صيف ٤٦ ق. م إلى ربيع ٤٤ ق.م وما كانت تظهره من كبرياء وغطرسة، فإن العالم الفرنسي كاركوبينو (Carcopino) انبرى لتناول علاقة قيصر بكليوباترة، فقسا عليها في مقاله الذي نشره بإحدى المجلات العلمية [٦] فأرّخ بالفعل مولد قيصرون في أبريل من عام ٤٤ على أبكر الفروض، أي عقب موت قيصر، ثم أضنى نفسه في التخريج والاستنباط للبرهنة على استحالة أن يكون قيصر هو والد هذا الطفل على أساس حساب تقريبي عن وجود قيصر في روما، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن قيصرون ولد في حياة قيصر؛ وشاهدنا على ذلك أن أنطونيوس قرر فيما بعد في مجلس الشيوخ الروماني أن قيصر اعترف ببنوة هذا الطفل . وهذا التصريح من جانب أنطونيوس يدل على أقل تقدير، على أن الطفل ولد في حياة قيصر . هذا فضلا عن أن إقامة الملكة في قصر قيصر على ضفاف التيبر وفي ضيافته بالذات، وسماحه بإقامة تمثال لها من الذهب في معبد فينوس جينتريكس، جدة

---

(٦) Carcopino, César et Cléopatre, Etudes d'Archéologie Romaine, 1937, pp. 37-78.

العشيرة اليوليوية، ينفي هذه التهمة المغرضة. وفي تصرفات قيصر إزاء الملكة، وما ردده شيشرون من شائعات بأن الملكة حامل من قيصر مرة أخرى، ثم ما اتخذته كليوباترة من مراسم دينية ونقوش رسمية على المعابد، كل هذا ينهض دليلا على صحة نسب قيصرون، ثم إن ابتهاج الملكة وإعلانها على الملأ هذا النبأ السعيد له دلالته، فصورت ابنها في هيئة حورس إلى جوار أمه إيزيس وهما يعبدان، ثم ظهرت عملة، سكت في قبرص، وقد نقشت عليها صورة كليوباترة وهي مرتدية شارات أفروديتي – إيزيس وتقوم بإرضاع إبنها قيصرون، وبذلك أسبغت على مولد هذا الطفل طابعة رسمية له شأنه . على أن الكنية أو اللقب القيصرى الذي اختارته له أمه له مغزاه . وما لم يكن قيصر هو والده حقا فإن هذه التسمية تصبح غير مستساغة، وغير مفهومة على الإطلاق، ولا يعقل أن وسمح قيصر بأن ينسب إليه ابن شخص آخر غير معروف، ولا يتسق هذا مع ما نعرفه من دعوة قيصر للملكة في صيف عام ٤٦ ق.م بأن تحضر إلى روما وفي صحبتها ابنها بالطبع.

مقام كليوباترة في روما

(من صيف ٤٦ ق.م – أبريل سنة ٤٤ ق.م).

بناء على دعوة من قيصر لحقت كليوباترة به في روما في صيف عام ٤٦ ، وفي صحبتها ابنها الرضيع قيصرون، وأخوها الصغير وزوجها الملك بطلميوس الرابع عشر . ومن المحتمل أن مولد ابن كليوباترة هو الذي قرر مصير هذا الملاك الصغير الذي مات أو لقي حتفه مسموماً، إما في

روما أو بالإسكندرية عقب عودة الملكة بقليل بعد مقتل قيصر . وقد اتخذت الملكة مقامها في قصر القيصر محاط بالحدائق الغناء على ضفاف التيبر وحرصت على الاحتفاظ ببلاط وحاشية فيه، ووفدت عليها أهم الشخصيات وأخذت تتردد على قصرها، وشاركت هي في رسم الخطط العالمية الجارية، وأتيحت لها فرصة الاطلاع على ما كان يجري من أحداث في روما وفي خارجها، بل إن دورها في توجيه السياسة الرومانية العالمية كان ملحوظاً، ويدها كانت المحركة من وراء ستار لدفة الشئون . ذلك كله يمكن استنباطه من مجرى الحوادث، وإن لم تقم عليه أدلة قاطعة. وعلى ذلك انبرى بعض المؤرخين والكتاب، وتناولوا تلك الحقبة القصيرة وهي فترة مقامها في روما بالتحليل والتفصيل، وأخذوا ينقبون عن البواعث الكمينة والمشاعر الدفينة التي كانت وراء هذه الزيارة في نفس كل من قيصر وكليوباترة، بل عن سر هذا المقام الطويل بين ظهراني الرومان الذين أخذوا يتساءلون عما إذا كانت السياسة هي الدافع الأول له، أم أن دواعي الحب ولواعج الغرام وغصة الفراق هي التي دفعت قيصر لتوجيه هذه الدعوة لكليوباترة، غير عابئ بمشاعر الرومان ومتحدياً لهم بإسكانها في قصره.

ونظراً لما لهذه الفترة من أهمية وما صاحبها من تطورات أليمة، انتهت بفاجعة اغتيال قيصر نفسه في منتصف مارس سنة ٤٤ ق. م، فإنه يروق المؤرخ أن يتلمس الأسباب ويناقش الشواهد والأدلة التي قامت في حقبة تستحق منا بعض التحليل . ومما لا ريب فيه أن الملكة شعرت بحرج شديد عقب اغتيال قيصر فعجلت بالرحيل من روما للتخلص من

هذا الحرج . وعملت على تأمين وصولها إلى مصر خشية أن تتطور الأمور إلى أسوأ في جو مشحون بالتكهنات في روما، وقد ردد الكاتب والخطيب شيشرون بعض الأصداء من هذا الجو فيما كان يبعث به من رسائل إلى صديقه أتيكوس، يبث فيها مشاعره، ويعبر عن آرائه، وينفث دعاية مسمومة ضد الملكة في غير حرج. وإنها لحقبة حاسمة من حياة كل من يوليوس قيصر وكليوباترة مع أنها لا تعدو السنتين (من سبتمبر "يوليه" سنة ٤٦ – أبريل سنة ٤٤). وعلى نحو ما قيل كانت الملكة فيها لا تكف عن إسداء النصح والتحذير لقيصر ما كان يدبر له في الخفاء، وما كان يحاك ضده من دسائس ومؤامرات، واستطاعت في خلال هذه الفترة أن تشهد عيانا وعن كثب الأحداث الجارية، واتصلت بالأشخاص المقربين لهذا الرجل العظيم في السنتين الأخيرتين من حياته، وشهدت حفل النصر الذي أقامه هذا القائد – المظفر، والموكب العظيم الذي سارت فيه أختها الصغرى أرسينوى وملوك آخرون وهم مكبلون في السلاسل والأغلال وأعلن به قيصر على الملأ أنه أنهى حرب أهلية أضنت روما وكادت تزلزل كيانها . وفوق ذلك فإن مقامها أتاح لها الوقوف على أسرار الخطة الطموحة التي كان هذا السياسي يبغى أن يستبدل بها النظام التقليدي لحكومة الجمهورية الرومانية، وإحلال نظام آخر محله، يكون من صنع يده هو ومن تدبيره . ولربما كان هذا الذي يفكر فيه – قد اقتبسه مما شاهده أو سمعه عن الملكية المصرية الهيلينستية ذات الطابع البيروقراطي، على اعتبار أن هذا النظام مجرب في مصر، وأثبتت التجربة صلاحيته في وادي النيل . وفي آخر المطاف

شهدت الملكة في روما الحدث الأليم المفجع الذي حل بهذا البطل في ١٥ مارس سنة ٤٤ ق.م في أحد أبهاء مجلس الشيوخ الروماني عند ما مزقت أحشاءه، وهو في عنفوان قوته، خناجر المتآمرين، وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس، ونجم عن ذلك إشاعة الفوضى في العالم الروماني من جديد، وتزعزع مركز كليوباترة مرة أخرى.

وهنا قد يتساءل المرء عما يمكن أن يكون هناك من علاقة بين كل هذه الأحداث، وبين مقام كليوباترة في روما، وهل كان لذلك المقام أثر مباشر على تتابع الحوادث والتعجيل بوقوعها، وما هو الدور الذي كان قيصر يزمع تخصيصه الملكة في برنامجه ومشروعه نحو عالم جديد، وهل كان الحب الخالص أم السياسة ودواعيها هي الحافز على دعوة الملكة للحضور إلى روما على هذه الصورة الغريبة ؟ – تلك وأشباهها أسئلة عميقة لا سبيل إلى سبر غورها، والتعرف على كنهها . وقد اختلف المؤرخون في معالجتها، فمنهم من نحا نحوا فيه تطرف ومغالاة، فأنكر تماماً وجود أي أثر للمشاعر الشخصية لدى قيصر، مؤكداً أنه لم يقم أي وزن إلا للعوامل السياسية البحتة، فكان من رأيهم أن دعوة قيصر لكليوباترة لتقيم في روما، كان رائدها أن تكون تحت معه وبصره في روما، بل تحت رقابته وأنه كان يريد أن يؤمن ظهره عندما يحين حين ذهابه إلى الشرق لتحقيق مشروع طالما داعب حلمه وهو إخضاع الفرس . وهؤلاء يبررون ظنهم هذا بأن كليوباترة باعتبارها امرأة لم تعد بالنسبة له ذات أهمية خاصة، لما عرف عن قيصر بعد ذلك من أنه كانت له صلات ومغامرات مع نساء أخريات، منهن زوجة " بوجود " ملك ماوريتانيا

(مراكش) في أثناء حملة قيصر الاسبانية سنة ٤٦/ سنة ٤٥ ق.م ثم يمضون في التدليل على وجهة نظرهم، بأن مهام كثيرة للدولة وأعباءها كانت تقع على كاهل قيصر باعتباره قائدا وسياسية وهذه كانت تستلزم في أحيان كثيرة تغيبه عن روما، وبالتالي بعده عن كليوباترة مدى فترات طويلة، ففي نوفمبر سنة ٤٦ ق.م كان في طريقه إلى أسبانيا ولم يعد إلى روما إلا في سبتمبر سنة ٤٥ ق.م وعلى ذلك فإن زيارة كليوباترة إلى روما لو صَحَّ أن الهدف منها كان لتحقيق أغراض ومآرب شخصية بحتة لدى قيصر، فإن الوقت الذي اختير لها لم يكن موفقاً ولا سعيداً .

على أن مثل هذه الاعتبارات وأشباهها من الأقاويل التي ليست بذات أهمية، لا يجب أن تصرفنا عن أخذ بعض الحقائق في الاعتبار عند تقدير ما كان لمقام كليوباترة في روما من أهمية، والنظر إليه في ضوئه الصحيح . وإذا قصرنا البحث في هذه الزيارة على وجهة النظر الخاصة بالتعرف على مدى صواب هذا العمل، وعما إذا كانت دواعي الحكمة السياسية هي التي أملته فإن هذه الزيارة، بما أثارته من نقد شديد ضد قيصر، لم يكن أمرها مفهوماً ولا مستساغاً ؛ ولكننا عندما نتصور قيصر على أنه أصبح سيد العالم أجمع، وقد اختمرت في ذهنه في سني حياته الأخيرة صورة جديدة لنظام الحكم وساورته أفكار عن الملكية الهيلينستية الإلهية، فعندئذ فقط ندرك مدى التداخل والتشابك الغريب بين لواعج الحب وعوامل السياسة وأن هذه كلها حفزته كيما يتخذ هذه الخطوة الجريئة.

وإن منظر كليوباترة وفي صحبتها زوجها الصغير ثم ابنها قيصرون

وقد أحاط بهم رهط ضخم من الأغوات والأتباع وبطانة من رجال السياسة والقلم، قد أثار الرومان، وأخذوا يتساءلون على مضى الزمان عن مغزى كل ذلك . ومما زاد في شكوك الناس أن الملكة قد اختارت أن تعيش في روما عيشة الملكات الحقة، ما كان له أثر قوي في نفوس الرومان الذين ألفوا مشاهدة الملوك الأجانب، وأمراء الشرق وهم يقيمون بين ظهرانيهم أفترات، وكان بطلميوس أو ليتيس نفسه والد كليوباترة، أحد هؤلاء ولكن زيارة كليوباترة كانت ذات طابع فريد، وحظيت باهتمام خاص. وعندما احتفي قيصر في سبتمبر (يوليه) سنة ٤٦ على نحو باهر ما كسبه من فتوح في بلاد الغال ومصر، وما حققه من انتصارات على فارناكيس وچوبا، ملك ماوريتانيا، تجدد بذلك الاهتمام الذي كان قد أثير في نفوس الناس، بقيام حرب الإسكندرية، وما صاحبها من مغامرات . وإن عرض تمثال إله النيل، وصورة الفنار المقام في فاروس، ومنظر الأميرة أرسينوى المنكودة الحظ وهي تسير في موكب النصر، وما أثارته في نفوس النظارة من أسى – كل ذلك بعث الهواجس في قلوب الرومان . وأخذ الجند يلحون في أغانيهم الفجة إلى أن الملكة قد أوقعت قائدهم في شباك غرامها، وأصبح اسمها وحديثها تلوكه الألسن وتندر الناس ما كانت تعيش فيه من بذخ غريب، وساعدهم قيصر في تثبيت ظنونهم هذه حتى لم يترك مجالا لأي شك فيما يتعلق بمنزلة كليوباترة من نفسه، وما تعنيه بالنسبة له، ما أسبغه عليها من ألقاب، فأصبحت صديقة الشعب الروماني وحليفته، وبذلك تم إقرار تصرفاته في الإسكندرية، وما اتخذه من قرارات بشأن مستقبلها، وأسدل الستار بإسباغ صفة دستورية

على مركز الملكة التي أصبحت تتمتع بحقوقها كاملة، وتشغل المركز والمنصب الذي تعب والدها في شرائه بالأموال، وبإراقة الكثير من ماء الوجه . ومن الأمور التي كان لها مغزى خاص أن قيصر أولاها تكريماً وتشريفاً لذاتها عند احتفائه بالنصر الذي كسبه، وتكريسه سوقاً عرفت باسمه (Forum Julium) أقام في وسط ساحتها معبداً لفينوس جنيتريكس، ربة الأسرة اليوليوية، وعلى مقربة من تمثال هذه الآلهة أقام تمثالا ذهبياً لكليوباترة . وقد تضمن هذا مغزى أبعد من مجرد تحية شخصية أراد أن يسديها لامرأة تعّلق ها وإنما كان عملا أملته حكمة سياسية ودينية، وهو من نوع الأعمال المألوفة في مصر والمالك الهيلينستية بوجه عام، حيث كان الحكام والملوك يؤلهون. ولكن في نظر الرومان كان السماح بإقامة تمثال الملكة أجنبية (regina) في معبد فينوس بالذات أمراً بغيضاً، وفيه تحد لشعورهم، ونذير بوقوع الكثير من مخاوفهم ووساوسهم.

وليس هناك من سبيل إلى التكهن بما كان يطمع فيه قيصر ويهدف إلى تحقيقه وهل كان يروم تحقيق الملكية، ولكن الشكوك كانت تحوم حوله في هذا النطاق، ولسنا ندري على سبيل اليقين مبلغ تأثير كليوباترة عليه في هذا الصدد، ولكن الأمر الذي لا ريب فيه أنها باعتبارها رمزاً يمثل الملكية الهيلينستية كانت في أغلب الظن عونا له على السير في هذا السبيل، بدلا من أن تكون عائقا له عن التردي في هذه الهاوية . وإنه لمن العسير علينا التكهن بنوايا شخص من طراز قيصر، مع ما عرف عنه من سعة الحيلة، ورحابة الصدر واتساع الأفق، والجزم على سبيل

اليقين بما يمكن أن توقظه فترة إقامته في مصر من مشاعر، وخاصة أننا نعرف أن الثقافة الهيلينستية كانت قد غزت على أي حال – منذ أمد طويل – المجتمع الروماني وأصبحت مسيطرة على عقول الطبقات الحاكمة والعناصر المستنيرة في روما . ونظرا لأن قيصر كان ضليعا في علوم الفلك والرياضة، فإنه عنى في أثناء مقامه في الإسكندرية بموضوع التقويم وحسابه متأثرا في ذلك بعالم سكندرى يسمى سوسيجنيس، كان يشتغل بالرياضيات . وكان من ثمار ذلك التقويم اليوليوي المشهور الذي ابتدعه قيصر في أول يناير سنة ٤٥ ق.م، ولهذا الإصلاح التقويمى مصادره وأصوله المصرية، كما أن ألقاب التكريم التي أسبغت على هذا الدكتاتور يمكن بوجه عام تتبع أصولها في العرف الهيلينستى والتقليد الذي جرى عليه .

وتمادى الناس في غلوائهم وأخذت الشائعات تنسب إليه أعمالا وأقوالا تلمس الناس فيها نوايا ومآرب أخرى، فقيل فيما بعد إنه كان من المتفق عليه عقب رحيل قيصر ليلحق بجيشه أن يتقدم أحد نقباء العامة وترابنتهم (Tribuni) واسمه هلفيوس سنا (Helvius Cinna) بلائحة خطيرة للعرض على مجلس العامة الروماني، يسمح بمقتضاها لقيصر عقد زيجات أخرى شرعية من أجل ضمان نسل وذرية له، وذلك نظرا لأن زواجه من كاليورنيا لم يسفر عن عقب له، وبالطبع كان هذا التشريع المرتقب لصالح كليوباترة، إذ يتيح لها الفرصة كما تصحيح وضعها مع قيصر بعقد الزواج عليه حتى يصبح لابنه منها منزلة شرعية ويكون وريثة له، أو قد تنجب له الملكة ابنة آخر. وهناك شائعة أخرى قالت بأن

قيصر كان ينوي نقل مقره من روما إلى الإسكندرية أو إلى تروادة .

وفي مستهل عام ٤٤ تأزم الموقف السياسي بدرجة ملحوظة على أثر العثور في الكتب السيلينية المقدسة على نبوءة تتفق مع مآرب قيصر،و تلائم مطامعه الخاصة وتقول بأن الحرب ضد الفرس والبارثيين (Parthians) يمكن أن تكلل بالنجاح إذا كان على رأس الجيش الروماني الذي يخوضها ملك. وفي ضوء هذه النبوءة صيغ اقتراح يخول لقيصر أن يلقب نفسه ملكا في أي وقت بشرط أن يكون هذا في خارج إيطاليا، وكان مقررا أن يعرض هذا الاقتراح على السناتو الروماني في ١٥ مارس، ولكن خناجر الجمهوريين خلصَّت العالم الروماني من أطماعه في نفس هذا اليوم فخر صريعاً، وبذلك خلق للملكة مركزاً حرجاً ودقيقاً للغاية وجعل مقامها في روما محفوفاً بالمخاطر فعجلت بالرحيل والفرار (fuga reginae) على حد قول شيشرون في إحدى رسائله، وعادت إلى مصر سالمة، ترقب بعين الحذر ما تتمخض عنه الأحداث في روما وفي خارجها . وبذلك طويت على هذا النحو الفجائي صفحة من حياتها كانت حافلة ومليئة بالآمال العريضة.

الفصل الثالث

كليوباترة وأنطونيوس

يرتبط الشق الأخير من حياة كليوباترة ارتباطاً وثيقاً بحياة بطل رومانى آخر هو ماركوس أنطونيوس، ولطول مدته والطابع العالمي في أحداثه طغى هذا الشق على سابقه، وحظي بنصيب أكبر من الدراسة والتفصيل . وتعددت مواقف التلاقي والتوافق بين مصلحة هذين البطلين حتى بات من العسير أن نعرض لأحدهما دون الآخر . وإن من يتصدى لتأريخ هذه الحقبة من حياة كل منهما وتبويب صفحاتها الخالدة ليلتقي بعض العناء والمشقة في تبين كنه الحقيقة سافرة، نظرا لما شاب تلك الحياة من تداخل بين العوامل السياسية والعسكرية والعاطفية، فالجانب العاطفي في حياة أنطونيوس أصبح بارزة بصورة كانت مضرب الأمثال في روعتها وبهائها حتى أصبح هذا الجانب من حياته وعلاقته بكليوباترة يحظى بشهرة أعظم من الجانبين السياسي والعسكري وإن كان أقلها أهمية . ولعل السبب في ذلك أن أضواء ساطعة سلطت على مدى أجيال طويلة على هذه الناحية فضخمت الأخطاء، وبالغت في الأعمال والأهواء التي كانت تصدر عن هذا البطل ونفخ في بوق دعاية سيئة مغرضة، قصد بها تشويه سمعته في نظر الرومان، حتى تعذر أو كاد يصبح من المتعذر أن تتجلى الحقيقة مجردة عن الغرض أو الهوى وخالية من التمويل والمبالغة.

أما بالنسبة للملكة كليوباترة فإنه أصبح من المتعذر كذلك أن نفرق بين الجانب السياسي والجانب العاطفي في حياتها، فتداخلت شخصيتها كملكة قابضة على ناصية الحكم محبة للسيطرة، في حياتها بوصفها امرأة جياشة النفس بالعواطف، وسطت هذه في بعض الأحيان على الجانب السياسى وتغلبت عليه حتى ضاعت معالمه، وأصبحت علاقاتها مع أنطونيوس بارزة وتحتل مركز الصدارة في مقدمة الصورة الباقية في سجل التاريخ،



ماركوس أنطونيوس

تفيض بوصف ما كان يجري من صخب في الحفلات والموائد والندوات . وما كان ينظم من استقبالات ومهرجانات، فضاعت معالم الأشياء وسط كل ذلاك وتعذر استخلاص الحقيقة، لأن الكثيرين من الأوربيين جروا على منهاج تقليدي، توخوا فيه المبالغة في إبراز الجانب العاطفي، وحرص نفر منهم على إشباع غيه ونفث سمومه وحقده على كليوباترة، باعتبارها امرأة شرقية تطلعت إلى السيطرة على روما، وعملت على إذلال أبناء تلك الدولة. ومن واجب الإنصاف ألا تنساق وراء هذا النفر في غلو انه هذا، وإنما تفند المعلومات والإشارات الواردة على ألسنة الشعراء والأدباء والكتاب قبل موقعتي أكتيوم ونيكونولس أي قبل انتحارها، ثم ما قيل عنها بعد ذلك في العصر الأغسطى وما تلاه من عصور، فترفض قبول كل ما ورد على ألسنة هؤلاء، وما كانوا فيه متأثرين بالهوى وتوجيه رجال السياسة والقائمين على الحكم في صدر عصر الإمبراطورية الرومانية، فأغلب هذا صادر عن بغض وهوى ورغبة المنتصر في تسوئ سمعة المهزوم، وإخفاء معالم الحقيقة في طيات الدعاية المغرضة. والأمر الذي لا ريب فيه أن حياة كليوباترة، والمراحل الأولى من علاقتها بأنطونيوس، وموقفها منه كبطل رومانى، ثم تطور هذه العلاقة إلى زواج رسمى، ووقوفهما معاً جهة واحدة على رأس بلاد الشرق ضد روما وقوتها المتكتلة في الغرب – ليست كلها مليئة بالهوى والحب الصارخ، يتمثل فيه اندفاع المحبين الذين يترددون في الهاوية، ويعمهم حبهم عن رؤية الحقيقة مجردة، ويسوقهم إلى تنكب السبيل القويم.

على أنه توجد في حياة أنطونيوس وكليوباترة مادة دسمة من

المعلومات والتصرفات، فهذه الحياة المشتركة وحدها تمثل في مجموعها ملحمة قائمة بذاتها، وتصوير تراجيدية رائعة انتهت بمأساة خالدة . وبقي علينا الآن أن نستخلص بعض جوانب هذه الحياة، ونفند عناصر هذه المأساة، محاولين أن نميز بين الغث والسمين فيها، وخاصة أنها كما قلنا متداخلة الأحداث والمشاعر، بعضها في بعض إلى درجة التعقيد الشديد، وأصبحت بعض جوانب هذه الحياة في سيرة كل منهما مكسوة بأغلفة سميكة، ومحاطة بالأسرار، في حين أن البعض الآخر قد أفتضح أمره. وهناك أكثر من سر دفين في هذه الملحمة المزدوجة، حمله كل من البطلين معه إلى قبره، ومن ذلك سرفرارهما من ساحة القتال في أكتيوم على رأس الأسطول المصري وعودتهما إلى الإسكندرية، وسر الوصية التي قيل إن أنطونيوس كتبها موصياً بأن يدفن في الإسكندرية، وافتضح هذا السر على يد أكتافيوس، وضاع صوت أنطونيوس في سبيل الدفاع عن نفسه وسط الضجة التي أقامها أكتافيوس في العالم الغربي، وهناك سر انتحار كليوباترة بعد أن خابت آمالها ونواياها في أن تجتنب نفسها عار السير في موكب أكتافيوس في شوارع روما على نحو ما فعلت أختها أرسينوى من قبل في موكب يوليوس قيصر، وفي أن تكون الإسكندرية عاصمة العالم الجديد –كل هذا وغيره من الأسرار الدفينة التي حيرت العالم، قد حملها البطلان إلى قبرهما . وإن كل الشواهد لتدل على أن مصرية كليوباترة وشعبيتها كانت قوية، وأن روحها القومية كانت عالية أنزلتها من نفسها فوق كل اعتبار وأن هذه الملكة كانت تلقي تأييدا شاملا من العناصر المصرية التي وقفت إلى

جانبها، وأيدتها في السراء والضراء، فثارت ثورتها، وعضدتها في محنتها[٧] . وليس هنا مجال الدفاع عن مسلكها والتصدي لتبرير كل ما فعلته أو الإعتذار عنه (apologia) وإنما يفرض علينا واجب الإنصاف ألا نقسو في الحكم عليها كما لا نبالغ في حرق بخور المدح لها، وإنما نقف موقفا يتسم بالحكمة والروية والإنصاف.

وفي حياة كليوباترة إزاء أنطونيوس مواقف حاسمة، استبقت مركز دقيق أوقعها في اغتيال يوليوس قيصر وموته على هذا النحو الفجائي وكان ذلك يستلزم منها أن تشد أزر كل من أنطونيوس وأكتافيوس، وهما اللذان حملا وحدهما لواء الحرب، وعبء الانتقام لقيصر من قتلته فقادا الجيوش ضد الجمهوريين، وانتصرا عليهم في سنة ٤٣ في معركة فيلماى ببلاد اليونان. وعقب الانتصار في هذه المعركة تشتت قوى بروتس وكاسيوس، واتفق أكتافيوس وأنطونيوس على أن يختص أولها بحكم الغرب، ويترك لثانيها التصرف في شئون الشرق. واتهمت كليوباترة بالنكوص على أعقابها والتردد والتقاعس عن تقديم العون والمساعدة في هذه المعركة الانتقامية، مما استوجب دعوتها للمثول أمام أنطونيوس وهو في افسوس بآسيا الصغرى لتجيب عما يوجه إليها من اتهام . وكان لقاؤهما في تارسوس (طرسوس) بآسيا الصغرى على صورة مسرحية رائعة. فتح هذا المجال على مصراعية للروائيين والمؤرخين على السواء، لما في

---

(٧) ومن الشواهد على ذلك ما ذكره العالم و.ل. وسترمان في منال عنوانه « البطالمة وجهودهم في العمل على تحسين أحوال رعاياهم » وهو منشور سنة ١٩٣٨ بالانجليزية في مجلة أعمال مؤتمر البردي الخامس الذي عقد في أكسفورد سنة ١٩٣٧ . وأيد هذا الرأي العالم سير ،ادرس بل في كتابه عن « الهيلينية في مصر » آخر الفصل الثاني ترجمه زكي على.

ذلك اللقاء الذي بدأت به فترة العشق والغرام من مادة روائية تصدى لمعالجتها الكتاب الروائيون. على أن هناك مادة تاريخية وعوامل إنسانية يجد فيها مؤرخو هذا العصر الدوافع البشرية وهي تتصارع .

واستمرت هذه الفترة من ٤٢ حتى ٣٦ ق.م، تخللتها أوقات كان يقع فيها فتور في العلاقات، بل فراق وإعراض كان يمتد إلى سنوات وتنقطع أسباب المودة والاتصال ويشغل فها أنطونيوس حملات كان يشنها على الفرس وأرمينيا، مؤملا تحقيق البرنامج العسكري الذي تركه قيصر، واضطلع به من بعده باعتباره الخليفة الطبيعي له وسيد فرسانه (Magister Equitum) ولكن التوفيق لم يكتب له في مآربه هذه . وفي صدر هذه الفترة قضى أنطونيوس بعض الوقت في الإسكندرية مع كليوباترة في فصل الشتاء بقصد الاستجمام، ولربما أعدّا خلالها خطة مستقبلهما، كما تلقن فيها من كليوباترة دروساً عملية في السياسة إلى جانب العشق والغرام، فالتقت مصالحهما، واتفقت مآربهما، فهو يريد الكنوز والأموال التي ظن أن مصر معينة منها لا ينضب، وهي بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها، وتحقيق أغراضها ومطامعها السياسية . ولربما لم يجل بخاطرها في ذلك الحين مد سلطانها وسيطرتها إلى روما، والعمل على إذلالها. وقد تأثرت حياتها بما كان يظهره أنطونيوس من مواقف البطولة وما كان يلقاه من هزائم . وعلى ذلك كان للجانب العسكري في حياة هذا البطل صداه وانعكاساته على كليوباترة ؛ فما لبث هذا القائد العظيم بعد أن ذهب إلى الشرق الذي آل إليه حكمه واعتبر منطقة نفوذ له، وأخذ يجمع الأموال، ويشتط في

فرضها على سكان آسيا الصغرى، ويعد العدة للحملة المرتقبة على فارس – وكان الرومان قد علقوا الآمال الكبار على قيادته وبطولته – أن توالت عليه الهزائم في الشرق، وفشل أكثر من مرة في كسب النصر . فضاعت منزلته، في أعين الرومان، وأخذ ينحاز نحو الشرق أكثر من ذي قبل، وأفسحت له كليوباترة الطريق وأمدته بما كان يلزمه من أموال ومؤن ومضت شوطاً بعيداً في نصرته. وإن زواجه من كليوباترة وإعلانه ذلك في سنة ٣٦ أو ما بعد ذلك بقليل (سنه ٣٣ – ٣٢ ق.م) وتحديه زميله وشريكه في حكم العالم الروماني بطلاقه لاكتافيا، أخت هذا الزميل ليمثل نقطة تحول ظاهر وخطير في حياة هذا الرجل، بل وفي حياة كليوباترة نفسها، فتوثقت الصلات بينهما وارتبطت مصالحهما ووحدت الزوجية بين مآربهما، وأصبحت مصلحة مصر لها المقام الأول في تفكيرهما.

وبقي أن نعرض لتفاصيل هذه الأحداث في شيء من الإسهاب لنتبين مراحل تطور العلاقات ونفند ما يساق من أقوال، ظاهر فيها التلوين والتوجيه .

ماركوس أنطونيوس وحكومة الشرق:

وفي دراسة حياة كليوباترة وماركوس أنطونيوس، وعلاقة الأخير بالشرق عامة، وسوريا ومصر خاصة، لابد لنا من التعرض لحك الوالي الروماني المسمى جابينيوس (Gabinius) على سوريا عام ٥٧ ق. م وذلك لأن مدة ولاية هذا الحاكم تعتبر على جانب عظيم من الأهمية في

تاريخ حياة أنطونيوس، وبالتالي في تاريخ حياة كليوباترة، فقد كان الأخير قائداً لقوة الفرسان عندما زار سوريا وواجهته مشاكلها التي قُدِّر أن يتصل تاريخها بالجزء الأخير من حياته أشد اتصال، وأن تلعب دورا هاما يقرر مصيره النهائي.

ولما عُيِّن جابينيوس حاكما على ولاية سوريا مُنح السلطة في أن يجمع الجيوش، وجند الجند لكي يكون على استعداد لخوض غمار الحرب إذا لزم الأمر، وشاءت المقادير أن تسوق له – وهو في طريقه إلى البلاد التي عن عليها – ماركوس أنطونيوس الذي كان في ذلك الوقت في بلاد الإغريق يتمرن على الألعاب الحربية، ويتدرب على أساليب الخطابة ليكون بعيداً عن روما والمشاكل التي كان يخلقها له أعداؤه وخصومه فيها، فالتحق بخدمة جابينيوس، وصحبه إلى الشام، ولقد هيأت له هذه الفرصة التي أتيحت له في الشام من الظروف ما مكنه من أن يدرس بنفسه، وعن كثب، تلك المشاكل الكبرى التي استعصى حلها على كبار المفكرين من الرومان، وكانت الشغل الشاغل أمام روما في الشرق، ومن أهمها المسألة المصرية، كما أنه تعلم على يد جابينيوس ما كان يجب على الحاكم الروماني في الشرق تعلمه، وعرف منه كيف تعالج مثل هذه المشاكل. وزيادة على ذلك، فقد رأى بعين رأسه العمل الإنشائي الذي يقوم به حكام الولايات الرومانية، فاستفاد من كل هذه التجارب والمعلومات التي جمعها في الشرق أثناء حكم جابينيوس أيما استفادة، حتى إنه عندما آل إليه حكم الشرق، بعد مقتل يوليوس قيصر بقليل، وتعلق به مستقبل مصر وملكتها، كان على معرفة تامة بشئون

الشرق وبلاده، فاستطاع أن يجول في ذلك الميدان ويصول.

كانت المسألة المصرية من أعظم المسائل السياسية أهمية في روما إذ ذاك وكانت تتخذها الأحزاب السياسية بروما ضمن برنامجها، وتعيرها من الاعتبار ما تستحقه، واستمرت هذه المسألة تستهوى الأحزاب السياسية وتجد لها أعوانا كثيرين في روما مدة من الزمان إلى أن سوّيت نهائياً على يد أكتافيوس سنة ٣٠ ق.م، بضم مصر إلى حظيرة الدولة الرومانية فأصبحت جزءاً مهماً بل وحيوياً في كيان هذه الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف (Imperium Romanum) والتي كان أغسطس أول إمبراطور عليها.

ارتبط أنطونيوس بالشرق، وحرص على أن يكون من نصيبه في الاتفاق الذي أبرمه مع زميليه أكتافيوس ولبيدوس عقب الانتصار الذي تم لهم في موقعة فيليباي في شهر أكتوبر عام ٤٣ ق. م. على قتلة قيصر، والحزب الجمهوري، وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس، وكانوا قد جمعوا قواتهم في مقدونيا، فكانت فيليپاى هذه آخر معقل لقتلة قيصر، ولكن سوء الحظ لازمهم فهزموا هزيمة منكرة، ودفعوا حياتهم ثمناً غالياً لجريمتهم الشنعاء . وهكذا تغلب الحكام الثلاثة على أكبر خطر جسيم، كان يهدده في حياتهم، وذلك بهزيمة أعدائهم، ولكنهم ما نفضوا أيديهم من الحرب حتى واجهتهم مشكلة تحفها المخاطر من جميع الجوانب، وتكتنفها الأزمات، من كل ناحية . فقد كان العالم كله بعد أن وقع في فوضى واضطراب ردحا من الزمن عقب مصرع قيصر يتطلب السلام العاجل، والانصراف للإصلاح والتنظيم، وكان الحكام الثلاثة صفر

الأيدي، وخزائنهم خاوية من الأموال والجند يطالبون بمؤخرات رواتبهم، وهذا خلق مشكلتين منفصليين تماما كان لا بد لهم من حلهما حلاً مرضياً، فكان عليهم تهدئة الحالة في الغرب، وإعطاء الجند شيئا من مؤخرات رواتبهم . أما الشرق فكان لابد من إعادة تنظيمه، والانصراف المعالجة مشاكله على وجه السرعة، أما المشكلة الثانية فهي حاجة الحكام الثلاثة الشديدة، المكافأة جنودهم وفي هذا بقاء لكيانهم وحفظ لقواتهم – وكان أنطونيوس في التقسيم الذي تم بعد موقعة فيليپاى، الشريك القوي الذي تمكن من أن يملى إرادته على شريكيه في تقسيم المسئولية بينهما، فاحتفظ. وهو الظافر في فيليپاى بنصيب الأسد من الغنيمة، وبالجزء الذي ينتظر أن پدر عليه خيراً كثيراً، ويكفل له مستقبلا أعظم من مستقبل زميليه، وبينما كان الشرق أغنى أجزاء الدولة الرومانية، وكانت مهمة تسوية مشاكله أمرا يجلب ربحاً كبيراً يملأ خزائن حكام الدولة الخالية، إذا بمطالب الجند من الجانب الأخير وإفلاس الثلاثة مصدر خطرٍ جعل مهمة تسوية مشاكل الغرب أمراً محفوفاً بالمخاطر لما يتطلبه هذا الموقف، من مصادرة أملاك الرومان في إيطاليا لإشباع هم الجند، وإجابتهم إلى طلبهم . ولابد أن كان لهذه الاعتبارات كلها أو بعضها قيمتها في اختيار أنطونيوس للشرق ميداناً له للعمل، وتركه المشاكل الخطيرة بالغرب لزميله أكتافيوس الذي كان أضعف منه صحة، وأقل منه خبرة وحنكة .

ويجب هنا ألا نسلم بما ادعاه بعض المؤرخين الحديثين، الذين غلوا كل المغالاة فيعدوا عن الحقيقة بعداً كبيراً، جعلهم ينسبون إلى

أنطونيوس دوافع تافهة كانت العامل الأكبر في اختياره الشرق، فاتهموه بأنه كان يريد أن يشبع شهواته، وأن يجرى وراء لذاته التي بالغوا كل المبالغة في وصفها . ويظهر أنه لا بد أن كانت هناك اعتبارات أخرى جدية كانت العامل المرجح في تصرفه، وتفضيله الشرق عن الغرب. ولقد كان الرومان في ذلك العصر يعتبرون الشرق أثمن درة في أملاك الدولة الرومانية، وبه مر. المدن والحواضر مالا يدخل تحت حصر، ولو أن هذه كلها لم تكن في الحقيقة مدنا بالمعنى الذي نفهمه، بل قرى متواضعة ذات مجالس خاصة بها؛ ولو قرأنا ما كتبه شيشرون عن غي وثروة آسيا الصغرى لظهر لنا جليا أن الشرق كان يمد روما بأكبر وأضمن دخل تعتمد عليه في أعز شيء لديها، وتدين له بحياتها، ثم أشار مؤرخ إيطالي يدعى فريرو(Ferrero) إلى هذا البون الشاسع بين حال القسمين بقوله "كانت أملاك الدولة الرومانية بأوربا فقيرة حقاً، ويقل السكان بها ولم تكن على جانب كبير من المدنية والرقي إذا قورنت بالشرق العظيم الشاسع الزاخر بالثروة والذي تقدمت به المدنية لدرجة عظيمة، فقامت به مدن صناعية كثيرة، وأسواق تجارية نافعة وطرق عظيمة ومراكز علمية شهيرة، وأراض زراعية خصبة .. وفضلا عن ذلك فلم يقتصر الأمر على أن الشرق إذ ذاك كان أغنى من الغرب، وأكثر سكاناً منه، ولكنه كان أقدم وأعرق منه في المدنية . ولقد أخذ بنصيب وافر من مدنية اليونان بعد غزو الإسكندر، واصطبغ بصبغة هيلينستية، وشاع بين أرجائه استخدام لغة " الكويني " وهي اللهجة اليونانية المتداولة في آسيا الصغرى والشام ومصر والجزر . وهذا كله جعله جذاباً بدرجة كبيرة،

تأخذ بلب الروماني الذي تعود أن يعيش عيشة خشنة في بلاده . وعلى ذلك يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الشرق كان حقا مطمح أنظار ذلك الجيل الروماني، ومحط خياله وهيامه، ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن أنطونيوس كان يعتبر نفسه خليفة قيصر، ويرى أنه كان لزاماً عليه أن يقوم بتنفيذ مشروع الحملة الفارسية العظيمة، فلا بد أن يكون قد جال بخاطره إخراج ذلك المشروع إلى حيز التنفيذ بعد تنظيم أمور الشرق، ومعالجة مشاكله – كل هذه الاعتبارات كان لها قيمتها بلا ريب في تفكير أنطونيوس عند اقتسامه العالم الروماني مع شريكه، وعند تفضيله الشرق على الغرب .

وبعد اتفاقية فليپای ذهب أنطونيوس ميمماً نحو الشرق فوصل إلى بلاد اليونان، وكان يحضر الألعاب ويشترك في المناقشات والمحاورات الأدبية بين العلماء والفلاسفة واشترك كذلك في بعض الحفلات الدينية وكان يسره أن يشار إليه بأنه " محب لليونان " و" نصير وصديق للأثينيين " وقد علل المؤرخ پلوتارخوس هذا المسلك من جانب أنطونيوس بأنه كان ينطوي على حبه اللهو واللعب ولكنا نحب ألا نسلم بصحة ذلك الدافع، إذ لا بد أن يكون هناك سبب أقوى من ذلك، حداً به إلى الاندفاع في ذلك السبيل، وهو أن أنطونيوس رأى مقدار أهمية مثل هذه الخطوات في التأثير في الرأي العام في المدن اليونانية بآسيا الصغرى، التي لم تكن تنظر بعين ملؤها السرور والارتياح إلى أي حكومة تتدخل في شئونها الداخلية، وتعبث بحرياتها المكفولة، وهذا الامتعاض من جانب المدن اليونانية في آسيا الصغرى يخلق مشاكل خطيرة لأي

حكومة أو حاكم يسلك هذا المسلك. وفي ضوء هذا يجب أن نفهم السر في إقامة أنطونيوس في بلاد اليونان، واشتراكه في حفلاتهم الدينية البحتة، وأن نفسر ذلك لا لحبه للهو والسرور وإنما هي السياسة الحكيمة، والحكمة القوية، وتلك الحكمة هي اعتراف العالم اليوناني خاصة والشرق عامة به محباً غيوراً على مصالح اليونان، وبذا يتأثر الرأي العام في أرجاء الشرق، وينتصر له، وهذا مكسب عظيم قدر أن يكون له فائدته الجلي بالنسبة له ولكليوباترة عند تطور الحوادث فيما بعد ذلك بقليل .

وفي أوائل فصل الربيع عبر أنطونيوس البحر ميمماً نحو آسيا. وإنه لمن المحتمل أن يكون أنطونيوس قد رسا على مدينة إفسوس التي كانت العاصمة والمقر الرسمي للحاكم الروماني في آسيا الصغرى، وكانت كل السوابق تشير إلى دخول الحكام إلى آسيا عن طريق ميناء إفسوس . وبعد أن قدم أنطونيوس القرابين والذبائح الكثيرة لإلهة المدينة المسماة أرتيمس، وعفا عن معظم الذين لجئوا إلى معبدها، أمر بدعوة جميع اليونانيين وملوك آسيا الصغرى التابعين لروما للإجتماع به في إفسوس، فهرولوا كلهم مسرعين، وخروا بين قدميه ساجدين، ورفعوه إلى مرتبة آلهتهم، وخرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم فرحين مستبشرين، كله قد اتخذ شعاره الذي يليه عند تقدمه لآلهته، فالنساء مرتديات ملابس أتباع الإله " با كوس " ومثلهم الرجال والأولاد في زى أشخاص خرافيين للقاء أنطونيوس العظيم، فكان الناظر برى الرماح بارزة في أنحاء المدينة قاصيها ودانيها، وقد غطيت أطرافها بشجرة اللبلاب، ويسمع الأهلين في

الطرقات يوقعون على العود والمزمار والقيثارة إجلالا لأنطونيوس الذي كان لديهم بمثابة الإله باكوس " إله الفرح والسرور وإله الرقة والإحساس الجميل ". وفي هذه الجموع الزاخرة خطب أنطونيوس خطبة عامة سياسية، تناول فيها أموراً شتى، وكشف عن حاجته وحاجة زميليه : أكتافيوس وليدوس، الماسة إلى المال لمكافأة الجند الذين اشتركوا في موقعة فيليپاى، وأكد لهم أنه لن يطلب منهم أكثر مما ابتزه مهم بروتس وكاسيوس، أعني ضريبة عشر سنين، تجبي في سنة واحدة، ولكن لما توسل إليه السامعون، وطلبوا إليه الرأفة بهم، وخاصة أن قتلة – قيصر قد أوصلوهم إلى درجة من الفاقة والفقر قد بلغت حد المسغبة، أثاروا رحمته وعطفه بعد جهد جاهد فقبل أن ينقص الإتاوة إلى ضريبة تسع سمنان، وأمهلهم في دفعها سنتين . وهنا تثور في الإنسان عوامل الاستغراب والدهشة، إذ كيف استطاع أولئك الذين نضب م هم لما أبتزه مهم بروتس وكاسيوس، ولم يتركاهم إلا وهم على شفا جرف هار، يكاد يفترسهم الفقر وتودي بهم الفاقة، أن يجيبوا طلبات ذلك الطاغية المتعسف الغليظ القلب، الذي لم تعرف الرحمة إلى قلبه طريقة، ولم تنفذ إليه توسلات القوم وتضرعاتهم، فأصر على طلباته، ولم يتنزل إلا عن قليل منها لا يسمن ولا يغني من جوع – ولقد تقدم أنطونيوس في آسيا الصغرى يلقاه الملوك والملكات، مقدمين له العطايا والهبات، راجين أن تشفع لهم هذه عنده . وكان يحيط به جمع من المغنين واللاعبين فكانت حاشيته أشبه بحفل من أتباع الإله باكوس، إله الخمر والطرب والسرور، منها بحاشية حاكم رومانى . ولقد أشار المؤرخ

بلوتارخوس إلى ذلك بقوله " إن الحال بلغت درجة لا يحتمل معها الصبر، ولا يستطيع الإنسان السكوت عليها، إذ كانت تبعثر الأموال والثروات في أتفه الأمور مع ما كان عليه الأهلون من فقر مدقع، وكانت كل آسيا الصغرى أشبه شيء بالمدينة التي وصفها الشاعر سوفوكليس في شعره،"قد ملأ البخور السماء، وتردد في الجو صدح الغناء ووكان بجواره نوح البكاء "[٨]. وإن المؤرخين الحديثين يبنون على ما ساقه بلوتارخوس عن أنطونيوس في استقباله في إفسوس، حكمهم بأنه كان رجل شهوات، لا يهمه إلا الإنغماس في الملاذ، والاجتراع من مناهلها. ولكن نظرة فاحصة إلى ما جاء في بلوتارخوس نفسه على ألسنة المطربين والغواني والطهاة الذين كانوا في حاشيته تكشف لنا من وراء تلك الأغشية اللاهية عن صورة واضحة لخطة سياسية وإدارية كان يسعى جهد نفسه في سبيل تنفيذها . وإن ذلك الاستقبال العظيم، الذي تجلى فيه خضوع الأسيويين طائعين مختارين، تودداً لأنطونيوس إذ صار لهم الحاكم العتيد، كان أمراً طبيعياً، خصوصاً في بلاد الشرق حيث تَعَوَّد الناس، في كثير من العصور، أن يصل بهم الاحترام السيد البلاد إلى درجة تقرب من العبادة، ولذا كان الحاكم دائماً موضع إجلالهم واحترامهم، يسبغون عليه من عبارات التجلة والتقديس ما يصل في كثير من الأحوال إلى حد التأليه .

وبمجرد انتهاء أنطونيوس من عمله في إفسوس بدأ يطوف في

---

(٨) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٢٤.

الأقاليم التي كانت تحت حكمه، ولقد دون لنا المؤرخ أبيان [٩] بياناً دقيقاً عن الأماكن التي اشتملت عليها رحلته، فذكر فريجيا وميسيا وجالاشيا وكابادوشيا وسيليشيا وسوريا الحالية أو فلسطين وأضاف المؤرخ اليهودي يوسيفوس إلى هذه البلاد بشينينا بآسيا الصغرى . ولقد كان أنطونيوس في هذه الرحلة يأمر بإصلاح المباني العامة، وبناء الطرق والحصون، وفض الخلافات الحزبية بين المتنافسين على العروش . وتوجد بالأصول والأسانيد التاريخية إشارات قليلة إلى أعمال أنطونيوس القضائية في الشرق، ويشير بلوتارخوس[١٠] إلى أن هذه القرارات القضائية كانت عادلة وحكيمة. ومما ذكره بلوتارخوس في هذا المقام أنه عند وصول كليوباترة إلى طرسوس بآسيا الصغرى، كان أنطونيوس جالسة على منصة بسوق المدينة يقضى بين الناس، ويوزع العدل بين المتقاضين وفي مكان آخر من بلوتارخوس يقول إنه بينما كان يوزع العدل بين الناس، الذين أتوا يحتكمون إليه، جاءه كتاب من كليوباترة قد كتب على عقيق .

ولسنا هنا بمحاولين الدفاع عن مسلك أنطونيوس الشخصي، عن قصد وتعنت من أنفسنا، راغبين في تبييض صحيفته الشخصية أو متعمدين أن نحرق له بخور المدح والثناء، فتحيد عن جادة الصواب. بل إننا نجد من الإنصاف له أن ننظر إليه منظار غير ذلك المنظار الأسود القاتم الذي نظر به إليه من سبقونا من مؤرخيه، متأثرين بالدعاية السيئة

---

(٩) أبيان، ٥، ٧.

(١٠) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٢٣ .

التي شنها عليه أكتافيوس أغسطس فيما بعد ويكفي أن نلقي نظرة عاجلة على سياسته العامة في الشرق إلى وقت قيامه بحملته على الفرس، وقبل أن يتورط في علاقته بكليوباترة، وتتخذه أداة لتنفيذ مآربها،- وتحقيق برنامجها، لنجد أن سياسته كانت تطابق لدرجة كبيرة سياسة أغلب الحكام الرومان الذين سبقوه ؛ وكانت هذه السياسة تدور حول تأسيس حكومة قوية تشد أزره، وتكون تكأة قوية له في زحفه شرقا على الفرس. وكانت مصر وعلى رأسها كليوباترة ضمن برنامجه هذا كسند له في الاعتماد على مواردها ودعائم الحكم في وادي النيل . وعلى هذا النحو كانت فرص النجاح أمامه قوية، وأمله أدني إلى التحقيق لو أنه تأني وصبر ولم يتورط في استباق حوادث الزمان . إن أنطونيوس كان يعوزه الصبر اللازم للقيام بعمل دقيق وصعب، كذلك الذي بدأه ولم يوفق لإتمامه على أكمل وجه . فبينما نجده مغرمة بالمشروعات الخلابة، التي تسترعي أنظار الناس، وتستهوى أفئدتهم، وتثير الدهشة في نفوسهم، نجده تنقصه العزيمة والجهد الدائم والصبر الطويل، الذي يحتاج إليه تنفيذ هذه المشروعات، قد استهوته الخطوات الأولى من برنامج قيصر في الشرق، وأقدم على تنظيم عظيم لأملاك روما في الشرق ووضع إدارتها على أساس متين، كما تكون مركزا قوى الدعائم ثابت الأركان يعتمد عليه في إمداده بالذخيرة والمال في أثناء قيامه بحملته على الفرس، ولذا بدأ أنطونيوس أعمال التنظيم وتوزيع المالك على الأمراء الموالين له، وكان يقضي الساعات الطوال يستمع إلى ما يحمله رسلهم . ومضى في سبيله لا يقف في طريقه شيء ولا تكاده عقبة، ففرض الضرائب واشتط في

جبايتها، وسوى الخلاف بين الأمراء والملوك في الشرق وكان عمله يبشر بنجاح عظم ويرجى منه الخير الكبير لو صمد له وثابر عليه،. ولكنه كان يعوزه – كما قلنا آنفا – الصبر والمقدرة على متابعة عمله هذا، ووضع الأساس المتين لبناء شامخ شاهق كان يطمح في تشييده . وزاد الطين بلة أن كليوباترة عندما اعترضت طريقه، غلب على أمره إذ عول عليها وعلى مصر ومواردها، فكان لها في حسابه وخططه المقام الأول، وعولت مصر بدورها عليه في تحقيق آمالها، ووجدت فيه الملك أداة طيعة لتنفيذ أطاعها، ولكنه أثبت أنه مخيب لكل هذه الآمال العريضة.

أنطونيوس والمسألة المصرية ولقاؤه بكليوباترة :

ولم تكن مصر ممثلة بين الملوك التابعين لروما الذين سارعوا بالحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة لأنطونيوس في إفسوس . وليس من اليسير علينا الآن تعرف الأسباب التي من أجلها تغيبت كليوباترة، ولقد تميز أنطونيوس غيظاً لتغيبها، وصمم على أن يدعوها للمثول بين يديه لتجيب عما يوجه إليها من تهم، وهي: تقديمها المساعدة المؤتمرين بقيصر وقاتليه، وعدم إرسال مساعدة للذين اقتصوا من هؤلاء القتلة، مع أنها تدين لقيصر بعرشها على مصر وأنجبت منه ابناً هو قيصرون الذي كان محط آمالها . وقد وكل أنطونيوس إلى ديليوس القيام بمهمة إحضارها، وإنه لمن الممكن أن نصدق الرواية التي يسوقها پلوتارخوس وهي أن ديليوس هذا أكدت لها حسن نيات سيده، وأسرة إليها أن

تذهب إلى سيليشيا على الطريقة الهومرية "في أحسن زى لها" (١١).
وكانت كليوباترة على جانب عظيم من الفتنة والجاذبية الشخصية . ولقد صممت آخر الأمر على تلبية ندائه فأعدت الهبات والزينات، وجمعت من الأموال ما يليق بمملكة غنية كمصر، وكانت تعرف من قبل ميله الغرامي إليها، ولابد أن تكون قد عرفت الشيء الكثير عن أخلاقه من قيصر، وعرفت فيه الآن حاكما مطلقاً في الشرق، وكان أعظم شخصية في الدولة الرومانية، يتسابق في خطب وده الملوك والأمراء، لأنهم يرون فيه الحاكم في المستقبل على جميع الدولة الرومانية. وفوق ذلك كان معروفة بقوة البنية، واعتدال القامة، ولذلك صممت كليوباترة على أن تكسبه لنفسها، وبنت تحقيق مطامعها، وأمان أسرتها، وإخراجها إلى حيز الوجود على مساعدته ؛ ولك ها مع تصميمها على الذهاب إليه، ورغبتها في كسبه إليها، أظهرت إهمال دعوته التي وجهها إليها وتجاهلت الكتب التي وصلتها من أصدقائه تستعجل مقدمها، وفي آخر الأمر حملت في جبعتها لأنطونيوس من الهدايا والكنوز ما يتناسب وسمعة البلاد المصرية من الغني، وسافرت إلى طرسوس من أعمال سيليشيا أو قليقية آسيا الصغرى . وهنا نقتطف من پلوتارخوس وصف رحلة كليوباترة فقد قال(١٢).

"ركبت الفلك المشحون بهداياها، فأخذ يمخر بها عباب الماء،

---

(١١) أن تلبس أحسن حلة لديها كما فعلت هيرا في ملحمة الإلياذة وهي ذاهبة لقاء زيوس على جبل « إيدا » .

(١٢) پلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٢٦.

يلمع في الجو مؤخره الذهبي، وقد ارتفعت شراعه إلى أعنان السماء، ومجاديفه الفضية تهتز في صفحة الماء وفقا لأصوات الأراغيل والمزامير والقيثارات، والملكة متكئة على وسائدها، قد ضربت عليها قبة منسوجة من خيوط ذهبية، تحاكي في زينتها وروائها إلهة الجمال فينوس، يطوف بها ولدان بهيو الطلعة، بهيجو المنظر، يشبهون رسل إلهة الجمال ويروحون عليها أحياناً بمراوح حريرية قد تماسكت أجزاؤها بخيوط من ذهب . والجوارى من حولها غاديات رائعات، تحكين في منظرهن عرائس البحار، بعضهن مسكن بسكانها، والأخريات وتجاذبن أرسانها، وأريح العطر يفهم الأنوف، ونشره قد ملأ الجو، فانبعث ذلك إلى الشاطئين، جاءت الجموع الذاخرة تهرع إليه، فوجدت فوق ذلك متعة السمع والبصر، وقد اختلب ذلك المنظر قلوب بعضهم فسار السفينة في مجراها، بينما البعض الآخر جاء مسرعاً اليقبس بنظره قبسة من ذلك الجمال الذي احتوته جارية في الم، حتى لقد ترك الناس سوق المدينة قاعا صفصفا وانفضوا من حول أنطونيوس، وكان قد جلس لإقامة العدل بينهم، ليشبعوا نظرهم من فينوس، إلهة الجمال التي هبطت إليهم من السماء في صورة كليوباترة الحسناء، التي استضافها باكوس إله الفرح والسرور – كل ذلك من أجل خير آسيا العام ".

ولقد نجحت حيلة كليوباترة، إذ أن أنطونيوس بدلاً من أن يطلبها للمثول بين يديه، لتجيب عما يوجه إليها من تهم، أضطر أن يرسل إليها لتتناول معه طعام العشاء . وكان جوابها على ذلك أن دعته إلى مائدتها، مبينة له أن الأجدر برجولته أن يجيب هو دعوتها، وهنا نترك الكلام

للشاعر الانجليزي شكسبير الذي لخص الموقف أحسن تلخيص فقال على لسان أدينوباربوس (Enobarbus) " إن أنطونيوس الذي عرف بالمحافظة على اللياقة والمجاملة ولم يجر على لسانه أن قال لامرأة "لا" زين نفسه وأحكم هندامه، وخرج إلى الولية بزينته فرأى ما هر نظره، وأصاب شفاف قلبه، تم جلس إلى مائدتها، وقد أسلم إليها أعز ما تملك الإنسان، وقد خلد لنا سقراط الرودى وصف هذه الولية التي أقامتها كليوباترة في كتابه الثالث من الحرب الأهلية، ونقلها عنه آثينابوس في كتابه الرابع من مواد الحكماء[١٣] فقال : إن جميع أدوات الوليمة الملكية التي أقيمت تكريماً لأنطونيوس كانت من الذهب الخالص، والآنية مرصعة بالجواهر أتقنتها أيدي صناع مهرة، وكانت الجدران مغطاة بستائر من الدمقس والحرير المزركش، وقد علقت عليها قطع مصنوعة من الأرجوان والخيوط الذهبية، لتكون مبهجة للناظرين . ولقد دعت كليوباترة أنطونيوس وصحبه المخلصين لهذه الوليمة، فبهروا كلهم بجمال وفي هذه المعروضات، ولما انتهت هذه الحفلة ألحت عليه هو وحاشيته أن يعودوا للعشاء معها في اليوم التالي، وكانت الوليمة الثانية أفخر من الأولى، حتى إن الآنية التي استعملت في الولية الأولى ضؤلت بجوار مثيلاتها التي استعملت في المرة الثانية . وعند انتهاء الحفلة أهدت إليهم وإلى غيرهم ممن حضروا، الأسرة والمارق التي جلسوا عليها، والآنية التي وضعت أمامهم . أما كبار المدعوين فلقد قدمت إليهم الخيل المطهمة، وأرسلت أمامهم العبيد والأحباش يحملون

---

(١٣) Athenaeus, Deipnosophistae, IV, 147-148.

المشاعل . وفي اليوم التالي احتفل أنطونيوس باستقبالها، وبذل جهداً جاهداً كبد فيه مدينة طرسوس من النفقات ما لم تقو عليه، رغبة منه في أن تولم ولية تسامي، في الأبهة والعظمة، الوليتين السابقتين اللتين أقامتهما كليوباترة له، ولكن البون الشاسع بين المحاولتين كان ظاهرة للعيان، فولته تعد مشوية بالخشونة والسذاجة إذا قرنت بسابقتيها ؛ ولم يتأخر هو نفسه عن أن يكون أول من يعترف بقصوره وعجزه، ويسخر من محاولته.

إلى هنا ينتهي حديثنا عن المقابلات الأولى، ومنها نرى أنها لم تكن سوى مجاملات بتبادل الدعوة إلى الطعام والمباهاة بتعدد ألوانه، وأن تكون أدواته مظهرة للترف والغني والبذخ. ولننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن معاملة كليوباترة لأنطونيوس التي كانت تختلف عن معاملتها لقيصر، لاختلاف الرجلين في النشأة والمشرب، فكانت ملاحظات أنطونيوس وسخريته ونوع تهكمه من نوع ما يصدر عن الجند، وليست ما هو خليق بالندماء وجلساء الملوك والملكات الذين تشف أحاديثهم ونوادرهم عن براعة وصقولة في اللفظ لا تدانيها براعة، ولقد أدركت كليوباترة بمهارة فائقة مدى الفارق، وتنزلت إلى المستوى الذي كان عليه أنطونيوس، فأكسبتها هذه المقدرة شهرة طبقت الآفاق، وأستحقت بجدارة اللقب الذي أسبغه عليها مؤرخو الإفرنج ومحظية الملوك، لأنها بذت جميع النساء في المهارة في معاملة الرجال. ولقد نجحت كليوباترة في خطتها، وتبدلت الحال إذ "صار أنطونيوس" كما يقول المؤرخ ديوكاسيوس "نصيرها والمدافع عنها، يذب عنها التهم، مع أنه كان يريد أن يوقفها

موقف الاتهام، ويقف منها موقف الحكم"، ولكن المؤرخ أبيان [١٤] يخالفه في ذلك، ويؤكد أن أنطونيوس لامها في الواقع على عدم اشتراكها في الانتقام لقيصر من قتلته، وأنها على عدم اعتذارها، ولكنها دافعت عن نفسها بقولها إنه كان في عزمها أن تقدم المساعدة، وأنها بالفعل أرسلت أربعة فرق بقيادة دولابلاً (Dolabella) وأنها هي شخصياً لم تعر كلام كاسيوس – وهو أحد القتلة – أدنى اهتمام، ولم تلب طلبه، وأنها بدأت وأبحرت على رأس أسطولها، الذي عصفت به العواصف، وحطمته الزوابع، فاضطرت إلى العودة إلى الإسكندرية حيث أصابها المرض ولازمها حتى عقد لواء النصر النهائي لهم على قتلة قيصر [١٥].

ويظن بعض المؤرخين أن أنطونيوس عفا عنها انتظاراً لمساعدتها، التي منته بها في حربه المستقبلة مع الفرس، ولكن المؤرخ آبيان اتفق مع جميع المؤرخين الأقدمين في قوله إن أنطونيوس شده لذكائها الفذ، وجمالها الفتان فأصبح أسيرها الذي أخذ على نفسه أن يقوم بكل ما تأمره به ملكته، بدون اعتبار لجميع القوانين، سواء أكانت وضعية أم سماوية، فأمر بأختها المسماة أرسينوى (Arainoe) التي كانت تعتبر حياتها خطرة على عرش كليوباترة في مصر أن تقتل مع أنها كانت

---

(١٤) قيل في وقت من الأوقات إنها آثرت أن تقف موقف الحياد بالنسبة للطرفين، وإنها آثرت الانتظار حتى ترى الجانب الراجح فتؤيده وتنصره – أنظر بيفان في كتابه عن مصر على عهد أسرة البطالة ص ٣٧٣ – ٣٧٤، وفي هذا الرأي تناقض واضح لما جاءت به الأدلة التاريخية الواردة في « ديو » و« أبيان ». ويفسر بيفان دفاع كليوباترة وتذرعها بهبوب العواصف بأنه غير جدي، ولا يمكن تصديقه ويعتبره من قبيل المهاترات النسائية.

(١٥) Appian V, 8-9.

معتصمة بمعبد الإلهة أرتيمس (Artemis) في افسوس، كما أمر بقتل مدع عرش مصر يسمى بطلميوس الرابع عشر، كان قد ظهر في فينيقيا – ولقد تخلصت كليوباترة من هذين من غير ما جلبة . وإن قتل أرسينوي قد سود صحيفة كليوباترة أبد الدهر ودنس شهرتها، ويميل المؤرخون إلى أن يتخذوا من قتلها لأختها تكأة للطعن في أخلاقها، فيسوقونه مثلا حية لقسوتها وحبها للانتقام، ولكن لا يصح أن ننظر إلى الملكة بهذا المنظار القاتم، ونصب عليها جام غضبنا، ويكفي للتخفيف من شناعة ذلك الجرم أن نذكر في حكمنا عليها، أنه كانت العادة عند البطالمة رجالا ونساء على السواء – ألا يجعلوا للرحمة أي سبيل في معاملة ذوى قرباهم، خصوصا من كان يعد من هؤلاء خطراً دائماً وسلاحاً مشهوراً يهدد عروشهم، ولقد شاع قتل الملوك ذوى قرباهم، بل أبناءهم عند اللزوم، حتى لقد سرى عليهم المثل المشهور والملك عقيم".

ولم تطل زيارة كليوباترة لمدينة طرسوس أكثر من أسابيع قليلة عادت بعدها إلى الإسكندرية، بعد أن نجحت في الحصول من أنطونيوس على وعد بأن يلحقها إلى الإسكندرية، ليقضي فصل الشتاء معها (٤١– ٤٠ ق.م). وترك أنطونيوس ساكسا (Saxa) الأسباني، الذي كان في خدمة الدكتاتور قيصر رئيساً على القوات المرابطة بسوريا، وأسرع في اللحاق بالملكة بالإسكندرية في أوائل فصل الشتاء من عام ٤١ ق.م، حيث استقبل استقبالا فخماً في القصر الجميل المعروف بقصر " لوخياس" في الحي الملكي (بمنطقة السلسلة بالشاطبي) وهناك أمضى فصل الشتاء، كفرد عادى مجرد عن أبيهة الملك، وصولة الحكم،

ولع أوسية القائد الروماني، وزى بلاده الأصلي، واستعاض عنه بالزي اليوناني والحذاء الأثيني الأبيض، وكان يقضي مع كليوباترة معظم وقته، ماعدا زيارات في حين وآخر، كان يقوم بها لرؤية المعابد والمدارس، وحضر مناقشات العلماء والفلاسفة، ويقول بلوتارخوس بصدد هذه الزيارة: إن أنطونيوس أمضى وقته في الإسكندرية في راحة، وبذا أفتي أثمن الأشياء القيمة كلها، وهو الوقت فألف نادياً عرف بنادي "الزملاء الذين لا يحاكون (amimetobioi) وكان أعضاؤه يحتفون بزملائهم ويبسطون أيدهم كل البسط، وينفقون عن سعة، ولقد كشف المنقبون في مصر عن مخطوطتين يونانيتين، إحداهما بالإسكندرية، على قاعدة تمثال، لأنطونيوس كتب عليه وأنطونيوس ذو اليد البيضاء الذي لا يجارى، : أما الثانية فهي قربان "لأنطونيوس العظيم ذي الباع الطويل، والبسطة العظيمة في الرزق . وكانت الإسكندرية تموج بمثل هذه النوادي والتي كانت مكونة على نسق مثيلاتها في المدن الحرة ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . ولكن بكل أسف لم توجد بمؤلفات بلوتارخوس وآثينابوس وديو فم الذهب سوى إشارات . قليلة جدا إلى هذه النوادي السياسية والاجتماعية، وكان أحد أجداد كليوباترة الأولين، وهو بطلميوس الرابع الملقب " فيلوپاتور "، يحرص على قضاء معظم وقته مع أعضاء مثل هذه النوادي من الرجال والنساء، الذين عرفوا باستهتارهم ومجونهم (١٦). ولقد

---

(١٦) كتب المؤرخ پوليبيوس وصفاً لحياة البلاط في عصر فيلو پا تور هذا وما كان يقوم به لهمة من بطانة الملاك ووزيره الماكر سوسبيوس من المؤامرات والدسائس مستعينة بثالوث مؤلف من أجاثوكايس وأخته الجميلة أجاثوكليا وأمهما أويناني. وفي هذا الوصف صورة من ألوان الفساد الذي أخذ يتفشى في بلاط البطالمة (پوليبيوس، الكتاب الرابع عشر والخامس عشر).

كون أنطونيوس وكليوباترة ناديهما على نسق . جد الملكة الأكبر "فيلوباتور" هذا، وسبب تسمية هذا النادي بهذا الاسم أن الملكة كانت تريد ألا يتسرب لذهن أحد مهما تكن ثروته، أنه في مقدوره أن ينافس آخر ملكات أسرة البطالمة، وأن يحاول مجاراتها في بذل المال للاحتفاء بأصدقائها بترف وإسراف يتناسبان مع ما تستطيع مصر واليونان والفرس وروما تقدمه . وإذا ساغ لنا أن نحكم على ما كانت تحتويه هذه . الموائد – ما نعلمه عن مثيلاتها التي نسقت على نظامها في عهد الإمبراطورية الرومانية، ووصفها لنا بترونيوس (Petronius) صديق الإمبراطور نيرون – إستطعنا أن نتصور مقدار العظمة والفخامة التي كانت عليها هذه الولائم، حيث كان الضيوف يجلسون على كراسي من الفضة في هو عظيم أعد للاستقبال، ولإقامة الولائم في القصر الملكي . ولا حاجة بنا إذا إلى أن تعيد سرد القصص التي قصها پلوتارخوس عن طهاة القصر الملكي، وإسرافهم إلى حد يفوق التصور. وفي أثناء سرد پلوتارخوس لأخبار هذه الولائم، لم يفته أن يذكر أن كليوباترة كانت تفكر على الدوام في إبتداع وسائل جديدة تقر بها عين أنطونيوس، وتدخل عليه المسرة، حتى لا يتطرق السأم إلى قلبه؛ فكانت تصحبه في كل مكان، وكانت عندما تشعر منه أنه لا يجد ميلا لسماع محاضرات العلماء أو الرؤية التمرينات والاستعراضات العسكرية، ترتدى ملابس العبيد ويحذو هو حذوها، ويصحبها متنكرين في شوارع الإسكندرية يبحثان عن مخاطرات ومغامرات جديدة . ولم يكن تنكرهما لتعرف أحوال الرعية، بل على النقيض من ذلك كان أنطونيوس يقوم حيل غير مألوفة، وألاعيب صبيانية

يتبذلان بها، فكان يترتب عليها في بعض الأحيان أن كانا يعودان إلى القصر، وقد أوسعهما الأهالي سباً، بل وفي بعض الأحيان لكماً وضرباً " [١٧]، وفي صدد هذه الفكاهات يعتذر پلوتارخوس للقارئ بقوله " إنه من العبث أن نحصي ألاعيب أنطونيوس وحيله الجنونية التي لا تدخل تحت حصر وعد، ولكننا لا يصح أن نغفل حادثة منها وهي حادثة صيده، التي نذكر هنا تفاصيلها الشائقة، وهي تبين كيف استفادت كليوباترة من سعة صدر أنطونيوس، وقبوله للنادرة، ولو كانت تساق مساق السخرية به . ففي ذات يوم خرج أنطونيوس للصيد ومعه جمع كبير من الناس، ولما اصطاد سمكة لا تعيش إلا في مياه البحر الأسود، ضحك كل من حوله وسخروا منه، ولكن كليوباترة التفتت إلى الصياد الحزين الكئيب قائلة له . دع أيها القائد شبكة الصيد لنا معشر ملوك فاروس وكانوب الفقراء، فإن صيدك وقنصك يكونان في الاستيلاء على عروش الملوك وفتح الأمصار، وتدويخ المدائن، [١٨]. ولم يكن منظر أنطونيوس وهو منغمس في ملاذه وشهواته مثيرة لشعور أهل الإسكندرية الذين احتملوه، وغضوا الطرف عن ألاعيبه؛ ولقد أثار حبه للهو واللعب شفقتهم عليه، وكانوا كثيرا ما يلاحظون عليه أن كان يكشر عن أنيابه للرومان فيظهر عبوساً قمطريراً في وجوههم، حين وطفح وجهه بالسرور والبشر في الإسكندرية وبين أهلها.

وكانت كليوباترة كجداتها وبنات لمحتها اللائي كن يتسمين باسمها

---

(١٧) پلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٢٩ .

(١٨) پلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٢٨ .

أو بأرسينوي أو بيرنيقة يكَوِّن سلسلة من النساء الشهيرات – شهد لهن التاريخ بالنشاط وطول الباع في السياسة، ذوات أطماع شخصية يعملن جهد استطاعتهن لتحقيقها، ولم تكن ملكات أسرة البطالمة، كما هو معروف عن أصلهن المقدوني، يتورعن عن أن يتآمرن وينصبن شباك المكايد لذوي قرباهم، وكانت الملكات تشتركن في السياسة، وتتدخلن في شئون الملك كغيرهن من الرجال، ومن أشهر الأمثلة على ذلك وأولاها أرسينوى الثانية أخت وزوجة بطلميوس الثاني (فيلادلفوس)، ثم برنيقة الزوجة بطلميوس الثالث يورجنس وكلاهما كان له باع طويل في التآمر، ونصب الشباك لتحقيق المطامع والأغراض الشخصية، وكان آخر مثل على ذلك كليوباترة السابعة، وقد أفاضت ما كردى (Macardy) في كتابها عن الملكات الهيلينستيات ، Hellenistic Queens) في الكلام عن سلسلة من هؤلاء، ابتداءً من أوليمبياس والدة الإسكندر الأكبر إلى كليوباترة آخرتهن [١٩]، وكان الدافع الحقيقي لارتكاب جرائمهن والانغماس في شهواتهن أطماعهن السياسية، وليست شهواتهن الحسية ؛ ولذلك لا يجوز أن يتسرب إلينا شيء من العجب عند قراءتنا تاريخ آخر ملكات هذه الأسرة، التي كانت على الدوام، على أتم استعداد لاستخدام وسائل شيطانية، في سبيل تحقيق أطماعها، لا تتورع عن أن تلوث الجرائم يديها لتبلغ أمانيها، فكان من الحين عليها أن تتآمر وتدس

(١٩) في هذا المؤلف العلمي تناولت الكاتبة الأمريكية دراسة حياة عدد من هؤلاء الكليوباترات والأرسينوات والبرنيقات الشهيرات وقارنتهن بنظيراتهن وبينت أوجه الشبه في سلوكهن ورمت بعضهن بأنهن كن نمرات، محبات السلطان ولا يتورعن عن ارتكاب موبقات بل وركوب من الشطط فيقتلن أقرب الناس إليهن في سبيل تحقيق أهدافهن .

الدسائس مع قيصر لتوطيد عرشها في الماضي، وصممت في هذه المرة على ألا تترك مصر تسقط في يد الدولة الرومانية مثل السهولة التي سقطت بها مالك الشرق الأخرى . وإن مظاهر العظمة والثروة التي تجلت في رحلتها إلى سيليشيا، لم تكن صادرة عن رغبة في إشباع غرام أجوف، وبمجرد هيام امرأة خال من المرام والغايات، بل إنها أحكمت تدبير كل الدقائق والتفاصيل التي كانت نتيجة تفكير سابق، وتدبير قديم، كي تقيم البرهان الحسي لأنطونيوس، قائدها وزوجها ونصيرها المستقبل على عظم ثروة مصر، فتبهر أنظاره بثروة هذه البلاد، وصادف أن كان ذلك وقت أن كان أنطونيوس في حاجة ماسة إلى المال . وكانت كليوباترة هي الأخرى في حاجة إلى أنطونيوس لتستعين به في التغلب على أعدائها من بين الطبقات الراقية في مصر : وزيادة على ذلك فلقد كان ملوك البطالمة كغيرهم من ملوك الشرق الهيلينستي في ذلك الوقت، يتقربون من الدولة الرومانية ويخطبون ودها ويخشون غضبها وبأسها. أما أنطونيوس فلم يجد آسيا مصدراً لتلك الثروة التي كان حلم بها – لقد أنهكها توالى الضرائب والغرامات حتى أصبحت في حالة فقر مدقع . أما مصر فكانت الدولة الوحيدة التي احتفظت حتى ذلك التاريخ باستقلالها الإسمي، وكانت ذات شهرة عالمية بغناها وكثرة كنوزها، وكان ملوك أسرة البطالمة الأخيرين يعتمدون على نفوذ الدولة الرومانية . فلما اعتلت كليوباترة عرش آبائها المزعزع الأركان كان لأمرتها ظ ل من ذلك النفوذ القدم، وكانت تلك الملكة المليئة الطموح تطمع في إعادة ذلك المجد التليد، الذي كان لأجدادها من قبل، ثم عفا ولم تبق سوى آثاره فتعيد

تاريخ أجدادها الأول، وتجعل من سخرية الملك المزيف حقيقة تطمئن لها نفسها. ولم يكن تحقيق ذلك الحلم بالأمر المستحيل عليها، إذ كان لديها من المال ما يضمن تنفيذه، ولم ينقصها سوى الجند والقائد ولذلك كان عليها أن تعمل لروما حساباً في خططها ؛ فصممت على أن تستخدم روما كالة في تنفيذ برنامجها وتحقيق أطماعها، فخطبت من قبل أود قيصر عند حضوره إلى مصر، وفي هذه الفرصة خطبت ود أنطونيوس الذي وجدت فية شخصا آخر يمكنه أن مثل ذلك الدور الذي طمعت من قبل في أن مثله قيصر في برنامجها الإمبراطوري – لذلك أخذت على عاتقها أن يكون أنطونيوس في صفها، وأن تؤثر فيه منذ البداية بفتح قلمها له، وإغرائه بكل ما تملك المرأة من وسائل الإغراء – ثم عرضت عليه في طرسوس مشروعة خلابة يتضمن عقد محالفة بينهما، ولقد كانت رغبتها أن توقظ شغفه وتريه إمكان جعل مصر مركزا لحملة عدائية ضد روما : كما أرادت أن تجعله يؤمن بأنه إذا انتصر لقضيتها وقضية ابنها . قيصرون، الذي ولدته لقيصر، وضعت تحت يده ثروة مصر وكنوزها التي لا تفي، فيملأ بها خزائنه الحالية الوفاض، وكان قد اعترف بابها من قبل كشريك لها في ملك مصر عام ٤٣ ق م ووافق كل من أنطونيوس وأكتافيوس على ذلك، وكان قد لقب قيصرون كما يأتي " بطلميوس قيصر المحب لأبيه وأمه "[٢٠].

كان أنطونيوس وهو الخليفة الفعلي لقيصر، الشخص الوحيد الذي يمكنها إذا ما تحالفت معه من أن يفتح لها هذا الملك العريض، الذي

(٢٠) مجموعة النقوش اليونانية (Corpus Inscriptionum Graeearum) رقم ٤٧١٧.

كانت تصبو نفسها إليه، والذي كان قتل قيصر السابق لأوانه سبباً في يأسها أمدة قصيرة من تحقيقه . وعلى ذلك كان لزاما عليها أن تفهم أنطونيوس المزايا الحقيقية التي تنجم عن اشتراكها في العمل، وضرورة مساعدتها له مادياً كيما يتخلص من منافسه ومناظره في المستقبل وهو عدوه اللدود . فعليها إذا أن تريه عظم الثروة المصرية التي كانت كلها تحت تصرفها حتي تكسب مساعدته . وإذا ما رأي عملية مقدار ما عليه البلاد من الثروة كان من غير المعقول أن يرفض القيام بمشروع يصل به إلى الذروة فيقبض على العرش بيديه، ويصبح هو وكليوباترة وابنها قيصرون ملوك العالم الثلاثة – على ضوء هذه الحقائق يجب أن ننظر إلى مسلك كليوباترة، ونفسر بذلها عن سعة في طرسوس وفي المحافل التي أقامتها بالإسكندرية، فلا ننساق وراء أعدائها، وننسب كل هذا إلى مجرد التبذير والإسراف والغرور من جانب كليوباترة، إذ كان كل ذلك في الواقع صادراً عن أسباب سياسية، ولا تكون بعيدين عن جادة الصواب أو غالين إذا اعتبرنا أن هذا المسلك كان تمهيدا لعقد تحالف نهائي بينهما عند ما تسنح الفرصة المناسبة لكشف القناع، واتخاذ هذا المسلات النهائي .

وكان الفرس قد انتهزوا فرصة غياب أنطونيوس، وذهابه لمصر لقضاء فصل الشتاء ٤١ – ٤٠ ق.م مع كليوباترة، تاركاً الأمر ليلانكوس في آسيا الصغرى وساكسا في الشام، وهاجموا الرومان في كل مكان، واقتحموا المعاقل والحصون في الشام وآسيا الصغرى، منتهزين فرصة هيام أنطونيوس وغرامه بالملكة كليوباترة، وانقضوا على جيوش الرومان

التي كانت متخاذلة خائرة القوى، فاكتسحت جيوش الملك الفارسي أروديس (Oroles) مدونة روماني فار اسمه لابينوس (Labienus)، أقاليم كثيرة، كان قد أغضبها سوء معاملة الرومان، وثقل الضرائب على كاهل أهلها والمغارم التي كانوا يرزحون تحت أعبائها فاستولى الأعداء على سوريا وفينيقيا، وفركل من ساكسا وپلانكوس عاملي أنطونيوس .

ويدعى المؤرخون الأقدمون أن أنطونيوس استهان بشئون الدولة فلم ينفض عنه نفوذ كليوباترة، ولم يسارع لمحاربة الفرس في الشام وآسيا الصغرى أو لمساعدة زوجته ، فلقيا، وأخيه لوكيوس أنطونيوس، وكانا قد أثارا حرب ضد أكتافيوس في إيطاليا. وفي تعرف الدوافع الحقيقية لتلك الأحداث التاريخية، كان معظم الكتاب الأقدمين يلقون القول على عواهنه من غير تمحيص للحقائق، ولا تحر للدقة، فقالوا إن أنطونيوس كان ناسي) كل شيء، غارقة في حار حيه لكليوباترة، حتى لقد أسرف المؤرخ ديو، فزعم أنه كان " غارقاً في أدنان الخمر " وإننا لنعترف بادئ ذي بدء أن أنطونيوس مضى جزءاً كبيراً من وقته في الإسكندرية في إشباع شهواته، إلا أن جاذبية كليوباترة لا يمكن أن تكون السبب الوحيد في استهانته التي يزعمونها. وإنه لمن السهولة مكان أن ندحض هذه المزاعم والمآخذ على أنطونيوس بالملاحظات الآتية التي أهملها الرواة الأقدمون، فمنها أن أنطونيوس لم يلحق بكليوباترة في الإسكندرية إلا بعد أن كان الخلاف في إيطاليا بين زوجته وأخيه وبين أكتافيوس قد استفحل، ومنها أن الحصار الذي ضرب على أنصار أنطونيوس في بيروسيا ايطاليا وقع في منتصف فصل الشتاء، وقت أن كانت الملاحة في

البحر المتوسط عسيرة، وهذا يجعلنا نجزم بأن أخبار الحصار لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى أنطونيوس إلا في بدء عام ٤٠ ق.م، وذلك بعد سقوط هذا الحصن وفوات أوان إرسال أي نصيب من العون والمساعدة. وفوق ذلك فإنه عندما ترك أنطونيوس الإسكندرية لم ير كليوباترة مدة طويلة بلغت نحو أربع سنين، وهذه حقيقة تكفي للبرهنة على صحة الرأي القائل بأن محبة أنطونيوس لكليوباترة لم تكن سبباً يشغله عن التفرغ للشئون السياسية عندما تدعوه المخاطر إلى التقدم للقائها.

غادر أنطونيوس مدينة الإسكندرية في أوائل فصل الربيع، وسافر إلى صور بطريق البحر قاصداً إنقاذ المدينة، وتخليصها من يد الفرس، ولما وجد أن كل سوريا قد سقط في يد العدو، ترك المدينة تنتظر حظها واعتذر بقوله إن وجوده أصبح ضرورياً في إيطاليا، ولقد علم بخبر سقوط مدينة بيروسيا وهو في ميناء بحرية بآسيا الصغرى، فأني باللائمة على زوجته "فلفيا" وأخيه لوكيوس وترك . فلقيا، مريضة في بلاد اليونان، وركب البحر الأدرياتي ميمم شطر برنديزى في إيطاليا، حيث ألقي مراسى سفنته آخر الأمر على سواحلها، وأخذ يفاوض في الصلح مع أكتافيوس، ونجح بعض المصلحين في إزالة نوازع الشر بين قائدي الرومان العظيمين، وفي هذه المرحلة وصل خبر موت "فلفيا" فاستراح كلا الجانبين لتخلصهما من امرأة مشاكسة . ولقد تم الاتفاق بين القائدين على معاهدة تعرف باتفاقية برنديزى في سبتمبر سنة ٤٠ ق.م، واتفق فيها على تقسيم العالم الروماني من جديد إلى قسمين تفصل بينهما مدينة "أشقودرة" فيكون من نصيب أنطونيوس كل بلاد الشرق، ويكون

نصيب أكتافيوس دا لماشيا وإيطاليا وسردينيا وأسبانيا وبلاد الغال، ووكل إلى أنطونيوس أن يأخذ على عاتقه إخضاع الفرس . ولتوثيق عرى المودة بين الطرفين المتعاقدين قبل أنطونيوس أن يتزوج من أكتافيا وهي أخت غير شقيقة لأكتافيوس وأصبح هذا الزواج تمكنا بعد موت واقيا التي قيل إنها ماتت حزنا وكمدة لعدم اكتراث أنطونيوس ها وإنصافها الانتقام لها ما أصابها من أكتافيوس واستطاعت أكتافيا مما أوتيت من جمال محتشم وخلق كريم ومقدرة عقلية أن تكسب قلب زوجها وقتنا ما، فلم يرجع إلى كليوباترة وولديها التوأمين لبضع سنين . وبمجرد الانتهاء من عقد المعاهدة مع أكتافيوس اتجه نظر أنطونيوس نحو إخضاع الفرس وطردهم من البلاد التي استولوا عليها في الشام وآسيا الصغرى، فعين القواد وبث فيهم روح الحماسة ليبذلوا أقصى ما في وسعهم لاسترداد الأقاليم التي ضاعت ووقعت في يد الفرس منذ سنتين، وقد أمكن تشتيت شمل الفرس وإلحاق الخسائر م، ففروا تاركين الشام وسيليشيا (قيليقية) للرومان، ولما أعادوا الكرة لمهاجمة الشام في السنة التالية أي سنة ٣٨ ق. م، صدوا مرة أخرى، واستطاع الجيش الروماني أن يكسب نصرة مجيدة، وقد أحتفي أنطونيوس في أثينا بما كسبه هو وقواده من انتصارات، وأسبغ عليه الأثينيون من ألقاب الشرف ما يتناسب مع المجهود العظيم الذي قام به في حربه مع الفرس، ثم أقيمت صلاة الشكر وسارت مواكب النصر إجلالا واحتراما لأنطونيوس ونفر من قواده، وفي ربيع عام ٣٧ ق. م، غادر أنطونيوس أثينا في طريقه إلى تارنتوم لمساعدة زميله أكتافيوس، ولكن الأخير تلكأ في مقابلته وتردد في قبول المطالب التي عرضها عليه

. وكان من الجلي أن شيئا من سوء التفاهم قد دب بينهما، وقد توسطت أكتافيا في الأمر بين الاثنين واستطاعت تلك الإمرأة العجيبة على حد قول پلوتارخوس أن تقيم السلام بين زوجها وأخيها عندما كان تحالفهما مهدداً بأن تنفصم عراه سنة ٣٧ ق.م، فتقابلا بالقرب من تارنتوم، وقبل كل طرف من الطرفين مطالب الآخر من جند وسفن التنفيذ برنامجه، وكتب المؤرخ أبيان أنهما حسيا الخلاف في أهم موضوع كان عالقا . دوما أن مدة الاتفاق أو الحلف الثلاثي (Triumvirate) التي منحت لهما كانت على وشك الانتهاء، فإنهما جدداها خمس سنين أخرى بدون الرجوع إلى الشعب الروماني، [٢١] . ولما تم الوفاق بينهما افترقا فعاد أنطونيوس إلى الشرق، ورد زوجته أكتافيا إلى إيطاليا من جزيرة كورسيرا [٢٢]، بحجة أنه لا يجب تعريضها إلى أخطار الحرب الفارسية .

حملة أنطونيوس على بلاد الفرس عام ٣٦ ق . م ودور كليوباترة

ترك أنطونيوس زوجته أكتافيا ومعها أبناؤها . بعد أن غادر إيطاليا عائداً إلى سوريا، وهو على شيء كثير من الامتعاض، وكان مسلسكة الذي استنه لنفسه بعد ذلك في الشرق يدل على أنه كان متأثرا بالحوادث، التي وقعت بينه وبين أكتافيوس قبل عودته إلى الشرق مباشرة ؛ إذ كانت حالة أكتافيوس في أثناء مفاوضاته ومساومته مع أنطونيوس سببا في إثارة كثير من الشك والخوف في نفسه، ولم يكن قد نسى

(٢١) أبيان، الحرب الأهلية، ٧، ٩٥

(٢٢) Dio, XLVIII, 54,

الإهانة التي أصابته من أكتافيوس في تانتوم، واضطرته أن يلح في عقد اتفاق لم يكن بأي حال ذا منفعة كبيرة له . وعلى ذلك كانت هذه التسوية غير المرضية التي تمت في تارنتوم، مضافاً إليها ذلك الصلف الذي أظهره أكتافيوس في هذه الأثناء من الأسباب التي جعلت أنطونيوس يفكر في اتخاذ أقوم الطرف ليسلكها في المستقبل، ولا بد أن يكون قد تأكد أن سلطة مناظره قد ازدادت في أثناء غيابه عن إيطاليا، ولعدم مقدرته على جمع الأموال من آسيا التي كانت في ضيق، قارب حد الإفلاس . وفوق ذلك فإن أعداء أنطونيوس كانوا على أتم استعداد لكي ينسبوا عدم وجود هذه الأموال لديه إلى انغماسه في شهواته في الشرق، ولقد أدرك الطرفان أن وقوع النزاع والاصطدام وشيك، ولكن أنطونيوس رأى أن أولى الخطوات التي يجب أن يخطوها، أن يسترد محبة الرومان له بكسب انتصارات باهرة، ولكن تنفيذ ذلك المشروع كان يتطلب المال الذي هو في حاجة شديدة إليه . واضطرته حاجته المالية هذه أن ينزل عن جزء من أسطوله في تارنتوم لزميله . ولقد كانت هذه المصاعب المالية السبب الأكبر في تحالفه مع كليوباترة ومصر التي كانت أغنى بلاد الشرق في ذلك الوقت ؛ إذ لم تخربها الحروب الأهلية، والثورات الداخلية منذ بضع سنين . وقد رأى بثاقب فكره أن هذا التحالف المرتقب سيكفل له أن تضع مصر تحت تصرفه كل ما يحتاج إليه من الأموال للإنفاق على جيشه، وتنفيذ مشروعاته الواسعة النطاق . وتحت سلطان تلك الاعتبارات أرسل رسوله فونتيوس كاپيتو (Fonteius Capito) إلى الإسكندرية يدعو كليوباترة إلى مقابلته في

سوريا. أما عن مشاعر كليوباترة إزاء تلك الأحداث الجسام طوال أكثر من ثلاث سنوات، كان فيها أنطونيوس معرضا عنها كل الإعراض تاركا إياها من أجل سيدة رومانية، فإن التاريخ لم يسجل لنا شيئاً عن ذلك.

وإنه لا يمكن الجزم بحقيقة نية كل من أنطونيوس وكليوباترة – أكان ينوي العودة إلى أحضان كليوباترة ؟ وهل كانت تطمع في أن يعود إليها بعد أن تركها في المرة الأولى في أوائل فصل الربيع عام ٤٠ ق.م ؟ أم تسرب إلى ذهنها أن أنطونيو مهجرها ؟ ولكن لا يمكن أن نتصور كليوباترة حزينة كئيبة وقد استولى عليها الجزع، واستسلمت لليأس، ملقية بنفسها داخل قصرها تذرف الدمع الهتون على سفر أنطونيوس، وليس هناك من شك في أن أنطونيوس الذي كان يعلم علم اليقين أن مساعدتها ذات قيمة ومنفعة كبيرة له في حربه المستقبلة، وفي تسوية النزاع بينه وبين زميله على السيادة في العالم لابد كان يراسلها في أثناء غيابه، كما نستنبط ذلك من علاقتهما التي اشتدت أواصرها بعد ذلك، كما أنه لا بد أن يكون قد حاول أن يبرر لها أن زواجه بأكتافيا كان لغاية سياسية . وبينما كانت كليوباترة تحكم مصر بالاشتراك مع ابنها ، قيصرون،، كانت ترقب باهتمام عظيم حركات الزعيمين الرومانيين، كما أن من تثق بهم من المصريين الذين كانوا في حاشية أنطونيوس لابد أنهم أيدوها بالمعلومات أولا بأول عن التغيرات السريعة والتسويات السياسية التي تمت بين القائدين . وعلى ذلك فإن دعوة أنطونيوس لها لمقابلته في الشام كانت راجعة إلى اعتبارات سياسية أكثر منها غرامية، وليس كما يقول پلوتارخوس الذي يعلل مسلك أنطونيوس بقوله "إن ولع

أنطونيوس بكليوباترة، الذي كان قد انطفأت جذوة ناره وسكن لهيبه بتغلب العقل وصواب الرأي استجمع قوته مرة ثانية، وتأججت نيرانه من جديد [٢٣]. ولو أننا لا يمكننا أن ننكر أن تجديد العلاقات مع الملكية واللحاق بها ربما أثار في نفس أنطونيوس لواعج الغرام ونزعة الشباب بعد تخلصه من قيود الزوجية بأكتافيا التي كانت هادئة تورث الإقامة معها ووجودها بجانبه السآمة والملل وقد نجم عنها النفور والابتعاد، إلا أنه من الجائز جداً أن نسلم بأن هذه الخطوة من جانبه ودعوته لها للحاق به كانتا ناتجتين عن أسباب سياسية وأسباب شخصية معاً. ومهما كان شعور الاستياء والغضب الذي لابد قد تملكها، وأصبح دفينا في قرارة نفسها فإنها كانت تتوق إلى فرصة التلاق والعودة إلى الاتصال بمحاكم الشرق على أي نحو . ولقد قبلت كليوباترة الدعوة التي وجهها لها أنطونيوس على يده " فونتيوس كاپيتو "، وبغير أن تتجه إلى ذلك التأخير الذي تعمدته في المرة الأولى عند دعوتها لمقابلته في طرسوس بل أسرعت في هذه المرة للحاق به في مدينة أنطاكية بالشام . وإنه لمن الأسف أن التاريخ لم يسجل لنا ما دار بينها في مقابلاتها الأولى، ولكنه ظن أن أنطونيوس أكد لها إخلاصه، وأنه تلمس الأعذار لمسلكه السابق فيما

(٢٣) المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكلرك في كتابه تاريخ اللاجيديين، Hist . des Bouché Leclercq Lagides، جزء ثان ص ٢٥٢؛ جاردهاوسن في كتابه عن أغسطس وعصره: , Gardthausen Augustus und seine Zeite ص ٢٩٩ إذ يقول إنه لا يري دافعا آخر غير محبة أنطونيوس للملكة التفسير مسلكه هذا، وهو في هذا الرأي يتبع پلوتارخوس ؛ أما الكاتب الإيطالي «فيريرو» فيري في تفسير مسلك أنطونيوس دافعة سياسية رى من ورائه. إلى جمع الأموال للصرف على ملته . أنظر الترجمة الإنجليزية لكتابه، الجزء الرابع ص ٣.

يتعلق بغيابه الطويل، وزواجه بأكتافيا على أنهما يرجعان لأسباب سياسية . ويظهر أنه لم تكن هناك صعوبة كبيرة في الوصول إلى شروط اتفاق أرم بينها، كان من مقتضاه أن وهبها بلادا تعهدت في نظيرها أن تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها من أجل الإنفاق على مشروعه العظيم، وهو حملته الفارسية، وعلى هذا الأساس أقطعها الأقاليم الغنية وحقول البلسم حول اليرموك وفينيقيا وكويل سوريا أو سوريا الحالية المعروفة يسهل البقاع (فلسطين) وإقليم الأعراب النبطيين وقبرص وجزءاً من سيليشيا أو قيليقية. ولقد ترتب على هذه المنح أن غضب الرومان، واشتد امتعاضهم، وانتقدوا أنطونيوس مر الانتقاد بسببها . واختلف المؤرخون الأقدمون فيما يتعلق بتاريخ هذه الهبات، وفيما إذا كانت كلها قد أعطيت في وقت واحد، فذكر بلوتارخوس أن هذه الهبات كلها قد منحت عام ٣٦ ق.م قبل الحملة الفارسية [٢٤]. ويتفق معه المؤرخ ديو في نسبتها إلى عام ٣٩ ق.م، ولكن بعد الحملة الفارسية عقب عودة أنطونيوس إلى الإسكندرية [٢٥]. أما المؤرخ اليهودي يوسيفوس فقد قسم هذه المنحة، خص الجزء الذي منح من شمال بلاد العرب واليرموك ويهوذا وفينيقيا إلى عام ٣٤ ق.م، عندما دعى هيرود إلى لأوديكيا ليبدى أسباب مقتل أرسطوبولوس [٢٦] . ولقد انقسم المؤرخون الحديثون في الرأي فقبل شيرر (Shurer) قول يوسيفوس بينما قبل جارد هاوسن

([٢٤]) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٣٦

([٢٥]) ديوكاسيوس (Die Cassius, XLIX, 32).

([٢٦]) يوسيفوس، تاريخ اليهود، قسم ١٥، ٢٤، و١ – ٢

وبوشيه ليكلرك قول پلوتارخوس أما كروماير (Kromayer) فقد نسب هذه الهبات إلى سنة ٣٦ ق.م قبل الحملة الفارسية ونسب الاختلاف بين ديو وپلوتارخوس إلى إهمال ديو في تأريخ الحوادث التي حدثت في هذه السنة وترتيب وقائعها [٢٧].

وإن مصر باستعادة هذه الأراضي والبلاد، قد رُدت لها أملاكها التي كانت لها أيام ملوك البطالمة الأولين، وبخاصة على عهد كل من بطليموس الثاني وبطلميوس الثالث . وكان الرومان قد استولوا على بعضها في عهد ملوك هذه الأسرة البطلمية المستضعفين، ولذلك تستحق كليوباترة أن تغبط نفسها على هذا النصر، إذ استردت أملاك مصر ومجدها الذي كان لها أيام أعظم أجدادها وهو بطلميوس الثاني (فيلادلفوس). ولقد كان استرداد هذه البلاد جزءاً من السياسة المصرية، ولذا يعتقد المؤرخ "جارد هاوسن" أن هذه الهيات كانت السبب الذي من أجله ابتدأت كليوباترة ميقاتاً جديداً في حكمها . ويوجد على عملة سكت بعد ست سنوات من تاريخ هذه الهبات وجه كل من أنطونيوس وكليوباترة، ومعهما العبارة الآتية :

" في حكم الملكة كليوباترة وفي السنة الحادية والعشرين التي هي أيضاً السنة السادسة من حكم الإلهة . ومما يؤيد نظرية "جارد هاوسن" السابقة ما سجله التاريخ من أن كثيراً من الملوك في الشرق جعلوا

---

(٢٧) جاردهاوسن، «أغسطس وعصره» ص٢٩٢ ؛ بوشيه ليكلري، تاريخ اللاجيدين جزء ثان ص ٢٥٥؛ كروماير في مجلة هرميز (Hermes) عدد ٢٩ ص ٥٧١ – ٥٨٥ وتجد آراءه ومقترحاته ممحصة ومدروسة في دائرة المعارف الألمانية Pauly - Wissowa في مقال له عن هيرود .

استيلاءهم على أقاليم جديدة مبدأ لتاريخ جديد، كيون به ذكرى فتوحهم، ويثبتون به لدى الأجيال مفاخرهم . ولقد استنبط بعض المؤرخين الحديثين أن ذلك البدء التاريخي ليس سد به إضافة أملاك إلى الدولة فقط، بل سببه تخليد الذكرى تلك الزيجة التي تمت بينهما في أنطاكية عام ٣٦ ق.م، فبدأت ألملكة تعد ذلك التاريخ بدء عهد جديد في تاريخ حكمها وأن هذه الهبات ما هي إلا مهر زواجها . ويظن المؤرخ الإيطالي " فيريرو " الذي برهن بمهارة فائقة على صدق الرأي القائل بزواجهما في هذه المرحلة أنه قد كان هناك منهاج واسع النطاق قد أحكم ترتيب أجزائه بدقة فائقة، فيكون معنى ذلك الزواج وضع وادى النيل تحت الحماية الرومانية، وجعل كنوز البطالمة كلها تحت تصرف أنطونيوس، ينفق منها فيما يشاء وكيفما شاء، ولكن يسوق بعض العلماء الحجج التي يدحضون بها الرأي القائل بأن الملكة تزوجت أنطونيوس نهائية في هذه المرحلة، وسوف نعود إلى موضوع هذه الزيجة وكل ما يتعلق بها في مكان آخر من هذا الكتاب [٢٨].

لقد كان أنطونيوس يعلم حق العلم أنه بقيامه بالحملة الفارسية التي فكر فيها قيصر من قبل، سوف يقوي مركزه وينشر مهابته في الشرق، ويجذب إليه قلوب الرومان في الغرب . ولقد كان أنطونيوس وهو الظافر في فيلماى ينتظر أن يوفق في مشروعه، وأن يتوج اسمه بلقب « قاهر الفرس" . استهواه ذلك الخيال الرائع، فخيل إليه أنه فاتح الفرس، وأن

---

(٢٨) لترون Letronne , Recueil des incriptions grecques et ,latines de l'Egypte ص ٩٠ من الجزء الثاني ؛ وفيريرو، الجزء الرابع من الترجمة الإنجليزية ص ٦ – ٨.

الرومان سينادون به بطلهم المنشود وقائدهم المغوار وليتهم الهصور، وبذلك يا فل نجم أكتافيوس ويختفي اسمه تحت لألاء صولته، ومظاهر قوته، وبذلك تَصَوَّر أن الحملة الفارسية إذا كللت بالنجاح ولم تجل بنفسه خالجة ريب فيه – كانت عاملاً كبيراً في جلب محبة الرومان، وإمداده بالرجال والمال والكنوز التي تلزمه لهزيمة منافسه ونظيره في الغرب . وفوق ذلك يجد من ذلك الفتح المبين معينة يستمد منه مددا من المال وقوة الرجال .

جمع أنطونيوس جيشاً مكوناً من عشر فرق وعشرة آلاف من الفرسان وتقدم إلى الأمام بجيشه تصحبه كليوباترة حتى وصل إلى مدينة زو جما(Zeugma). وعندها تركته الملكة في منتصف مايو تقريباً، وفي هذا المكان حاول التغرير بخصمه، فأوهمه أنه يريد عبور الفرات، ثم تقدم مختارة الطريق الذي اتبعه بعد تفكير طويل مسترشداً في ذلك بالخطط التي تركها له قيصر ولكنه أساء الاختيار، وقاسي الأهوال واضطر إلى التقهقر، ولم ينج من مضايقة العدو له في أثناء تقهقره وسيره داخل أرمينيا في طريقه إلى الشام ؛ وفي أثناء المرحلة الأخيرة من تقهقره كانت أمام فلول جيشه ثلوج الشتاء شبح مخيفة فتك بهم، وبلغ من ماتوا في هذه المرحلة الأخيرة من زحفه داخل أرمينيا إلى الشام ثمانية آلاف . وينسب المؤرخون الأقدمون عودة أنطونيوس إلى الشام إلى ميله الشخصي في أن يكون بجوار كليوباترة، ويظن بعض المؤرخين الحديثين أن هذا هو السبب الوحيد الذي يمكن أن يعللوا به عودته إلى الشام وسط هذه الصعاب، وهناك رأي مخالف لذلك، ويعلل مسلك أنطونيوس

بخوفه من خيانة أخرى ومكيدة يوقعه فيها ملك أرمينيا . وعلى ذلك لا يمكننا أن نجزم بيقين أدفعه إلى العودة إلى الشام خوفه من خيانة جديدة إذا بقي بأرمينيا ؟ أم أن عشقه الملح لكليوباترة هو الذي حمله على التعرض لأخطار جديدة بزحفه إلى الشام، وكانت قد بدأت ثلوج الشتاء في التساقط والنزول ؟ وقبل أن ينتهي فصل الشتاء وصل إلى الشام جزء من ذلك الجيش العرمرم الذي بدأ زحفه في الربيع السابق بشجاعة لا يعرف لها مثيل . وفي القرية البيضاء بين صيدا وبيروت انتظر أنطونيوس وصول كليوباترة التي حضرت ومعها من الملابس والأموال ما ساعد أنطونيوس على تخفيف ويلات الجند الذين قسم بينهم الأموال التي قدمتها كليوباترة بعد أن أضاف إليها من أمواله الخاصة. وكان يقضي الوقت في انتظار فترة حضورها على أحر من الجمر، يحتسي الخمر ويترقب وصول المركب التي تحمل الملكة ومعها الملابس لجنده ليستبدلوا بها أسماهم البالية .

ولقد عاد أنطونيوس إلى الإسكندرية، وأحدث من التغييرات في الحكام والملوك ما جعله يظهر للعالم الروماني أجمع كأنه ملك شرقي عظيم ملك في قوته أن يعين ملوكاً ويخلع آخرين، واعترف رسميا أثناء هذه الإقامة ببنوة الطفلين التوأمين الإسكندر وكليوباترة، ثم بطلميوس الصغير المسمى فيلادلفوس منه . وقد اختلف كل من پلوتارخوس وديو فيما يتعلق بتاريخ هذه الحادثة الأخيرة فيقول الأول : إن ذلك الاعتراف ببنوة هذين التوأمين تم في زوجها في سنة ٣٦ ق.م [٢٩]، أي قبل

([٢٩]) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٣٦؛ ديو قسم ٤٩، ٣٢.

الحملة الفارسية في حين يؤرخ ديو ذلك الاعتراف للتوأمين ولبطليموس الصغير الذي ترجح ولادته في أثناء الحملة الفارسية في سنة **٣٦** أيضاً، ولكن يخالفه في تأخير الاعتراف حتى بعد الحملة . ويظهر أن ذلك الاختلاف بين المؤرخين القدمين لم يتسبب عن إهمال في التدقيق من أحدهما، بل تسبب عن أن ديوكان يريد أن يجعل الاعتراف شاملا لثلاثة الأخوة ولذلك يرجح أن يكون هذا الاعتراف قد تم في الإسكندرية لا في زوجا .

وهكذا تبددت أمال أنطونيوس في النصر وانهارت في سنة واحدة قضاها في حملته الحربية، وفشلت تلك الحملة الفارسية فشلا واضحة، وخاب مشروع قيصر على يدي تلميذه وخليفته . ولو أنه خصص وقتا أطول للقيام بهذه الحملة وكان في وسعه أن يولى ظهره لمنافسه أكتافيوس لمدة طويلة تتيح له أن يضطلع بمهام هذه الجملة على الوجه الأكمل لتبدل الحال غير الحال. ولربما إذا كان قد ترك لنفسه العنان، وغامر بنفسه في حملة طويلة الأمد وصعبة المراس في فارس، كان وجد أن الشرق برمته قد خرج من قبضة يده كما حصل في الغرب . ولذلك كان لزاماً عليه أن ينجح في الحال إذا كان في الإمكان أن ينجح مطلقاً، ولكنه قد فشل في هذا كله فكان هذا أول عثرة عثرها، فلجَّ به العثار من بعد إلى الخسران المبين – وكانت نتيجة هذه الحملة أن عاد أنطونيوس أدراجه لا كالقائد الذي عقدت له ألوية النصر، وكلل جبينه بأكاليل الغار محملا بالغنائم والأسلاب من الشرق البعيد . بل عاد قائدة مخذولا اقتصر نجاحه في قيادة جيشه المهزوم إلى الوراء ونجاته من خراب تام .

واقتصرت مهارته في أنه أحسن الفر، وإن لم يحسن الكر، فقد استطاع أن يعود بيقية جيشه سالمة . ولما حاول أن يعيد الكرة بإعداد حملة أخرى على بلاد الفرس، كانت حماسته فيها مفلولة بذلك الانهزام، وتردد خشية أن تتكرر المأساة ويعاد تمثيل رواية الفاجعة الأولى مرة ثانية، وإنه لمن الجائز أن سوق النقاد القول بأن جيش أنطونيوس كان أحد الجيوش الكبيرة جدا التي جهزتها روما، وأنه كان أولى به في الأحوال العادية أن يتقدم على الأقل نحو عاصمة الفرس، إن تعذر عليه إخضاعها ولكنه لا يصح أن يعزب عن بالنا أن أنطونيوس كان يقوم بمحاولته هذه وسط ثورة وليس لديه من المال ما يكفي، ولا بين يديه من الرجال سوى من تيسر جمعه في أثناء الحروب الأهلية. وفوق ذلك كان في أشد الحاجة إلى بضعة انتصارات باهرة يثبت بها مركزه، ويؤكد ولايته على الشرق. ولربما إذا كان لديه مال أكثر، ووقت أطول يريح فيه جنده في أرمينيا في السنة الأولى، ثم يغزو ميديا في السنة التالية، ثم يحاول بعد ذلك غزو الفرس، كان الحال أحسن والتي من النجاح ما كان يأمله . ولكنه كان في حاجة ماسة إلى إحراز النصر في أقل وقت ممكن، وذلك لأنه كان مضطرة أن يكون على دوام الاتصال ما يجري من الأحوال في إيطاليا وفي الشرق، وهذا يفسر عدم قدرته على توفير الوقت الكافي لمشروع كان يحتاج إلى ثلاث أو أربع سنين حتى يضمن نجاحه وفي هذه الحالة الأخيرة لم تكن لتساعده الأموال التي كانت تحت تصرفه، ومن الجائز أن يرفض جنده الاشتراك في حملة يطول أمدها بهذا القدر . وعلى ذلك يكون فشله راجعة من بعض الوجوه إلى خطأ في وضع خططه الحربية، ومن جهة

أخرى للحالة السياسية التي كان عليها العالم الروماني والتي تطلبت السرعة في إتمام غزوته وفي تقهقره . ولقد لخص المؤرخ ممسون الموقف بقولهم إنهما لا ريب فيه أن هذه الحملة كانت آخر بريق مضيء في نجم أنطونيوس دال على شجاعته ومقدرته، ولكنها كانت من الوجهة السياسية عاملا كبيرة في هدمه وبخاصة أنه في الوقت نفسه كان أكتافيوس قد أنهى حرب صقلية على وجه مرض، وهذه أكسبته السيطرة في الغرب وجلبت له ثقة أهل إيطاليا ومحبتهم في الحال والمستقبل"[٣٠].

([٣٠]) مون (Mommnsen) في الترجمة الانجليزية، جزء ثان ص ٣١.

الفصل الرابع

الإسكندرية تشهد الاحتفال بالنصر على أرمينيا سنة ٣٤ ق.م وتوزيع هبات إقليمية على أبناء كليوباترة

حملة أنطونيوس على أرمينيا

في ربيع عام ٣٥ ق .م تجددت الآمال في القيام بحملة جديدة على فارس، وغادر أنطونيوس مصر، معلناً في الظاهر رغبته في القيام بحملة فارسية ثانية، وهو في الواقع بغي أن يأخذ ملاك أرمينيا على غرة منه، ويقبض عليه، ولقد صحبته كليوباترة في رحلته إلى الشمال . وإذا كانت هي التي أصرت على اصطحابه، فلقد برهنت الحوادث على بعد نظرها وفراستها، فا لبثا أن وصلا إلى الشام حتى وصل إلى مسامع أنطونيوس الخبر المزعج بأن أكتافيا كانت في طريقها للحاق به ؛ وإنه لمن الجائز أن يكون أكتافيوس قد رغب في أن يخلص أنطونيوس من أسر كليوباترة، ويعيده إلى زوجته الشرعية، كما تمنى أن يضمن صداقته، ولو على الأقل في ذلك الوقت. ولكن المؤرخ پلوتارخوس يرى أن أكتافيوس الذكي سمح لأخته أن تزور زوجها كما تحرجه، وتضطره أن يتخذ مسلكا يبين نياته، ويكشف عما في قلبه ؛ فإذا لم محسن لقاءها كانت الإهانة وسوء المعاملة التي لاقتها على يد زوجها الضال الظالم

عاملاً كبيراً، وسبباً قوياً في بتر العلاقات بين القائدين، وذريعة يتكى عليها أكتافيوس في إعلان الحرب على منافسه . ولكن هناك من المؤرخين الحديثين من يخالف هذا الرأي، ويسوق الحجج على أن أكتافيوس كان في ذلك الحين على وشك أن يبدأ في حملته على . "إلليريا"، أو ساحل دالماشيا، وبطبيعة الحال كان شديد الرغبة في أن يسود السلام بينهما، ولقد أظهر حسن نيته نحو منافسه بكتمانه خبر هزيمته الفاجعة في حربه مع الفرس، وبإقامته الاحتفال بانتصارات أنطونيوس الوهمية . فأرسل أخته ومعها نحو ألفين من الجند ليكونوا حرساً خاصاً لأنطونيوس، وأرسل معها ملابس لجيشه، ودواب للمقل ومقداراً من المال، ولكن أنطونيوس أرسل في الحال خطاب إلى أكتافيا يأمرها أن تعود أدراجها إلى إيطاليا، لأنه ذاهب إلى ميديا . ولما أرسلت أكتافيا أحد أصدقاء أنطونيوس ليسأله عما تفعل بالجد والمدد، قبل أنطونيوس هداياها – وإن الباحث المدقق ليمكنه أن يلمس يد كليوباترة تلعب في الخفاء، وتحرض أنطونيوس على اتخاذ ملكه هذا، فلا يمكن أن نعلل خيبة أكتافيا بغير أن نسلم بتحريض كليوباترة ودسها لها، وقد استولى عليها الرعب والخوف من محاولة أكتافيا بسط نفوذها على أنطونيوس، وخافت لقاءهما، فصممت كليوباترة أن تغريه بأن يولى وجهه معرضا عن أكتافيا، وحرضته على أن يعود إلى الإسكندرية، حيث يكون أولا أبعد ما يكون عن يد أكتافيا، وثانيا بعيدا عن كل ما يغريه بالقيام بحملة فارسية ثانية، ليس من الحكمة وحسن الاختيار البدء بها في هذا الوقت الحرج . ولقد اتخذت كل الحيل التي كانت في وسع امرأة ماهرة مثلها حتى تؤثر في رجل يمثل

خلق أنطونيوس، الذي لم يكن عنده من قوة الإرادة والعزيمة بمقدار ما كان عنده من تهور واندفاع وشهوات مسلحة جامحة . ولقد صورها پلوتارخوس بأنها كانت تدعى الموت من حرقة الحب لأنطونيوس، ولزمت الجمعية في الأكل، فهزل جسمها، وفارقتها طبيعتها المرحة الطروب، وتصنعت الحزن والمرض، ولم تكن لتشكو مطلقاً ولكنها حرصت دائما على أن يبلغ رجال حاشيتها أخبارها وقتا بعد آخر لأنطونيوس، فيعلوه مرض الملكة، وبأنها لا محالة ميتة إذا فارقها. ويظهر أن رجلا من أهل "لأوديكيا " قدم لها مساعدة جدية في حيلها هذه .

ولقد كان المقصود من تمثيل هذا الدور وفق رأى پلوتارخوس صرف أنطونيوس عن مفارقة الملكة، ومنعه من الالتقاء بزوجته أكتافيا، ثم منعه كذلك من الزحف على ميديا . على أنه من الصعب أن نصدق القول بأن أنطونيوس قد خدع حقيقة، وصرفته هذه الحيلة النسائية وحدها [٣١]، كما أنه ليس من المعقول أن نقول بأن حيلة كليوباترة هذه كانت السبب في الإعراض عن مشروع حملة كانت كليوباترة نفسها تعتقد أن الفرصة سانحة لها. ولكن فرائص أنطونيوس كانت ترتعد بعد تجربته القاسية في العام السابق من ذكر حملة فارسية ثانية بدرجة أكبر مما كان يبدو عليه من مظاهر الرباطة والقوة . ومن المحتمل أنه لم يكن آسفة عندما وجد الصعوبات تعترضه في طريقه، فوجد أن استعداداته لم تكن تفي بالغرض،

[٣١] يقول المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكلرك في كتابه « تاريخ اللاجيدين » الجزء الثاني ص٢٦٩ إنه ليس هناك ما يبرر تسميتها بالممثلة الكوميدية، وفي اعتقاده أن لعبتها هذه لم تنجز حتى على أنطونيوس، وسواء أكانت تحبه أم لا فإن إذلالها، والخوف من ضياع ملكها بتحويله إلى ولاية رومانية كان فيه الكفاية لتبرير بكائها فأقنعته أو أغرته بالعودة إلى الإسكندرية .

وأن الوقت كان قد أزف، ولم يكن يستطيع المخاطرة بنفسه في بلاد العدو في فصل الشتاء، وكانت ذكرى حوادث العام السابق لا تزال عالقة بذهنه . وعلى ذلك أعرض عن مشروع حملته وعاد مع كليوباترة إلى الإسكندرية، حيث مضيا فصل الشتاء (٣٥ – ٣٤ ق.م).

وفي فصل الربيع التالي رغب أنطونيوس أن يسترد هيبته التي كانت له في الشرق قبل حملتة الفارسية، وكان ينسب فشله الذي كان سبب ضياع شهرته إلى ملك أرمينيا الذي حرمه، بخيانته، من أي أمل في إحراز النصر . وعلى ذلك كان أنطونيوس ينوى معاقبة هذا الملك بمجرد سنوح فرصة مناسبة . ولكي يخدع " أرتاواسديس "، ملك أرمينيا، أرسل له « ديليوس » مقدمة يسأله الموافقة على عقد قران ابنته بالإسكندر ابن كليوباترة من أنطونيوس . وفي الربيع كان أنطونيوس على أبواب نيكو بوليس أو مدينة النصر، ومنها أرسل رسولا لملك أرمينيا ينبئه برغبة أنطونيوس في الاجتماع به شخصية، ولكن الملك ارتاب في الأمر، ولم يحضر بشخصه وعندئذ زحف أنطونيوس بنفسه على رأس جيشه مسرعة نحو « أر تاكستا»، وهناك خدع الملك، وأغراه حتى حضر إلى معسكره حيث كلفي أصفاد من سلاسل فضية . ولقد استولى أيضاً على كنوزه، ونهب أراضيه، وهزم إبنه الذي كان قد أعد العدة لمقاومة أنطونيوس بعد أسر أبيه ففر يجر أذيال الخيبة إلى پارثيا. وبذا تم إخضاع كل أرمينيا، وقبل أن يترك أنطونيوس البلاد خطب "يوتابي"، الابنة الوحيدة لملك ميديا لابنه الإسكندر، وبذا أظهر نيته في أن يهب هذه المملكة لابنه ويوسع رقعة نفوذ كليوباترة في هذه البقعة من آسيا . وبعد الحملة

الأرمنية التي لم يقاس فيها أنطونيوس أية مشقة أو يتعرض الأخطار جسيمة، أدرك الناس أن النتائج التي وصل إليها أنطونيوس لا تشرفه في شيء، وأن الحملة الأرمنية لم تكن سوى غارة لنهب والسلب، شنها أنطونيوس على صديقه وحليفه بالأمس. ولما عاد أنطونيوس إلى الإسكندرية كان الفرح والسرور لأن قلبه لما أحرزه من انتصارات، ويغمره الزهو بما تجمع لديه من أموال [٣٢] . وفي طريق العودة كانت تحت تصرفه أموال كثيرة، وجموع غفيرة من الأسرى الذين كان من بينهم كل أفراد الأسرة المالكة. وعلى ذلك كانت لديه كل الوسائل التي تخول للقائد المنتصر الحق في أن يقام له حفل النصر المألوف في روما (triumphus)، ولم يكن ينقصه من هذا كله سوى المدينة التي يصح له أن يعقد بها هذا الاحتفال، وهي بالنسبة للروماني روما بالطبع. ولما كانت هذه في قبضة يد مناظره الذي أغضبه بسوء معاملته لأخته أكتافيا، فقد أصبح لزاما عليه إذا أراد أن يحتفي بانتصاره أن يبحث عن مدينة أخرى غير روما ليقيم فيها معالم انتصاره، ولكن لم يسبق من قبل أن أقام قائد رومانى احتفالا رسمية خارج روما إذ كان مجرد التفكير في إقامة ذلك الاحتفال خارج روما بعيدا عن بال أي روماني . ولكن كانت الإسكندرية في ذلك الوقت العاصمة الحقيقية للنصف الشرقي للدولة الرومانية ؛ إذ كانت مدينة تفوق روما نفسها في العظمة والبناء، وكان من الجلى أنها المدينة الوحيدة التي يمكن أنطونيوس أن يتخذها عوضا عن روما السير موكبه الرسمي . وعلى ذلك دخل الإسكندرية دخول المنتصر

---

(٣٢) Orosius VI, 19, 4 :- qua elatus pecunia

الظافر وسار في موكب فستق على نمط المواكب العظيمة التي لم يسبق أن شوهدت بمدينة أخرى من قبل غير روما والكاپيتول.

الإسكندرية تشهد موكب النصر

سار أنطونيوس إذاً في شوارع الإسكندرية متحدياً روما وأكتافيوس معاً باحتفاله بانتصاره في عاصمة أجنبية بطريقة شديدة الشبه بالاحتفالات التي كانت من قبيل وقفة على روما، عاصمة العالم القديم. ويظهر أن الموكب بدأ من القصر الملكي في لوخياس (Lochilas)، حي السلسلة بالشاطئ برمل الإسكندرية، وسار في الطريق الكانوبي، الموصل إلى أبي قير (Canopus) والذي كان مكتظاً بالنظارة على جاني الطريق، ومنه سار إلى معبد سيرابيس الكبير (أو كوم الشقافة الآن بى كرموز) في الجهة الغربية من الإسكندرية . ولا بد أنه كان حفلا كبيراً لا يقل قامة وعظمة عن نظرائه في روما، أم المدائن والأمصار في ذلك العصر، حيث كانت تسير في الطريق المقدس (Via Sacra) إلى معبد الإله چوپيتر (Jupiter) على تل الكاپيتول. ويظهر أنه كان على رأس الموكب شرذمة من الجنود الرومانية، يحملون دروعا منقوشة على كل منها حرف الكاف الذي يقال إنه كان رمزا لكليوباترة، كما أنه يحتمل أن يكون رمزا القيصرون [باعتبار أن الحرف الأول من هذا الاسم ينطق بالكاف باللاتينية] والمطالبين بحقه الشرعي في تركة أبيه قيصر . ولقد ركب أنطونيوس كما يركب القائد المنتصر في عربة النصر تجرها أربعة من الجياد الشهباء المطهمة، ومن أمامه سار ملاك أرمينيا الحزين، مشيا على الأقدام مكبلا في سلاسل وأغلال ذهبية، ومعه بقية أسرته ؛ ومن خلف

العربة سار موكب طويل من الأسرى الأرمنيين ووراء هؤلاء سارت العربات محملة بالغنائم والأسلاب، وأخرى بها مناظر رمزية تصف أرمينيا، وفي المؤخرة سارت فرق الجند من حلفاء الشرق والملوك التابعين وكوكبة من الفرسان في المؤخرة، وعند وصول الموكب إلى السرابيوم، تنزل أنطونيوس من عربته وصعد إلى المعبد وسط التهليل والتكبير من جانب المشاهدين ليقدم القرابين المعتادة للإله سيرابيس، الإله المصرى الذي ابتدعه الملاع بطلميوس الأول ليكون حلقة إتصال بين المصريين واليونانيين ويشترك الجميع في عبادته فتسلس قيادتهم . ولو كان أنطونيوس في روما لاتجه وجهة أخرى ولقدم مثل هذه القرابين للإله چوپيتر في معبد، القائم على تل الكاپيتول . ولقد تبع ذلك منظر غريب لا يمت للرومانية بصلة أو حتى يشبه قريبٍ أو بعيدٍ، إذ شيدت منصة أمام السرابيوم مكسوة كلها بالفضة، وعلى هذه المنصة كان يوجد عرش ذهبي، جلست عليه الملكة كليوباترة لابسة رداءا مستقيما ضيقة، كذلك الذي تلبسه الإلهة إيزيس، تنتظر تقديم عبارات الولاء والخضوع من الظافر وأسراه . ولقد أحضر أنطونيوس إلى قدمها الأسرى من العائلة المالكة بأرمينيا . ولكن الملك أر تاواسديس أبى أن يحيها كما حتى الآلهة، كما امتنع عن أن يقوم بشيء فيه إذلال له أمامها، واقتصر على مخاطبتها باسمها . وكانت العادة في روما في نهاية مثل هذه الحفلات أن يقتل الأسرى من الملوك وأسرهم بعد أن يكونوا قد ساروا في مثل هذه المواكب، ولم يكن أرتاو أسديس متوقعة غير ذلك، خصوصا بعد أن رفض أن يلقي بنفسه طريحة بين قدمي الملكة، ولكنه وأسرته زجوا في

غياهب السجون في عاصمة البلاد المصرية. وبعد انتهاء الموكب، أقيمت ولعة كبيرة لجميع سكان الإسكندرية .

توزيع الهبات الإقليمية على أبناء كليوباترة

وفي عصر ذلك اليوم أقيم حفل ثان في أرض الملعب الثقافي الرياضي المعروف بالجمنازيوم ودعى إليه أهل الإسكندرية ليشاهدوا منظراً آخر أشد عجباً من سابقه، ولقد أقيم على منصة فضية مرتفعة عرشان ذهبيان لكل من أنطونيوس وكليوباترة وأربعة عروش أخرى أصغر من الأولين لأولادهما . ولما التأم الجمع جلس على هذه العروش أنطونيوس وكليوباترة وقيصرون الذي كان يبلغ من العمر حينئذاك ثلاث عشرة سنة ونصف سنة والتوءمان الإسكندر هيليوس (الشمس) وكليوباترة سيليني (القمر) وكان كل يبلغ ست سنوات وبطلميوس الصغير الذي كان عمره سنتين . ولقد أعلن أنطونيوس رسمياً أن كليوباترة هي ملكة الملوك، وأن قيصرون الذي شهد بأنه ان يوليوس قيصر " ملك الملوك "، وأعلنها حاكمين بالاشتراك على مصر وسوريا الخالية (فلسطين) وقبرص . ولقد أشار المؤرخ "ديو" إلى الدوافع التي جولته يفعل ذلك مما يأتي د لأنه أعلن أن الأولى كانت في الحقيقة زوجته، والثاني كان إبنة ليوليوس قيصر، وصرح بأنه كان يتخذ هذه الإجراءات من أجل قيصر، ولو أن غرضه الحقيقي كان إلحاق اللوم والعار بأكتافيوس قيصر، الذي كان دعا لقصر، ولم يكن ابنة حقيقياً له " (٣٣) – ولقد أقطع أبناءه من كليوباترة

(٣٣) Dio, XLIX, 41

بلاداً فسيحة ليحكموها فعّين بطلميوس الصغير ملكا على فينيقيا وسوريا وسيليشيا، ومن الإسكندر هيليوس أرمينيا وميديا وكان مدير الأخيرة آيلا إليه لأنه زوج ابنة ملكها الحالي كما ولاه على پارتيا (الفرس) بمجرد غزوها المرتقب، أما كليوباترة سيليني فقد وهبها سيرينيكا (برقة) . ولقد ظهر أمام الجمع المحتشد ولداه : الإسكندر وبطلميوس مرتدين ملابس المالك التي توجا بتيجانها، فكان الإسكندر لابساً رداءاً ميدياً، وفوق رأسه تاج قدماء الفرس الطويل أما بطلميوس فكان مرتدياً رداء المقدونيين. فليس وشاح المقدونيين القدماء والقلنسوة المطوقة بالإكليل على الطريقة التي اعتادها أخلاق الإسكندر. وفي نهاية الاحتفال أحاط بالملكين الصغيرين بعد تحية والديهما حرس مؤلف من الشعوب التي قدر لها أن تكون محازمة بها . ويختلف المؤرخون الأقدمون مثل پلوتارخوس وديو بصدد الألقاب التي منحها أنطونيوس لأبنائه، فيذكر ديو أن كلا من كليوباترة وقيصرون حظى بلقب ملك الملوك، وملك الملوك على التوالي، أما پلوتارخوس فيقول إن كلاً من قيصرون والإسكندر وبطلميوس منح لقب ملك الملوك، ومن المحتمل أن يكون أبناء أنطونيوس قد منحوا نفس اللقب الذي منحه قيصرون ووالدتهم. وفي الشرق متسع لكثير من أطلق عليهم لقب "ملك الملوك".

وفي أثناء هذا الاحتفال بانتصار أنطونيوس، رأي أهل الإسكندرية مدينتهم قد ساوت روما . وفي الاحتفال الثاني الذي تم فيه إعلان قرار أنطونيوس الخاص بعطايا الإسكندرية وجدوا مصر قد حولت إلى ملكة رئيسية، تجمعت حولها مالك شبه مستقلة، يحكمها أبناء الملكة الثلاثة،

وكانت هذه الإمبراطورية تمتد من الفرس شرقاً إلى طرابلس غرباً. وإنه لتغيير غريب عما كانت عليه مصر في أيام بطلميوس أو ليتيس، والد كليوباترة . وكانت كل مطامعه مقصورة على ألا تكون مصر إيالة رومانية صراحة وعلانية، وإن كان قد سميح أنفسه بأن يؤيد عرشه جيش احتلال روماني، وولي على مالية البلاد وزيراً للدالية من الرومان يعرف باسم رابيريوس بوستوموس (Rabirius Postumus) فكان هذا التصرف سبة في جبينه ومدعاة لثورة السكندريين ضد الإثنين [٣٤]. وعلى ذلك استطاعت كليوباترة بأسلوبها ودهائها وحسن تدبيرها أن تعيد إلى مصر إمبراطورية عظيمة، اشتملت على كل ما كان لأسرة البطالمة من قبل من أملاك، مضافاً إليها بعض أجزاء أخرى من أملاك الدولة الرومانية . وكان مظهر الوحدة في هذا الملك العظيم ممثلاً في الشخصين المقدسين : أنطونيوس في صورة "ديونيسوس" أو "أوزوريس" وكليوباترة في صورة "إيزيس"، اللذين كان يحيط بهما نسلهما المقدس: الإسكندر "هيليوس" وكليوباترة الصغيرة و"سيلين". ولقد لخص المؤرخ "ماهافي" (Mahaffy) هذا الموقف بقوله "إنه من الواضح الجلي أن تكون السياسة التقليدية لأسرة البطالمة قد أملت على كليوباترة كل هذا التصرف؛ إذ أنها كانت تطمع في العالم اليوناني وامتلاك كل ما كان لمصر في الماضي وبقي في حوزتها أمداً طويلاً [٣٥]. وإنه ليحق

([٣٤]) كشف لنا شيشرون في صدد دفاعه عن رابيربوس بوستوموس الكثير من الأستار عن شخصية هذا الفارس الروماني الذي قدم للمحاكمة في روما بسبب إقراضه الأموال للملك وابتزازه الأموال وقبوله الرشوة . أنظر Cicero , Pro C . Rabirio Postumo.

([٣٥]) ماهافي، تاريخ مصر، ص ٢٤٩ – ٢٥٠

لكليوباترة أن تهنيء نفسها على ذلك الانتصار السياسي العظيم الذي أحرزته لمصر .

وإنه لمن الصعب أن تعلل مسلك أنطونيوس، وأن نكشف عن الدوافع الحقيقية التي جعلته يقتطع من بلاده الأصلية معظم أملاكها في الشرق تقريبا ثم يقسمها بمثل هذه الطريقة التي سلكها، ولقد لحقه من اللوم أشده لاحتفاله بانتصاره على أرمينيا بتلك الصورة الهزلية، التي كانت أضحوكة الإحتفالات الكابتولية في الإسكندرية، وكان ذلك الاحتفال مساوية لإعلانه انحطاط المدينة العظيمة «روما» سيدة العالم القديم وزوال تلك العظمة التي انفردتها فلم تشاركها فيها مدينة أخرى، وأصبحت لا نظير لها بين المدائن في ذلك الحين، فكيف يتنكر لروما ابها، وكان المنتظر منه أن يكون بارا ها وحريصا على رفعة شأنها. ولقد نظر الرومان إلى مسلك أنطونيوس .. هذا بالإضافة إلى منحه هبات لأولاده بأشد ما يكون من السخط والغضب، ونظروا إلى تصرفه هذا على أنه تصرف غير روماني، ويدل على سياسة شخصية معينة في الشرق . ولقد انتقد المؤرخ الفرنسي « بوشيه ليكرك » سياسة أنطونيوس في الشرق بقوله « إنه لمن المؤكد أنه أغفل بدرجة لا يمكن وصفها بغير الجهل، وعدم التبصر – روح العصر الذي كان يعيش فيه، ومبلغ قوة الرأي العام، واتجاهه الذي تحداه ياقة، وقد سر نظر فاقا الحد[٣٦] . ولقد ظهرت في هذه المرحلة نبات أنطونيوس الحقيقية المتعلقة بإيجاد مملكة شرقية . وإنه لمن الممكن أن نصدق ما يقوله بعض المؤرخين من

---

(٣٦) بوشيه ليكلرك – تاريخ اللاجيدين – البطالمة – جزء ثان ص ٢٧٥

أنه كان يريد تشييد إمبراطورية شرقية تنافس إمبراطورية الغرب، ويكون لكليوباترة فيها الدور الرئيسي، بل هي محور النظام الذي بانت أماراته وطلع به أنطونيوس على العالم في غير مواربة ولا تمويه . على أن نفرا من المؤرخين الحديثين ينسبون احتفاله بالنصر في الإسكندرية، وإسباغه الألقاب على كليوباترة وأبنائها منه، ومن قيصر، إلى حب أنطونيوس الظهور والمفاخرة اللذين تلقنهما من كليوباترة أكثر من أن ينسبوا هذا كله إلى وجود دوافع حقيقية، آسير بها سياسة يمليها العقل وبعد النظر، وظنوا كذلك أن هباته الإقليمية كانت راجعة إلى أنه كان قائداً منتصراً، دفعه تيار الحوادث وحب الشهرة والطموح إلى العلا، إلى درجة استولت عليه فيها عزة الانتصار ورعونة الظهر – ومع أننا لا نصر على عده رجلا سياسيا عظيما، فيه ذكاء فذ متقدم على عصره، فمن الممكن أن نفسر سياسته على ضوء ينير لا منطق الحوادث في هذا العصر . ولابد أن يكون أنطونيوس قد قصد بهذه المملكة الرومانية – الهيلينستية التي خلعها على كليوباترة وأبنائها، وجعلها إرثالهم أن تقوى وتثبت أركانها، وتتخذ أساساً في النزاع المرتقب الذي أصبح وشيك الوقوع بينه وبين أكتافيوس ولا سبيل إلى تحاشيه . وعلى ذلك كانت هذه السياسة وسيلة لغاية ؛ فقد كان أنطونيوس يأمل أنه عندما يقوى أركان دولته في الشرق، وتصبح كل مصادر الثروة به تحت تصرفه هو أو تصرف كليوباترة من ورائه، يتم له النصر في كفاحه المستقبل مع منافسه العتيد، وعند ذلك يتم توحيد الجزء الغربي من الدولة مع الشرقي، ير تهما التاج على رأس أنطونيوس وكليوباترة.

وفي أواخر عام ٣٤ ق.م أرسل أنطونيوس إلى نفر من أصدقائه المخلصين في روما بياناً يذكر فيه فتوحه التي نفذها في بلاد أرمينيا، ويصف فيه المهرجان العظيم الذي أقيم في الإسكندرية ابتهاجا بظفره . ثم ذكر في رسالته هذه ما اتخذه من تدابير، وما منحه من هبات . ولقد طلب إلى عاملين من أصدقائه هؤلاء أن يطلعا مجلس الشيوخ الروماني على رسالته هذه في أقرب فرصة ممكنة، وأن يحصلا على موافقته على هذا التغيير الذي أحدثه بتوزيعه العروش، في النصف الشرقي من الإمبراطورية . ومن ذلك نفهم أنه كان يرغب في الحصول على موافقة السناتو الروماني على هباته، آملا بذلك أن يلقى في أروع الرأي العام بروما أن التغيرات التي أحدثها ما هي إلا تغيير شكلي في تنظيم الولايات الشرقية، وإن هي إلا استمرار للسياسة الرومانية التي كانت تتبعها روما على الدوام في الشرق، وهي خلق مالك أسيوية، يكون ملوكها في منزلة الحلفاء أو الأصدقاء (socii et amici) ثم فك عرى هذه الممالك وإعادتها من جديد . وفي أثناء العام الثاني أعني عام ٣٣ ق.م نجد أنطونيوس يحاول الحصول من روما التي لطمها في كبريائها، والتي سخر بسلطتها، وداس على كرامتها، ونشر في الريح هيبتها، على موافقتها ممثلة في مجلسها الأعلى، وهو السناتو على هباته التي منحها بالإسكندرية لكليوباترة وأبنائها . وقبل إعلان التقرير الرسمي على الملأ في روما تواترت الإشاعات على ألسنة الناس تحمل ذلك الخير العظيم، الذي قابله عامة الرومان بامتعاض عظيم . وفي الدوائر الرسمية بلغ السخط والحنق على مسلك أنطونيوس أشده . أما في الدوائر الموالية

الأنطونيوس فقد ساد القلق والخوف على سمعة أنطونيوس، وأخذ المخلصون له يفكرون في وسيلة يخلصونه بها من كليوباترة، ومن حبائلها التي ظنوا أنها تنصبها له . وإن في إتفاق كل من المؤرخين پلوتارخوس [٣٧] وديو [٣٨] في أن التقرير الرسمي لم ينشر في مجلس السناتو ما يؤيد القول بأن الرأي العام بلغ الغاية من الإمتعاض وعدم الرضاء . وكان من بين أعمال أنطونيوس في الإسكندرية تصرف واحد أصاب أكتافيوس في موضع الحس منه، وكان أكبر أسباب غضبه، وذلك هو اعتراف أنطونيوس بقيصرون إبنة شرعية لقيصر. ولقد كان غضب أنطونيوس على أكتافيا وردها على أعقابها تتعثر في أذيال الخيبة والفشل، ثم ما كان من أمر تعلقه وارتباطه بكليوباترة، ثم تصرفه الأخير بالإسكندرية، وإغداقه على أولاده منها النعم والهبات – كل هذه أمور جعلت أكتافيوس يوقن أن أنطونيوس يزوى شراً، وأنه لن يتردد في أن يعلن عندما تلوح له الفرصة أن أكتافيوس مغتصب الميراث قيصر . وكان الأمل إذا في بقاء السلم بينهما أضعف ما يكون في هذه المرحلة، إذ تبدد كل رجاء في تسوية الخلاف بينهما، وأصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى، وخصوصا أن أنطونيوس قد تعلق بكليوباترة التي كان أحب شيء إليها أن تسقط حق أكتافيوس في وراثة قيصر ليحل محله في هذا الحق ابنها منه وهو قيصرون – لذلك كان من مصلحة أكتافيوس أن يقيم العراقيل ضد أنطونيوس، ورغبته في إبرام أعماله في الشرق، وأن يقضى على سمعته في

(٣٧) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، ٥٥

(٣٨) ديو، فصل ٤٩، ٤١

الشرق بتحريض السناتو حتى يرفض الموافقة على تصرفاته به .

ولقد انتهز أكتافيوس بشغف عظيم فرصة الأثر السيئ الذي أحدثته تصرفات أنطونيوس بالإسكندرية، لكي يثير الرأي العام بالغرب في وجه منافسه، ولكي يمثل دور المدافع عن مصالح روما وتقاليدها. وبهذا أخذ تيار الرأي العام في الانحياز شيئا فشيئا إلى صف أكتافيوس، فقد كان يصور أنطونيوس تصوير معيبا فيشبه باللص الذي يسلب أملاك بلاده ليقدمها القمة سائغة لامرأة مصرية . وفي الحال بدأت تتواتر الروايات بين الناس، وفيها يصور أنطونيوس بملك شرقي يعيش في الإسكندرية غارقا في ملاذه وشهواته، وأشيع عنه أنه ثمل دائما وقيل إن الملكة تستطيع أن تذهب عن نفسها أثر الحر بخاتم سحري من الياقوت، يزيل عن لابسه غمة الحمر، ويعيده إلى رشده أو صوابه . وفي هذا المعنى يقول الشاعر والكاتب اللاتيني فلوروس (Florus) ، إن كليوباترة طلبت من القائد الثل أن يعطيها ملك الدولة الرومانية ثمناً لحبها، فوعدها ذلك كما لو كانت مهمة إخضاع الرومان أسهل وأقل مشقة من إخضاع الفرس ... ناسيا بلاده واسمه ولباسه الروماني وشارات حكمه، وبذلك انحط إلى الدرك الأسفل في فكره وشعوره وردائه فأصبح ذلك الوحش الذي في يده صولجان ذهبي، وبجانبه سيف مقوس مرصع بالزمرد والياقوت . وملابسه الأرجوانية قد زينت بالجواهر العظيمة وعلى رأسه تاج وقد صار ملكة خليقة بالملكة التي وأحبها لحية جمة[٣٩]. ويذكر شيليوس (velleius) أيضا وهو مؤرخ روماني، استهتار أنطونيوس وانغماسه في

---

(٣٩) فلوروس، ٤، ١١. عاش هذا الشاعر والكاتب في عصر الإمبراطور هادريان وكان صديقاً له .

الملاذ ومسلكه في الإسكندرية في ذلك الوقت، فيصوره للناس بأنه كان يمثل في الإسكندرية دور الإله "ديونيسوس" ويضع فوق رأسه إكليلا من اللبلاب، ويلبس رداءا أصفر من الذهب، وقد قبض بيديه على صولجان، ثم يعمد إلى ركوب عربة كالتي يركبها الإله "باكوس"، (إله الخمر) [٤٠]، ولا يقل المؤرخ " ديو " عن هذين الكاتبين الرومانيين في تأثره بالعواطف، وانسياقه وراء مرضاة الرأي العام، فصور لنا أنطونيوس وقد أصبح أسيرة لكليوباترة، يقبل منها تولى وظيفة بلدية متواضعة هي وظيفة رئيس الندوة الثقافية الرياضية وهي الجمنازيارك، ويحط الملكة بحرس من الجند الرومان ويسمى مركز رئاسة الجند "بالقصر" وصوره كذلك بأنه يرى لابس ملابس لا تتفق وعادات بلاده [٤١]. وإنه ليظهر لنا أن كل هذه الأراجيف حملة مدبرة للحط من شأن أنطونيوس، وتشويه سمعته وسمعة كليوباترة بالتالي . ولاشك أن أنطونيوس لم يلق الإنصاف الذي يستحقه من أقلام الكتاب والمؤرخين الذين عاشوا في صدر عصر الإمبراطورية الرومانية، وهج الكتاب من بعدهم على إتباع هذا الأسلوب المرعى في كيل التهم، وتشويه سمعة أنطونيوس والملكة من ورائه. وإنه لمن الأسف الشديد ألا توجد وسيلة لتمييز الخبيث من الطيب من هذه الروايات، واستخلاص الحقائق ما عراها من دخل وزغل، واستخراج الحقائق الناصعة من وسط ذلك المحيط المظلم من التهم التي يكيلها المؤرخون الرومان جزافا

---

(٤٠) فيليوس، ٢، ٨٢ – عاش هذا المؤرخ في عصر الإمبراطور تيبريوس وكتب موسوعة في التاريخ الروماني.

(٤١)

لعدو إمبراطور الدولة الرومانية الأول.

ومع هذه الحالة المديرة على أنطونيوس، كان لا يزال له كثير من الأعوان والمتعلقين به يعتقدون أنه هو الشخص الوحيد الذي يمكنه بما أوتي من قوة وعزم أن يعيد الجمهورية الرومانية إلى عهدها الأول.وكان يوجد من بين المتحمسين لمذهب يوليوس فريق يدين بالرأي القائل بأن قيصرون . أحق من أكتافيوس بأن يكون الوارث لقيصر، وأن إنتماء أكتافيوس القيصر لم يعتمد إلا على إجراءات قضائية أصابت الشكل دون الجوهر، ولم تصب الصميم، لأنه سبق إلى تسجيل الوصية الأولى، وأخفي الوصية الثانية التي قيل إنها تنسخ هذه الوصية في جوهرها . ولقد قيل إن قيصر كتب وصية أخرى بعد الأولى، وفيها يترك قيصرون وارث له، ولكنها أخفيت بعد موته . وإذا جاز لنا أن نصدق " ديو " في زعمه هذا، فإن إعتراف أنطونيوس بأن قيصرون هو الوارث الشرعى القيصر كان الدافع الأكبر الذي جعل أكتافيوس يصر على الإلتجاء إلى الحرب، ولم تصادف محاولة أكتافيوس في أن يثير الرأي العام ضد أنطونيوس كل ما كان يرجوه من النجاح؛ إذ أظهر رجال السياسة شيئا كثيرة من التحفظ والحذر المقر ونين مقدار غير قليل من الجبن . ولربما كان هذا الشعور ناتجة عن عدم محبة الشعب الروماني لأكتافيوس، أو لأن الرأي العام لم يقتنع تماما بأن أنطونيوس أصبح ملكا شرقية . ولم يسلم بأنه أصبح كما يصوره أعداؤه آلة في يد كليوباترة، تستخدمه في أغراضها إلى غير ذلك من التهم التي كان لا يتورع منافسه عن أن يلصقها به . وهذا يبين لنا أن أنطونيوس مع كل ما عمله قد احتفظ بولا جنده له وولاء كثير من أتباعه

في مجلس الشيوخ وفي إيطاليا نفسها، وكان يظهر لهؤلاء جميعا أن لديه . جيشا عظيما وقوة لا تقهر، وأنه يملك أموالا وثروة لا تفنى . وكان مركزه كملك شرقي أعظم بكثير من مركز أكتافيوس الذي ظهر ضعف قواته بشكل جلي في مفاوضاته التي تبعت رسائل أنطونيوس للقنصلين المنتخبين العام ٣٢ق.م، وكان أكتافيوس يصبو من صميم قلبه أن ينشر على الملأ رسائل أنطونيوس آملا بذلك أن يشوه من سمية منافسه عند وقوف الشعب الروماني على محتوياتها، ولكن القنصلين كانا يعلمان باتجاه شعور الرأي العام، وتكهنا بالنيات، التي كانت تجول بخاطر أكتافيوس فخافا من النتائج الوخيمة، التي تعود من حصوله على طلباته، وأخيرا اتفقا فيما بينهما على أن تبلغ محتويات هذه الرسائل كما هي، على أن أكتافيوس لم يطق صبرآ فأعلن على الملأ معارضته السياسة أنطونيوس في الشرق عندما انتخب قنصلا للمرة الثانية في أول يناير سنة ٣٣، إذ أسرع بالعودة من حروبه في الليريا لتسلم مقاليد هذه الوظيفة، وعندما ترأس مجلس الشيوخ بصفته القنصل الجديد خطب خطبته الأولى حسب العادة التقليدية، وفيها تناول السياسة العليا للدولة، وهاجم لأول مرة أنطونيوس مندِدة به وسرد حكاية هيامه في الإسكندرية وشفعها بالانتقاد اللاذع. وبعد مضي فترة قصيرة على هذه الحالة الشعراء في مجلس الشيوخ وهي التي يمكن اعتبارها مبدءا للعداوة الرسمية، استقال أكتافيوس من منصب القنصلية وعاد إلى ميدان القتال في الليريا . وعلى ذلك أصبحت أغراض ونوايا كل من الزعيمين واضحة جلية في هذه المرحلة، وأصبح مجرى الحوادث لعام ٣٣ ق.م يدل على أنه من

الصعب جدا تجنب وقوع الحرب بين نصفي الدولة الرومانية، وإعلان القطيعة بين روما ومصر . وإن ترتيب وقوع الحوادث ومقدار ما لدينا من معلومات فيما يتعلق بالنزاع في الدور الأخير، لعلى قدر عظيم من الضالة والتعقيد والإرتباك على نحو ما وصفها المؤرخون الأقدمون لدرجة أنه من المستحيل على الحديثين أن يصلوا إلى كنه الحقيقة على سبيل اليقين، وعلى ذلك أضطروا أن يلجئوا على الدوام إلى إعمال الحدس والتخمين في تفسير تصرفات كل من أنطونيوس وكليوباترة من ناحية وما ألم بهما – من صعاب.

الفصل الخامس

الدور الحاسم في علاقة أنطونيوس بكليوباترة

في ربيع عام ٣٣ زحف أنطونيوس إلى أرمينيا، آملا في الظاهر أن يهزم الفرس، وأن يعيد هيبته المضاعة، وكان يظن أن غزو أرمينيا في السنة السالفة ما هو إلا مقدمة لازمة لاتخاذها قاعدة حربية للحملة الفارسية، ولكن لا يستطيع الإنسان الجزم بأنه كان لا يزال في نيته غزو بلاد الفرس؛ وإن أعماله عند وصوله إلى أرمينيا لتدل على أحد أمرين : إما أنه تبين له أنه لم يعد يقوى على تحمل هذا العمل، ولم يشعر برغبة في تكرار التعرض للأموال التي صادفها في تقهقره السابق، وإما أنه رأى أنه لابد له أن يتدبر أمر قواته استعدادا لتنفيذ أمر آخر . وكان أنطونيوس قانعاً بعقده تحالفاً مع ملك ميديا، الذي وعد أن يساعده ضد أكتافيوس، نظير أن ينال جزءاً كبيراً من أرمينيا العظمى، وجزءاً من جند الرومان ليكون جبهة قوية في وجه الفرس، وفوق ذلك فإن الأميرة الصغيرة يوتابى خطايبة الإسكندر بن أنطونيوس تركت في رعاية أنطونيوس على أن تتعلم في الإسكندرية. وعقب إنهاء المفاوضات، وعقد الاتفاق مع ملك ميديا وجه أنطونيوس وجهه شطر الغرب، ولكي يعد عدته للحرب المستقبلة مع أكتافيوس أمر كانيديوس كراسوس أن يذهب على رأس قواته البرية إلى إفسوس، وكذلك أمر الفرسان الذين حصل عليهم من أرمينيا أن يلحقوا بهذه القوات، وطلب إلى حلفائه أن يرسلوا جندهم إلى إفسوس . أما عن

التفاصيل المتعلقة بالطريق الذي اتبعه أنطونيوس في عودته من هذه الرحلة، فليس من السهل معرفته؛إذ أن ترتيب الحوادث الزمنية التي ذكرها المؤرخون الأقدمون غير دقيق فبعض الحوادث مقدمة عند مؤرخين ومؤخرة عند آخرين ؛ وإذا كان أنطونيوس قد ذهب إلى إفسوس كما يزعم معظم المؤرخين، فلا بد أنه كان يتولى قيادة جنده بنفسه إلى هذا المكان. ولكن شيئا من ذلك لم يكن، إذ الواقع كما أشرنا يدل على أنه ترك مهمة القيادة إلى كراسوس. وإنه ليس من السهل التكهن بالسبب الذي من أجله أسرع إلى الإسكندرية، وخصوصاً أنه كان مضطرة لأن ينتظر حضور كليوباترة التي أرسل في طلبها . ويرى المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكلرك أن الحملة على ميديا لا يمكن أن تكون قد احتاجت إلى وقت طويل، إذ أن أنطونيوس كان يبغي من ورائها تحقيق أغراض سياسية فهد إتمام مهمته عاد مسرعة تاركا قيادة جنده لكراسوس وقد زوده بالأوامر لكي يزحف نحو بحر الأرخبيل، ولذا وجد لديه متسعة من الوقت لتوصيل يوتابى خطيبة الإسكندر إلى الإسكندرية [٤٢] . ومن ذلك إستنبط هذا المؤرخ الفرنسي ذلك السبب الوجيه لزيارته للإسكندرية في هذا الوقت قبل ذهابه إلى إفسوس، ومضى يسوق لتدعيم ذلك الإستنباط حجحة قيمة ولكنها غير حاسمة في الموضوع وغير مقنعة إقناعة تامة . وقد ذكر غيره من المؤرخين أن أنطونيوس ذهب رأسا من ميديا إلى إفسوس، وسواء اتبعنا هذا الرأي أم ذاك فإن الأمر متعلق بالتفاصيل البحته التي يتعذر الوصول إلى رأي حاسم فيها.

([٤٢]) بوشيه ليكارك، تاريخ اللاجيدين – البطالمة، جزء ثان ص ٢٨٧–٢٨١

ولقد ظهرت صورة أنطونيوس وكليوباترة معا على النقود التي سكت في وقت يحتمل أن يكون بعد تجمع الجند في إفسوس مباشرة، أي بعد سنة ٣٣ ق.م وكان سكها هذا تخليدا لذكرى فتح أرمينيا . وعلى هذه النقود سجل لقب كليوباترة الجديد " ملكة الملوك ". وإنه لمن الممكن أن نستنبط من هذه النقود التي تحمل صورتهما معاً أن أنطونيوس كان من قبل قد احتفل بزواجه بكليوباترة . ويشير بعض الكتاب الحديثين إلى أن مقدم السفينة الذي صور على ظهر هذه النقود تحت رأس كليوباترة ويثبت تلك المساعدة التي قدمتها لأنطونيوس وإعداد أسطول حربي، وأن هذه العملة قد سكت في عام ٣٢ ق.م ؛ ولكن لسوء الحظ لا تدل تلك العملة التي يعتمد عليها نفره من العلماء في إثبات دعواهم دلالة قطعية على تاريخ زواجهما . ويشير پلوتارخوس في هذا الخصوص إلى أن أنطونيوس بزواجه امرأتين في نفس الوقت قد فعل فعلة لم يقدم عليها روماني من قبل، كما يشير إلى أنه طرد زوجته الأولى الشرعية من بيته ثم اجترأ على ما هو أشد من ذلك وأنكى فطلقها كما يرضى امرأة أجنبية تزوجها متحديا بذلك قوانين الرومان وتقاليدهم ومشاعره[٤٣].

ولقد اتفق الكاتبان بوتروبوس (Eutropus) ويوسبيوس (Eusebius) مع پلوتارخوس في الرأي، فأثبتا أن أنطونيوس تزوج من كليوباترة، وطلق أخت أكتافيوس (repudiata Sorore Caesaris)، ولو جمعنا هذه الحقائق التي أتفق كل من پلوتارخوس ويوسابيوس ووتروبوس على صحته او أضفناها إلى تلك البينة التي تقدمها العملة المسكوكة لأمكننا أن

---

(٤٣) اوتارخوس، مقارنة بين دكتريوس وأنطونيوس ٤، ١

نسلم باحتمال حصول الزواج قبيل طلاق أكتافيا. وإذا جاز لنا أن نستنبطر أياً من كل هذه الاحتمالات لقلنا إن هذا الزواج قد تم في الجزء الأخير من عام ٣٣ ق . م أو في عام ٣٢ ق.م. وقد انبرى مورخان حديثان هما كرومابر وفريرو [٤٤] لإثبات دعواهما بحجج تقول بأن هذا الزواج قد تم في عام ٣٦ ق.م، ونحن نسلم بأنه ليس من الممكن أن نأمل في اتفاق كل المؤرخين فيما يتعلق بهذا الزواج النظرى ما لم تظهر براهين جديدة من المصادر القديمة تؤيد بدرجة لا تحتمل الشك والجدل كل ما يتصل بهذا الزواج وتاريخ عقده. ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن تقبل رأي فريرو وكرومابر لما في ذلك من تجاوز كثير للحقائق التاريخية وتسليم بأمور لا تؤيدها حجج دامغة مستندة إلى أسانيد قديمة صحيحة . وإن في عدم وجود إشارات إلى هذه الواقعة الهامة في كتابات المؤرخين الذين كانوا معاصرين لعهد كليوباترة وأنطونيوس وأكتافيوس لأمرا غريبا أشد الغرابة. وإذا كان أنطونيوس بعد عقده معاهدة تارنتوم السالفة الذكر سنة٣٩ق.م وتجديده الحكم الثلاثي لمدة خمس سنين أخرى، ترك زوجته وولديه ولم ينتظر ولو بضعة أشهر وأقدم على عقد زواج لا يقره القانون الروماني الجمعه بين زوجتين في وقت واحد، وهو في الوقت نفسه أمر لا يحتمله الرومان ولا يصبرون عليه، فن الغريب ألا توجد أية إشارة إلى هذا الزواج فيما دونه كتاب العصر الذهبي الأغسطى، وهم الذين كانوا معادين لأنطونيوس وكليوباترة أشد العداء، ويمثلون بوق الدعاية المسمومة ضدهما في عصر الأباطرة اليوليين – الكلوديين من

([٤٤]) كرومابر، مجلة (Hermes)، العددان ٢٩، ٣٣ ص ٣٦؛ وفريرو، جزء رابع ص ٦ –٨.

أول عهد أغسطس حتى نهاية حكم نيرون. وإنه لمن غير المعقول جدا أن يبقى أمر ذلك الزواج مرة مكتومة ؛ إذ أن خبر زواج مخالف للقانون الروماني، أقدم عليه ثاني اثنين كانا قابضين على زمام الأمور في الدولة الرومانية من الصعب إخفاؤه، وخصوصا أنه كان الأنطونيوس أعداء في الشام، وآخرون محايدون لا يمكن أن يغفلوا عن الإشارة إلى هذه الفضيحة . وفوق ذلك فإنه من غير المعقول أيضا أن يكون أكتافيوس – إذا كان قد وصل لعلمه خبر هذا الزواج قد سمح لأخته في سنة ٣٥ ق.م أعني بعد مضي سنة على هذا الزواج المزعوم، بزيارة زوجها العاق الذي تزوج منافستها.

وإذا كان أنطونيوس قد تجاسر بالإقدام على هذه الخطوة التي كان لابد ناتج عنها قطع العلاقات بينه وبين بني وطنه أدبية ومعنوية، فإن الحوادث حينئذ ما كانت تأخذ ذلك المجرى البطيء الذي أخذته بين وصول أنطونيوس إلى سوريا في صيف عام ٣٧ ق م ونشوب الحرب في أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ومن أجل كل هذه الأسباب نكتفي بالوصول إلى هذه النتيجة غير القاطعة بأن هذا الزواج حدث في سنة ٣٣ – ٣٢ ق.م وليس قبل ذلك بأربعة أعوام. وإذا حاولنا تعرف خطط أنطونيوس في هذه المرحلة إزاء كليوباترة فلا بد أن نقول: إنه ظن عند تحرج الظروف إلى هذا الحد أن المعركة لابد واقعة بينه وبين أكتافيوس عما قريب. وإنه لمن حسن السياسة أن يسوى مركزه ويقوى علاقته من الوجهة الشرعية بكل وباترة حتى يمكنه أن يكون ذا مركز قوى في الشرق . ولابد أنه كان يعلم حق العلم أن علاقته غير الشرعية بالمملكة وتوزيع الأقاليم الرومانية على

أولادها مثل هذا السخاء مذهب بشعور الرومان، ومثير لغضب الرأي العام في إيطاليا عليه . وموازنته بين هذين الأمرين رجح لديه أن زواجه بتلك الملكة الشرقية يكسبه قوة عظيمة.. ويعلى من شأن مركزه في الشرق، ويجعل كليوباترة تضع ثروتها العظيمة وكنوزها الكبيرة تحت تصرفه . وإنه في المعركة النهائية التي ستتخذ حتما شكل نزاع بين الشرق والغرب، يصبح أمرا طبيعيا أن يلف الشرق حول أنطونيوس كزوج الملكة شرقية، فتحالفهما إذا في هذه المرحلة كان أمرا طبيعية،.. وزواجهما كان ذا مغزى سياسى بقدر ما كان ناشئا عن أسباب غرامية.

وكان أنطونيوس في نظرها الخليفة الحقيقي لقيصر، الذي يمكنها أن تأتمنه، وتثق فيه، وتطمئن إلى أنه لن يخيب ظنها في الانتصار لقضية إبنها ضد أكتافيوس عدوهما المشترك، وكان من مصلحتهما المشتركة أن يتم التضامن على هذا النحو . أما موقف أنطونيوس عندما أمر بحشد قواته في افسوس، فكان قوية ثابت الأركان، وكان من الجلي لكل شرقى أن أنطونيوس كان يعمل بالاشتراك مع مصر، وكان على أتم وفاق وتحالف مع كليوباترة، كما أنه كان واضحة جلية أنها كانت زوجته الشرعية، وكان الجميع يعلمون أنه إذا كتب له النجاح في هذا النزاع فسيد خل روما دخول المنتصر الظافر وبجانبه الملكة، ولربما أعلن نفسه ملكا بالاشتراك مع كليوباترة، وأسس ملكا لأسرته من بعده على هذه الإمبراطورية المستقبلة، ولكن يظهر أنه في الوقت نفسه كان يفكر في تأسيس ملكية في روما، مع أنه كان يكثر من القول بأنه يود إعادة الجمهورية الرومانية إلى شأنها الأول . وحجته التي كان يدعم بها سياسته

أنه كان يقول إنه يحارب لتنفيذ رغبات الدكتاتور العظيم، وليخلص الرومان من حكم أكتافيوس الغاصب، وعلى ذلك أمكن أن تلتقي مصالح أنطونيوس وكليوباترة فأخرجا مشروعا مقبولا يأخذ بلب الجماهير، ويحقق آمال أعوانه من الرومان ومن الشرق.

وبينما كانا ينتظر أن حلول شهر يناير سنة ٣٢ ق.م وهو الميعاد الذي تنتهي فيه الحكومة الثلاثية وتسقط تلقائيا، لأن أحدا منهما لم يكن راغبا في تجديدها وبعده يبدأ العداء بشكل ظاهر جلي، قضى الزعيمان المتنافسان الوقت في تبادل رسائل الشتائم والتنديد، وعلى ذلك سبق إعلان الحرب النهائي تبادل هذه الرسائل المهينة بين هذين الصهرين، ولقد زادت الكراهية بين الإثنين، ووجد من الأسباب الكثيرة ما زاد نيرانها اضطر أما حتى أصبحت تتلظي، ولقد خلد لنا المؤرخ سويتونيوس (Suetonius) أقتباس من كتاب أنطونيوس ردا على كتاب كان قد بعثه إليه أكتافيوس في الشتاء السابق يشكو منه عدة أمور، وفي هذا الخطاب [٤٥] الشيء الكثير من غش القول فأشار أنطونيوس فيه إلى أكثر المسائل دقة بوضوح وجلاء عظيمين لا نظفر بمثلهما في غير اللغة اللاتينية . ولم يترفع عن أن يستعمل أحط العبارات والشتائم، فاه كتابه جامعة لكل سفساف ومبتذل وما الذي جعلك تتغير وتتقلب ؟ ألأني متصل بالملكة ؟ إنها زوجتي ! وهل علاقيها ابتدأت الآن أم مستمرة من منذ تسعة أعوام ؟ ولقد حاول العالم كروماير [٤٦] أن يستنتج من هذا الخطاب تاريخ بده

([٤٥]) سويتونيوس، حياة أغسطس، ٦٩

([٤٦]) كروماير في مجلة هرميز (Hermes)، العدد رقم ٣٣، ص ٣٧-٣٥

هذه المراسلات الخاصة، وتاريخ ذلك الخطاب الذي اقتبس منه سويتونيوس . ويظهر أنطونيوس في هذا الخطاب دهشته من اتهام أكتافيوس له بالتفريط، وتأنيبه له بسبب علاقته مع الملكة، وخصوصا أنها بدأت منذ تسع سنين . وإن بدء هذه العلاقة مع الملكة لا يمكن أن يكون قد حصل قبل ربيع عام ٤١ ق.م، فيكون العام التاسع ربيع عام ٣٣ ق.م ولا يمكن أن يكون قد تبودلت خطابات الهجاء بها قبل هذا التاريخ ؛ وهذا الخطاب الذي نحن بصدده الآن قد أرسل في الأيام الأولى من هذه المراسلات التي يمكن تعيين بدئها على وجه التقريب في شتاء عام ٣٤– ٢٣ ق م. ومما لا يحتاج إلى برهان أن هذه الرسائل الخاصة قد كتبت قبل تبادل المكاتبات الرسمية التي أعلن فيها كل منها اتهاماته للآخر، فكان أكتافيوس يندد في مجلس الشيوخ وأمام الشعب الروماني بسياسة أنطونيوس في الشرق، وكان أنطونيوس يجاوبه في رسائل عامة مبينة أن أكتافيوس أغفل زميله، ولم يوف بالوعد الذي قطعة على نفسه في عام ٣٧ ق.م، ولم يكن عادلا في تقسيم جميع الأراضي بايطاليا بين جنده وحده فلم يترك شبرة من الأرض لجند زميله أنطونيوس، ولقد أمه أكتافيوس باتهامه بأنه ألحق العار بالرومان لخداعه ملك أرمينيا في جملته على بلاده وأسره لأرتاواسديس بتلك الطريقة القاسية، وهو صديق وحليف للجمهورية الرومانية، كما اتهمه بامتلاكه مصر وأرمينيا بدون اقتسامهما مع زميله، وإعطائه نصيبه فيها، ولامه أشد اللوم على منحه ألقاب الشرف للملكة كليوباترة وأولادها وإهدائهم أقاليم رومانية، ولقد أبان له شديد استيائه من سوء تصرفه بانتصاره لقيصرون، وإعلانه

المطالبة بحقوقه في عرش أبيه قيصر فأنبه على إعلانه، واعترافه بينوة قيصرون الحقيقية من قيصر، وأنه الوارث الحقيقي، وذكر أنه بفعلته هذه أسماء إلى سمعة قصر العظيم في قبره[٤٧] .

ولقد سلك أنطونيوس نفس الخطة التي اتبعها قيصر مع زميله بمي في عام ٥٠ ق.م، فكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني مقترحة أن يعتزل سلطته على شريطة أن يجاوبه أكتافيوس بالمثل، وكانت هذه الخطة مجرد سياسة مديرة، يقصد بها كسب محبة الشعب الروماني، وأن يعيد إلى أذهان الرومان ذكرى أيام مى وقيصر عندما كانت تتخذ هذه الخطط وسائل لكسب ثقة الشعب . ولقد بين المؤرخ دو الدافع الذي حمل أنطونيوس على سلوك هذا السبيل، وهو اقتراحه اعتزال كل من الاثنين الحكم الثلاثي في الوقت نفسه، بأن أنطونيوس كان يقصد بذلك أن يجرد عدوه من كل أمل في تجديد قوته، وتجريده من سلطته في الوقت الذي سيستمر فيه أنطونيوس حافظة لمركزه في الشرق، متخذة من مصر وملكتها كليوباترة تكأة يستمد منها موارده، ويعتصم بها إذا ما تأزمت الأمور . على أنه في حالة رفض أكتافيوس إقتراح زميله سيجر عليه سخط الشعب الروماني[٤٨]، وبذلك تتاح لأنطونيوس الفرصة في أن يقف موقف المدافع عن حرية الشعب الروماني التي اعتدى عليها زميله، وتتهيأ له الأسباب التي تمكنه من أن يقضي على سلطة أكتافيوس الاستبدادية، فيصير سيد العالم الروماني بمفرده، ويحقق الكليوباترة أمانيها بالتبعية .

---

(٤٧) ديو،، ٢٠، ١، ٢ ؛ پلوتارخوس، حياة أنطونيوس، ٥٥، ٥٦.

(٤٨) ديو، ٤٩، ٤١، ٦

وزيادة على ذلك فإن قوات أنطونيوس التي تجمعت في إفسوس ستكسب مطلبه قوة، ولكن حساب أنطونيوس قد اخطأ إذ أجاب أكتافيوس بأنه يود من صميم قلبه أن يحضر أنطونيوس إلى روما، ويشترك معه في إعادة نظام الحكم الجمهوري، وفض الحكم الثلاثي، وكان يعلم حقا أن أنطونيوس لن يأبه لطلباته، وأن عدم اكتراثه هذا سيفيده في إظهار أنطونيوس للشعب الروماني بمظهر من ينقصه الإخلاص، وأنه كان في نياته وأغراضه هازلا غير جاد .

وفي الوقت نفسه الذي كانت تجرى فيه هذه المكاتبات، كان أنطونيوس يعد العدة ويدي الأسطول، وبجند الجند، وتجمع الأموال مظهراً أن كل ذلك لفرض آخر، وهو في الحقيقة يتأهب للحرب المقبلة [٤٩] . وكانت كليوباترة بالطبع ضالعة في كل هذا، وهي العياد الذي اتخذه أنطونيوس في برنامجه العدواني ضد روما . وفي يناير سنة **٣٢** ق.م استحكمت حلقات الأزمة، إذ انقضت مدة الحكومة الثلاثية، ولم يتقدم أحد منهما باقتراح تجديدها لمدة أخرى، وبدأ في أول يناير كل من القنصلين للعام الجديد وهما دو ميشيوس وسوسيوس من أتباع أنطونيوس، يباشران سلطتهما [٥٠] . ولما التأم عقد اجتماع مجلس الشيوخ الروماني تحت رئاستها بدأ سوسيوس سنته الرسمية خطبة رنانة، يؤيد فيها سياسة أنطونيوس، ويندد بسياسة أكتافيوس، ويصب عليه جام غضبه، وكان الأخير غائبا عن روما في ذلك الوقت، ويؤكد "ديو" أن

([٤٩]) ديو، ٥٠، ٢

([٥٠]) ديو، ٥٠، ٢

سوسيوس كان لا شك سيقدم اقتراحاً في غير مصلحة أكتافيوس، لولا أن عارض أحد زعماء الشعب ونقائه من الترابنة [٥١]. وعلى أثر ذلك عاد أكتافيوس مسرعاً إلى المدينة، ودعا مجلس الشيوخ للانعقاد، ولو أنه لم يكن ليلك هذا الحق من الوجهة القانونية، ولكنه ارتكن على مركزه وسمته العالية، ولذا تأكد أن دعوته ستجد آذاناً واعية فدخل روما ومعه جماعة من الجند ونفر من الأصدقاء الذين كانوا يحملون الخناجر في طيات ملابسهم . ولما اجتمع المجلس جلس أكتافيوس بين القناصل، ودافع عن نفسه بعبارات ملؤها التواضع المتصنع، ثم هاجم سوسيوس وأنطونيوس، وفند سياستهما، وذكر يوما معينا وعد أن يبرز فيه البراهين المؤيدة بالوثائق ليثيت صدق قوله . أما القنصلان فقد استولى على قلبيهما الرعب لعدم توقعها هذه الصدمة، فلمحركا ساكنة للدفاع عن أنطونيوس، إذ كانا بوصفهما قنصلين داخل حوائط روما لا يملكان قوة عسكرية يستندان إليها، في حين أن أكتافيوس كان تحت سلطانه كل الجيوش بايطاليا، وفضلا عن ذلك فإنهما انا بعيدين كل البعد عن حليفهما المسلح، ولما شعرا بضعف مركز هما وعجزا عن أن يجدا لأنفسهما مخرجا من هذا المأزق تحاشيا الاصطدام مع أكتافيوس وكانا يشعران أن هذا لابد واقع ما داما بروما، فانسلا في الخفاء من المدينة قبل اليوم الذي ضربه أكتافيوس موعدا لإبراز ما لديه من بينة وأسرا للحاق بحاميهما وولى نعمتهما في الشرق وتبعهما عدد من أعضاء مجلس الشيوخ يبلغ ثلثمائة كانت تحوم شبهة كتافيوس نحوهم أو كان

---

(٥١) ديو، ٥٠، ٢ ؛ بوشيه ليكلرك، تاريخ اللاجيدين، البطالمة، جزء ثان ٢٨٥

لديهم من الأسباب ما جعلهم يخافون بطش أكتافيوس . ولما علم أكتافيوس برحيل أعضاء مجلس الشيوخ لم يدر كيف يعالج الموقف، وأعلن أنه منح الفارين ألإذن بالرحيل وأنه مستعد للسماح بالخروج لكل من يفضله .

وفي ربيع عام ٣٢ ق.م وصل أعضاء مجلس الشيوخ الفارين إلى إفسوس كه ولكن مجرد وصولهم بدأ القلق يدب في المعسكر ؛ إذ دهشوا لوجود كليوباترة في المدينة، وخصوصا أنها كانت تتمتع بنصيب كبير من القوة والسلطة أثار سخطهم، وأذهلتهم هذه الحال التي تدينوها بأنفسهم عند حضورهم . ولقد تعذر عليهم أن يدركوا كيف تكون ملكة مصر بخيلها ورجلها وأموالها التي كانت تقدمها عن سعة الصرف على ما يجري من الحوادث، تهمها حرب يدعي أنصارها، إن صدقة وإن كذبة، أنها لإعادة النظام الجمهورى في روما . وبعد أن تبينوا غوامض الأمور، أدرك كثير منهم في وقت قصير أن أنطونيوس وهو الحاكم المستبد "الأوتوقراطي" بالشرق وزوج كليوباترة لم يكن يرجى أن يتم على يديه إعادة الحكومة الجمهورية في روما . ولقد أصر دوميشيوس أهينو باربوس على عدم الاعتراف لكليوباترة بحقها في السلطة والسطوة التي بلغتها، ولم يقبل أن ينطق بألقاب الشرف عند مخاطبتها، بل كان على الدوام يناديها باسمها المجرد ونصح لأنطونيوس أن يرسلها إلى مصر[٥٢] ؛ وأوشك أنطونيوس أن يقبل النصيحة التي قدمها له دو ميشيوس، وبعض أعضاء " السناتو " البارزين وكاد يبعدها عن المعسكر ويأمرها بالعودة إلى

(٥٢) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، ٥٦؛ فيتيوس (Velleius)، ٢، ٨٤

مصر، ولكن لم يكن من طبع ككليوباترة التردد في الوقت الذي كانت تشعر فيه أن نفوذها في خطر، وكان من حسن حظها أن بجانبها موردة ومعينة من المال لا ينضب ولا يعجز عن أن يوجد لها كما أوجد الأبيها من قبل المحامين الذين يدافعون عنهما، إذ قيل إنها قد رشت شخصا يدعى بوبليوس كانيدوس (Publius Canidius) لكي يدافع عن وجهة نظرها وأبان لأنطونيوس أن الأسطول المصري يبذل أقصى الجهود، ويتفاني في الحرب إلى أبعد مدى إذا كان تحت ظل ملكته، وبين لأنطونيوس أنها قدمت مساعدات عظيمة في سبيل تهيئة الجيوش والقوات التي لزمت لهذه الحرب [٥٣]. وبمثل هذه البراهين ساد الرأي المناصر لها، وسقط رأى دوميشيوس، وبقيت الملكة مع أنطونيوس . وهنا يجب أن نسجل على أنطونيوس ارتكابه خطأ عظيما با بقائه الملكة معه في المعسكر، فقد أدى هذا إلى سلسلة أخطاء أخرى وقع فيها . إذ أن وجود كليوباترة في إفسوس، وتدخلها في شئون الحرب، وتصريف ما يتصل بها من أمور كانت من صميم اختصاص قادة الرومان، كان سببا في انقضاض كثير من أعضاء الشيوخ من حول أنطونيوس بعد أن كانوا مؤيدين له حتى هذه المرحلة . وبدءوا ينقسمون إلى شعبتين متميز تين، ففريق يريد الحرب ويؤيد أنطونيوس في كل مشروعاته، في حين أن الفريق الآخر يروم السلم حتى ولو كان ذلك على حساب كليوباترة، ولا يتردد الفريق الأخير في تقديم كليوباترة فداء بأي ثمن كان ولو كان بخسة، ولكنها أجريت رايها على أن تضطر أنطونيوس أن يقدم على أمر يجعل

(٥٣) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، ٥٦، ٢

استمرار السلام بينه وبين أكتافيوس مستحيلا، فلم تدخر وسعة في استعمال كل ما أوتيت من قوة وحيلة في التأثير في زوجها، وإغرائه بأن يطلق أكتافيا . وهذه تكون لطمة كبيرة لأكتافيوس لا ينفع في محو أثرها إعتذار، وبذا تجعل الصلح أمرا مستحيلا. وكان موضوع الطلاق مشكلة تضاربت بصددها الأراء بين الجانبين الروماني والمصري، ولقد كسبت الملكة لصفها بفضل الأصفر الرنان بعض الرومان الذين لم يترفعوا عن أن يقبلوا مالها، وهؤلاء كانوا قوة في جانبها، انتفعت بنفوذه في التأثير في أنطونيوس ليقدم على هذه الخطوة الجريئة . وكان أكثر الجانب الروماني في صف أكتافيا يعارض فكرة طلاقها ويبين أنه لو حصل الأوجد من الخلاف هوة سحيقة لا تسد. ولما أن أزمت أنطونيوس كل هذه النصائح المتضاربة، صمم أن يؤجل البت في هذا الأمر الفرصة أخرى وتقدم إلى الغرب فعبر البحر إلى بلاد اليونان، تاركا جزءاً من جيشه في آسيا الصغرى . وعندما وصل إلى أثينا بلغه نبأ خطبة ألقاها أكتافيوس في مجلس الشيوخ الروماني[٥٤]، ولكن لم يصل إلى أيدينا فحواها . وكل ما فعله عنها أنها أثارت أنطونيوس، واستفزته لدرجة جعلته يصمم على أن يعلن عن خطته في غير تورية ولا مداراة، فمع مجلس من أعضاء الشيوخ الذين كانوا معه، وعرض الأمر عليهم، وبعد حوار طويل مع من كانوا يرومون الصلح وإصلاح ذات البين، والذين كانوا يعتقدون أن الطلاق لابد مؤد إلى إعلان الحرب وبين من أخذ ب هم مال كليوباترة، ومالوا إليها كل الميل، وصاروا بيرون بمنظارها – بعد ذلك

---

(٥٤) ديو، ٥٠، ٣، ٢

الحوار صمم أنطونيوس على الحرب، وقطع العلاقة بينه وبين أكتافيا بطلاقها فأمضى خطاب طلاقها وأرسل رسلا من قبله لروما، يخلونها بالأمر، ويطلبون إليها أن ترحل عن منزله(٥٥) ؛ وفي الوقت نفسه أمر جنده المعسكرين بإفسوس أن يبحروا إلى بلاد اليونان، وكان هذا بمثابة إعلان الحرب، وقطع نهائي للعلاقات بينه وبين أكتافيوس . ولقد كان في مسلكه هذا هزيمة للحزب الروماني، وانتصار لكليوباترة التي شمخت بأنفها تيها وجا بنفسها، وفرحة بفوزها المبين. وإن الإنسان ليري يدها تحرك دقة الأمور من وراء ستار، ولا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يبرمها من تحريض أنطونيوس على اتخاذه هذا المسلك إذ أنها كانت هي الوحيدة التي استفادت من قطع العلاقات . فإنه مادام لأنطونيوس زوجة شرعية بجانب كليوباترة كان من المستحيل على اليونان والرومان أن ينظروا إليها أكثر من أنها حظيته، فطلاق كتافيا إذا كان يقصد به تسوية حالتها وتثبيت مكانتها بجعلها زوجة شرعية . ولكن هذه المعاملة القاسية الأكتافيا، تلك السيدة التي كسبت قلوب الناس إليها بطبعها الهادىء وإخلاصها لزوجها العاق، قد صرفت من حول أنطونيوسن عددا كبيرا من المؤيدين له الذين لم يصعب عليهم أن يروا في هذ التصرف برهان قاطعة على تعلقه الشديد، ووقوعه التام تحت نفوذ وسلطان تلك الملكة المصرية. ولم ينس أكتافيوس أن يتخذ من طلاق أنطونيوس لأكتافيا سلاحة ماضية في المعركة السياسية بينهما، فأهاب بالرومان ألا يتأخروا

---

(٥٥) ديو، ٥٠، ٣، ٢ ؛ بلوتارخوس، حياة أنطونيوس ٥٧؛ مختصر ليفي ١٣٢؛ بوتربيوس، ٧،٦؛ أوروسيوس ٦، ١٩، ٤

عن إظهار سخطهم ضد الأجانب الذين من أجلهم طلق أنطونيوس زوجته الشرعية ، فكأنما قدم له أنطونيوس السلاح الماضي الذي هـ يمكن عدوه من التأثير في عقول أتباعه، وإثارة ثائرتهم ضد الأجانب، أعداء روما، وسبب أزمتها ومحنتها الحالية ؛ فانساقت الجموع إليه ونفث فيهم روح العداء ضد خصمه ليصبوا عليه جام غضبهم .

كليوباترة وقيصرون، في وصية أنطونيوس

وفي هذه المرحلة وقعت واقعة كان لها أثرها في الخلاف المحتدم، وذلك أن تيتيوس (Titius) وبلانكوس (Plancue) وهما من رجال حزب أنطونيوس البارزين، وكانا يكرهان الملكة لأسباب شخصية، ويكيدان لها كل الكيد، ويعملان على عرقلة أطماعها وسياستها، هجرا حزبه وأنضما الأكتافيوس، ولقد كانا متصلين اتصالا وثيقا بأنطونيوس، وعلى علم تام بكل أسراره ونياته، وكانا شاهدى عدل حضرا كتابة أنطونيوس وصدته التي أودع صورة مها بمعبد الإلهة فستا Vesta) بروما ؛ ولكي يكيدا لأنطونيوس أخيرا أكتافيوس بما تحتويه هذه الوصية، فطلب إلى العذاري حارسات معبد الإلهة أن يسلينه الوصية، ولكنهن رفضن، وعلى ذلك أسرع إلى المعبد واستولى على الوصية بالقوة، وجمع مجلس الشيوخ، وأطلعه أولا على محتوياتها، وبعد ذلك أطلع الشعب الروماني المجتمع في سوق المدينة (الفورم) عليها . وكان أنطونيوس يصرح في هذه الوصية الأخيرة والوثيقة الفذة أن يوليوس قصر هو والد قيصرون، وأنه يترك بعد موته إرثا عظيما وأراضى كثيرة هبة منه لقيصرون ولأبناء كليوباترة الآخرين، وكان يطلب في هذه الوصية أنه في حالة وفاته في روما يحتفل بجثته في

الفورم، ثم تحمل بعد ذلك باحتفال رسمى مهيب إلى الإسكندرية حيث تدفن بجوار كليوباترة [٥٦] . ولقد استفاد أكتافيوس فائدة جليلة من تصريح أنطونيوس الخاص بأمر دفنه، فألهب عقول الرومان ولوح به أمام أعينهم ليكون برهان حسية قدمه أنطونيوس بخط يده يتبرأ فيه من الشعب الروماني حتى بعد مماته . ويشك العالم الكبير رستو فنزف في صحة هذه الوصية، ويحد من الصعوبة بمكان، أن تصدق صحة هذه الوثيقة ما لم نسلم بأن أنطونيوس كان في الواقع قد فقد صوابه، واعتراه الخبل [٥٧] . وفي البرهنة على صحة ذلك الرأي وللدفاع عن نظريته مضى ذلك المؤرخ يقول : إني لا أستطيع أن أتصور هذه الوصية المنسوبة إلى أنطونيوس إلا مزورة أخرجتها بنات أفكار أكتافيوس أغسطس وموناتيوس بلانكوس وتيتيوس، الصديقين القديمين لأنطونيوس، وليس بعجيب على أكتافيوس أن يلجأ إلى تزوير وثيقة لا يمكن تغير مجنون أن يرسلها إلى روما لتحفظ. في معبد الإلهة شستا ... وإذا فرضنا أن أنطونيوس أحتج على جرأة أكتافيوس هذه فإن هذه الاحتجاجات لابد أن يكون قد ضرب بها عرض الحائط، ولم يقم لها الناس وزنا، ثم ما لبست هذا الصوت الخافت أن ضاع وسط الحرب ومجيجها. وإنه لمن المسلم به أن هذه الوصية كانت ذات فائدة عظيمة لأكتافيوس الذي لابد أنه قد اعتمد عليها في إثارة شعور الرومان في وجه عدويه :

([٥٦]) فيسيوس، ٢، ٨٣، ١–٢؛ پلوتارخوس، حياة أنطونيوس، ٥٨،٢؛ سويتونيوس، حياة أغسطس، ١٧ ؛ ديو، ٥٠، ٣، ٢–٥

([٥٧]) رستوقرف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، الفصل الأول ص ٥٦ ثم هامش رقم ٢٤ من الجزء الثاني، ترجمة زكي على ومحمد سليم سالم.

أنطونيوس وكليوباترة . وهذا ما يبرر الدرجة عظيمة احتمال صحة رأى العالم رستو تزف في إحاطة أمر هذه الوثيقة بسياج من الشك، ولكننا إذا خصنا الأمر وصرفناه على وجوهه المختلفة نجد أن هذا الشك الذي أثاره العالم الروسي لا يقوم على دعائم قوية، وبراهين قاطعة – ويفتقر إلى كثير من الحجج القوية التي تثبته، هذا مع أن رأيه الذي بسطه يبدو بادئ الأمر خلابة يأخذ بلب سامعيه لأول وهلة. وها نحن أولاء نسوق هذه الاعتراضات التي تدحض رأى العالم الروسي وتثبت صحة هذه الوثيقة، وأنها من مخلفات أنطونيوس، فإننا إذا فسنا محتويات تلك الوثيقة المشكوك فيها في زعم رستوفتزف، وجدنا أن ما جاء بها عبارة عن تكرار لما سبق أن أرسله أنطونيوس في رسائله المجلس الشيوخ للتصديق عليه في عام ٣٤ – ٣٣ ق.م. وإذا استثنينا العبارة الخاصة بتعليمات أنطونيوس إزاء دفنه، فإن الوصية في جوهرها عبارة عن هذه الرسائل التي أرسلت لروما قبل انفضاض كل من بلانكوس وتيتيوس من حوله، وتسللهما إلى معسكر عدوه ؛ ولا يمكن أن تكون هذه العبارة التي جاءت بالوصية خاصة بدفنه مثيرة لسخط الرومان عليه بقدر ما كانت تثيرهم الهبات العظيمة التي أسبغها على أبناء كليوباترة . ولم يكن أمر هذه الحيات سرا مكنونا أخفاه أنطونيوس، بل إنه أمر وكلاءه أن يعلنوا هذه الرسائل على مسامع مجلس الشيوخ في روما، ويرجع الفضل لحكمة هؤلاء الوكلاء. في أن هذه التدبيرات التي أتاها أنطونيوس طويت في زوايا الكتمان . وفوق ذلك إذا سلمنا جدلا بأن أكتافيوس وبلانكوس وتيتيوس قد دروا هذه المكيدة لأنطونيوس، وأخفوا معالم الوصية

الحقيقية وزوروا أخرى، فإن حارسات معبد الإلهة "فستا"، حيث كانت الوثيقة الحقيقية في حوزتهن، لم يكن ليسكن على ذلك، بل كن يبادرن بالكشف عن كنه الأمور وإعلان أن الوصية مزورة. وعلى ضوء هذه الحقائق تتجاب الشكوك التي أثارها العالم رستو فتزف، ومنها زعمه أن الوصية مزورة، وتكون النتيجة الحتمية التي يمكن استخلاصها أنه لا يصح تسرب الشك في صدق هذه الوصية، وأنها من صنع يد أنطونيوس، وأن كليوباترة هي المدبرة لكل هذه الخطط وصاحبة المصلحة الأولى فيها .

وإن الاستيلاء على هذه الوصية وإعلان محتوياتها كان عملا سياسية موفقة من جانب أكتافيوس، فعم السخط روما وثار الناس وصبوا اللعنات على أنطونيوس الذي جالت بخاطره أطباع غير رومانية، وسلك مسلك لا يليق بروماني، وبلغ غضبهم درجة جعلتهم يسارعون إلى تصديق كل ما كانت تلوكه ألسنة الناس من الحكايات عنه . وتواترت على ألسنة الناس القصص والروايات عن مساكه، وقابلها الناس بالتصديق، لا يفرقون بين معقول وغير معقول، وبلغ الأمر أن كان بعض هذه الحكايات بغيضآ مبتذلا، به من خش القول الشيء الكثير عن بلاط الإسكندرية، ومسلا انطونيوس وكليوباترة .

وكانت التهم تكال جزافاً للملكة كليوباترة التي قيل إنها كانت مسيطرة سيطرة تامة على أنطونيوس، مستعملة في ذلك مشروبات سحرية أعدها السحرة لتدسها لأنطونيوس حتى إذا ما شربها تملكه حبها وأعماه عن أن يرى بغير ناظرها . وكان من بين الحكايات التي أشيعت عنها

وتناقلتها الألسن أنها كانت تطمع في القضاء على الكابيتول وإخضاع روما لتكون تابعة لمصر ونقل عاصمة العالم الروماني إلى الإسكندرية [٥٨]. ولقد انتشرت هذه الرواية بعد أن أدخل عليها ما كان يزاد على مثيلاتها من التلفيقات والتغييرات بما يتفق مع هوى خصوم أنطونيوس وما يصادف قبولا حسنا من لدنهم [٥٩] . ولقد وصف المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكلرك هذا الموقف بقوله : إن روما قد وهبت مهرآ لكليوباترة . وبذلك أصبحت تابعة لهذه الأجنبية إذ قدمها أحد أبنائها وحماتها نحلة – عطاء – ليغي – محظية قد أكرمت مثواه وآثرته على غيره وأسبغت عليه من الفضل ما ألهج لسانه بالحمد والثناء – لقد طمعت مصر أن تتحكم في روما وتملى إرادتها على من بالكابيتول، غير آبهة بذكرى أجدادهم العظماء وساخرة من الضعف والجبن اللذين استوليا على قلوب جيل ذلك العصر – ألم يكن كل هذا كافية لكي يوقظ عزة النفس والرغبة في الذود عن البلاد في نفس ذلك الشعب القوى القاهر ويثير الحماسة – الوطنية في نفس أقل الرومان ميلا للتضحية، والذود عن الأوطان ! [٦٠]

ولقد استولى الهلع والرعب على نفوس أصدقاء أنطونيوس بروما، وهالتهم تلك الحملات الشعراء التي كانت تكيلها كثرة الجمهور الروماني الأنطونيوس كيلا بلا حساب، ومضوا يحاولون أن يخففوا من غلواء القوم

---

(٥٨) ديو، ٥٠، ٤، ٥

(٥٩) هوراس، الأنشودة الأولى، ٣٧، ٦ – ١٢؛ بروبرتيوس ٣، ٢، ٣١ – ٢ ؛ – فلوروس ٢، ٢١، ٢ ؛ يوتروبيوس ٧، ٧. على أن فريرو، الجزء الرابع ص ٦٨، انبرى للدفاع عن كليوباترة بقوله " إنها في الحقيقة لم يخطر لها على بال أحد تلك الأطماع التي نسبها إليها خصومها في روما".

(٦٠) بوشيه ليكلرك، تاريخ اللاجيديين – البطالمة جزء ثان ص ٢٩٣.

تعداد مناقبه، والتقليل من ذلك الأثر السيئ الذي أحدثه نشر الوصية ومحتوياتها معللين النفوس بالآمال بأن يكسبوا لأنطونيوس بضعة آحاد وأن يوجدوا ثلية في تلك الجبهة القوية التي تكونت في روما ضده من الساخطين عليه، والمنادين بالويل والثبور وعظائم الأمور للذان الخاسر عدو وطنه وصديق عدوة روما، التي قدمها قربانا لمحظيته بأبخس الأثمان فكان هذا هو الخسران المبين – ولقد أرسلوا له جيمينيوس (Geminius) ليحذره عاقبة أفعاله وليرجوه ألا يرتكب من الأغلاط حمقه وسوء فعاله ما يسبب له خسارة قضيته . ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر أنطونيوس بأثينا ظمه القوم صنيعة أكتافيوس ورسوله الأمين، وأعرضوا عنه، ولم يكرم أنطونيوس وكليوباترة وفادته، وبالغا في الإعراض عنه وإهماله حتى شعر الرسول أنه زج بنفسه في مأزق لا يجدي ولا يفيد، اول التخلص منه بأسرع ما يمكن . وقد سأله أنطونيوس مرة عند تناول العشاء، عن حاجته التي أتى ليقضيها في أثينا فقال له إنه يفضل أن يقي الجواب عن ذلك إلى فرصة أخرى يسودها التعقل والرزانة، ولكنه لا يتردد في أن يذكر أمرا واحدا في هذه الساعة وهو أنه يضمن الفوز لقضيته إذا أعيدت الملكة إلى مصر، فغضب أنطونيوس لقوله هذا وأجابته كليوباترة على الفور ولقد أحسنت صنعا باجيمينيوس بافشاء سرك وإعلان الغاية من حضورك بدون أن نضطر التعذيك [٦١].. ولما وجد أن مهمته فاشلة لا محالة، انسل من أثينا بعد أن أقام بضعة أيام وعاد أدراجه

(٦١) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس ٥٨ – ٥٩ ؛ بوشيه ليكلرك . تاريخ اللاجيدبين – البطالمة، جزء ثان ص ٢٩٤.

مسرعة إلى روما . وإن رسالته هذه لتظهر بأجلى وضوح أن عددا كبيرا من الرومان كان ينظر إلى كليوباترة على أنها السبب في كل هذه المصائب، وأنه حتى في هذه المرحلة لم تكن إزالة الخلاف، وإعادة المياه إلى مجاريها من الصفاء وحسن التفاهم بالأمر العضال، إذا قدر لأنطونيوس أن يجد في نفسه من الشجاعة والجرأة ما يكفي للإقدام على تسريع كليوباترة إلى مصر، فقد كان الكثيرون من أتباع أنطونيوس والمؤيدين له يؤمنون بأنه كان من الضروري لضمان النصر في المعركة القادمة أن يوحد أنطونيوس ولو مؤقت عن كليوباترة، وأن الأفضل ألا توجد على مقربة من ميدان الحرب . ولكن مسلك الملكة كان في ذلك الوقت سدية من الأسباب التي جعلت اليأس يستولي على قلوب كثيرين من أصدقاء أنطونيوس فانفضوا من حوله، وولوا وجوههم شطر أكتافيوس .

وفي نفس الوقت كان أكتافيوس يعمل على نشر القصص عن عدويه: أنطونيوس وكليوباترة، وكانت غايته القصوى من ذلك هتك أسرارهما والتشنيع عليها، وإعداد الرأي العام بإشعال نيران الوطنية التي كانت تتأجج في صدر كل واحد لأخذ القسم العظيم (Conjuratio) بالإخلاص التام والولاء له حتى يصيب الغاية . ولما تم له ما أراد، وأصبح الرأي العام في روما وإيطاليا مستعدة لقبول ما يملى عليه، فكر في كسب مساعدة الولايات الرومانية الغربية، وصيغ مشروعه هذا بصيغة وطنية حماسية حتى نال ولاءهم، وأخذ عليهم العهد الذي أخذه على سائر الرومان في الغرب، ولم يفته أن يسجل ذلك الحادث في آثر أنقرة المشهور (Monumentum Aneyranum) وهو سجل الحياة الرسمية

الذي كتبه بنفسه أكتافيوس، إمبراطور الدولة الرومانية الأول، وبذا أتاح للعالم فرصة الاطلاع على رأيه الشخصي في يمين الطاعة هذه التي أقسمها له الغرب، وهاهو ذا كلامه عن هذه اليمين، مترجماً عن الأصل اللاتيني "لقد أقسمت لي إيطاليا بأسرها يمين الطاعة، طيبة النفس في قسمها، مدفوعة برغبة قلبية، وعينتني قائداً في الحرب التي انتصرت فيها باكتيوم، ولقد اشتركت في هذا القسم بلاد الفالة وأسبانيا وأفريقيا وصقلية وسردينية [٦٢]. ويظهر أن أكتافيوس – كما يدل صريح عبارته التي وردت بتلك الوثيقة – أراد أن يوهم العالم ويلقي في قلوب الناس أن الحرب فرضت عليه فرضا، ولم تكن من صنع يده وتدبيره، ويرفض بعض المؤرخين تصديق خلاء الزعم الذي يجعل أكتافيوس آلة صماء في يد الجماعات الإيطالية التي اختارته زعيمها وقائدها بذلك القسم الذي يحاول هو وأولياؤه أن يلقوا في روع الناس أنه لم يكن نتيجة مؤثرات خارجية، بل أتى إثر حماسة وطنية وأنفعال نفساني . ويوجد بعض المؤرخين الحديثين الذين يخالفون هؤلاء في الرأي، ويجدون في هذا القسم إعلاناً عاماً للولاء والطاعة ويقبلونه على أنه نتيجة طبيعية حتمية لتلك الحماسة العامة التي انبثقت وتجلت بأظهر معانيها في نفوس القوم المؤيدين لأكتافيوس والمعارضين لأنطونيوس وسياسته التي كانت تنطوي على الخيانة العظمى لبلاده. ولكن ليس لدينا الأدلة القاطعة التي تثبت أحد الرأيين بطريقة لا تقبل الشك . ومهما يكن التفسير الذي يسوقه المؤرخون لتوضيح أمر ذلك القسم، وسواء أكانوا ينسبونه للحوادث التي

([٦٢]) أثر أنقرة، الفصل الخامس، ٣ – ٦ عن الأصل اللاتيني واليوناني المنشور في طبعة (Cage)

وقعت في ربيع عام ٢٢ أم خريفه، فإنه من الصعب علينا أن نفهم مظهرين غريبين وهما إجماع الإيطاليين وتطوعهم لهذا القسم . ومن حيث أن البراهين التي يسوقها المؤرخون غير كافية وحججهم غير قطعية، فإن هذه النقاط ستبقي على الدوام غامضة وسر مكنونة لا نصل إلى كنهه إلا إذا لجأنا إلى الحدس والتخمين .

وبعد ذلك بقليل أعلن أكتافيوس الحرب رسميا ولكن لم يعلنها على أنطونيوس، بل على كليوباترة التي اعتبرها عدوة (hostig) للرومان . ويقول ودو في تفسير ذلك أنه كان المعروف أن أنطونيوس لن يتنكر لكليوباترة، وإنما ينوي أن يحارب دفاعا عنها، وبذلك يقدم أنطونيوس بنفسه دليلا آخر على عدم وفائه لوطنه وخيانته لبلاده وتخليه عن رومانيته [٦٣]. ثم تبع ذلك إعلان أكتافيوس أن أنطونيوس أصبح مجردة من ألقابه ورتبه، فلي يعد شريكا في الحكم الثلاثي، ولم يسمح له بأن يشغل وظيفة القنصلية التي كان مقدر له أن يشغلها لعام ٣١ ق.م ولكن أكتافيوس لم يقدم على الخطوة التالية وهي أن يعلن أن أنطونيوس وأنصاره أعداء للدولة الرومانية، وأن يهدر دمهم، ولربما رغب أكتافيوس أن يتظاهر للعالم أجمع بأن الحرب الأهلية قد انتهت فعلا بإعلانه ذلك بعد انتصاره على سكستوس يمي . ويعلل بعض المؤرخين هذا الإهمال من جانب أكتافيوس لأنطونيوس وعدم إعلان الحرب عليه بأنه كان معروفا أن أنطونيوس أن يترك كليوباترة في مهب الريح على هذا النحو تلقي وحدها الصدمات من جانب أكتافيوس، بل سينتصر لها ويحارب

---

(٦٣) ديو، ٥٠، ٦، ١

في صفها، وبذا يكون قد قدم سلاحة ماضية في أيدي أعدائه يحاربونه به ويشهرونه في وجهه، ذلك هو محاربته وطنه وبلاده من أجل ملكة أجنبية. وإنه لمن الجائز أن أكتافيوس باتخاذه هذا السبيل لم يشأ أن يغضب أتباع أنطونيوس وأنصاره، ويثير سخطهم لحد بعيد وبذا مهد لهم السبيل ليعودوا إلى حظيرة بلاده وينفضوا من حول زعيمهم وبطلهم أنطونيوس بدون أن يلحق بهم أي ضرر أو ينزل بهم أي عقاب . وبإهمال أنطونيوس إلى هذا الحد الكبير، وبتحاشي ذكر اسمه وإعلان الحرب على كليوباترة، أظهر أكتافيوس إحتقاره لشأن أنطونيوس . ولكي يتم إعلان الحرب رسمية لبس لباس الكاهن، وقد تبعه أعضاء مجلس الشيوخ وفقا للعادة الرومانية التي توجب على القائد أن يلبس لباس الكهنوت ويذهب إلى معيد إله الحرب، مارس (Mars)، حيث يؤدى الواجبات المرعية في مثل هذه الأحوال، ويرمي السهم إعلانا بأن روما في حالة حرب مع عدو أجنبي. وقيل في الذريعة التي تذرع بها في إعلان الحرب في ذلك المعبد إن كليوباترة إدعت ملكية أقاليم، فتحها الرومان وملكوها . وبذا انصب جام غضب روما كلها على كليوباترة وسيرت جيوشها وقواتها ضد هذه الملكة، ولم ينته عام ٣٢ ق.م إلا وكان زعيما الشرق والغرب قد أعدا عدتهم أو سيرًا جيوشهما بعضها ضد بعض . وكان كل من الطرفين يطمع في أن تكون له الغلبة والسيطرة النهائية على العالم الروماني بأسره.

الفصل السادس

النزع الأخير

الشرق والغرب وجهاً لوجه

وهكذا تهيأت كل الظروف والملابسات لإثارة العداوة المتأصلة بين الشرق والغرب من جديد، وسار جيش من الشرقيين لا تجمعه جنسية واحدة القتال الغرب، فاستولى على نفوس الغربيين ذعر شديد، وهلع كبير، من جراء زحف الشرقيين عليهم وتهديدهم بغزو بلاده. ولكن كان من سوء حظ أنطونيوس أن الرومان لم ينظروا إليه نظره إلى أحد القواد الرومان، بل رأوا فيه قائدة أجنبية، لا يمت إليهم بصلة، تولى قيادة الشرقيين والدفاع عن قضيتهم وقضية كليوباترة بالذات في الهجوم على دولة الرومان في الغرب وناصب أكتافيوس الذي تولى الدفاع عنهم، العداء، فأجمعوا أمرهم للانتقام من ابن روما العاق وعدوها اللدود الذي احتضن الشرق وألبه على الغرب وتنكر لوطنه وبلاده وبني جنسه فلت عليه نقمتهم أجمعين.

وكان تقدم الجيوش من كل من الشرق والغرب حادثة ذا خطر، إذ كان الناس في جميع أنحاء الإمبراطورية من الفرات إلى أسبانيا غربة يتساءلون عن نتيجة الحرب التي يتوقف عليها ما ل حكم العالم القديم، وكان أنطونيوس قد أخذ بعض أسباب النجاح، وكان من الجلي أنه إن

كتب له النصر دخل روما وملكة مصر إلى جانبه دخول المنتصر الظافر، فأذلها، وترك العنان لكليوباترة تنتقم من أعدائها انتقاماً صارماً ؛ ولكن ليس من السهل أن نحكم بأن الغرب كان يقبل طوعا أو كرها مثل تلك الحال دائمة أو إلى أمد قصير أو طويل. وإذا قدر على أنطونيوس الفشل في حملته فسيواصل أكتافيوس السير ويستحوذ على شرق البحر المتوسط . ولربما تسرب الظن إلى أنطونيوس أنه ليس في مقدور أكتافيوس في حالة نجاحه وانتصاره أن يصل إلى كل هذه النتائج، ويمكن القول بأن أنطونيوس قد فكر في حالة هزيمته أن يقتصر على حكم الشرق الإغريقي ثم يترك الغرب وشأنه . وإنه ليمكن الظن أن أنطونيوس قد اتخذ عدته واهبته لحالة ريما نجمت إذا تحقق هذا الاحتمال وصدقت النبوءة . ومما يقوي هذا الظن عندنا أن انطونيوس قد رضى الشرق اله مقامة، واتخذ مطامحه له آمالا، واصطبغ بعاداته وتقاليده وزيه وكل خصائصه، وفوق ذلك فإن الحوادث التي وقعت بعد ذلك دلت على أن أنطونيوس كان متخذة الشرق قاعدة له في فتوحه وتقدمه وموئلا أخيرا في حالة ما إذا مبنى بالفشل .وعندئذ يعود القهقرى إلى الشرق ويتخذ مصر مركزا رئيسية له، ويؤسس له فيه أسرة تحكمه – وبذلك يترك إيطاليا والأقاليم الغربية وشأنها يحكمها أكتافيوس ويكون أنطونيوس قد خلف لعدوه مهمة شاقة وعسيرة وهي اضطراره الزحف على الشرق، ومحاربة أنطونيوس فيه إذا ما جال خاطره أن يوحد العالم الروماني، ويل شعثه من جديد في قبضة يده . ولربما كان في ذلك الحل الأخير الذي جال بخاطر أنطونيوس ورسمه لنفسه، والذي كان يقضي بفصل جسم

الإمبراطورية الرومانية إلى شقين متباينين: الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية، أمنية صادفت هوى في نفس كليوباترة، وكان فيها احتمال عملي يصح السكوت عليه إذا لم تتحقق أطماعها بفشل محاولتها الاستئثار بالغرب وضمه الشرق تحت حكمها.

الإعداد لموقعة أكتيوم

بدأ أنصار كل من الشرق والغرب في جمع جيوشهم على جانى بحر اليونان، فكان معظم جيش أكتافيوس في برنديزى وتارنتوم أما جيش أنطونيوس الذي ازداد عدده وتضخم حتى بلغ نحو ثلاثين كتيبة فكان في بلاد الإغريق، ولكن أكثر جيش أنطونيوس كان من الشرقيين لأن أكتافيوس منعه من أن يستنفر جندا من إيطاليا، ولقد اتخذ أنطونيوس بلاد الإغريق مركزا لتسع عشرة كتيبة وترك أربع كتائب في برقة وأربعة في مصر ومثلها في الشام ورسا معظم أسطوله الذي كان يتألف من خمسمائة سفينة قرب الساحل الغربي البلاد الإغريق بين أكارنانيا وإبيروس عند مدخل خليج أمبراشيا. أما قوة أكتافيوس فكانت تبلغ مائتين وخمسين سفينة وثمانية آلاف راجل واثنى عشر ألف فارس . وفي أوائل عام ٣١ ق.م صدم أكتافيوس أعداءه الصدمة الأولى إذ مسار جزء من أسطوله يقطع البحر الأيوني قاصدا الساحل الجنوبي البلاد الإغريق برئاسة صديقه الحميم أجربا (Agrippa) فباغت ذلك الأسطول ميشوني، ونح في آسر بعض الفلك المشحون بالحنطة الآتية من الشام ومصر وآسيا الصغرى ؛ ويخيل للإنسان أن أجر بياكان يبحث عن مكان ينزل فيه الجيش إلى البر، وقد أحرز أجريبا بهجومه هذا وأسره لتلك

السفن نجاحا كبيرا، إذ جعل أنطونيوس يركز انتباهه إلى هذه الناحية ويغفل إلى حد ما النواحي الأخرى فيصيبه منها أكتافيوس على غرة. وبينما كان أنطونيوس متجها بأكبر عنايته إلى هذه الناحية أقلع أكتافيوس سرة بأسطوله الذي كان يحمل نحو ثماني كتائب وخمس فصائل من برنديزى، وأنزل جنده بساحل إبيروس. ولما وصل إلى مسامع أنطونيوس هذا النبأ العظيم وهو وصول أسطول الأعداء، أقلع وشيكا إلى أكتيوم (Actium) التي يظهر أنه وصل إليها بعد وصول أكتافيوس بقليل . وكان على أكتافيوس أن يشل حركة أسطول أنطونيوس الذي كان راسية في خليج أمبراشيا، ولكنه فشل في اقتحام الطريق إلى داخل الخليج، واكتفي بضرب الحصار حول مدخله . وبذلك حبس أسطول منافسه داخل الخليج وعسكر أكتافيوس على بعد أربعة أميال شمال المضيق، أما أنطونيوس فقد عسكر هو الآخر على الجانب الجنوبي للخليج، ولم يك مستعدة للنزال لأن كتائبه لم تكن قد تجمعت بعد، ولما وصلت تلك الكتائب عبر أنطونيوس المضيق وضرب خيامه في معسكر آخر على بعد ميلين جنوبي موقع الأعداء، ولما رفض أكتافيوس منها تلته حاول أنطونيوس محاصرته ومنع وصول الماء عنه ولكن لم تكلل هذه الحركة بنجاح كبير لسعة دائرة الحصار التي كان يبلغ محيطها نحو خمسة أميال. وفي نفس الوقت نجح أجريا بأسطوله في بحر الأرخبيل من أن يقطع عن أنطونيوس موارده التي كانت تصل إليه عن طريق البحر وأن يكسب انتصارات أخرى . وعندئذ سارع أكتافيوس بإرسال رسله إلى روما ليعلنوا أخبار هذا النجاح على أنه ظفر ونصر مبين وليبلغوا الشعب

الرومان أن قائدهم قد اقتنص أسطول أنطونيوس داخل الخليج. ويظهر أن هذه الانتصارات على قلة خطرها وضعف شأنها قد ألقت الرعب في نفوس أتباع أنطونيوس. فانفض من حوله دوميشيوس عدو كليوباترة اللدود وانضم إلى أكتافيوس وتبعه غيره من أيقنوا بهزيمة أنطونيوس وبذلك أصاب الخور عزيمة أنطونيوس من جراء هجر أتباعه له وفقد الروح الحافزة إلى القتال .

ومما زاد في تثبيط همته، واستياء أتباعه القلة المطردة في موارده، والأوبئة الفتاكة في صفوف جيشه. فترك فكرة الهجوم جانبه، واكتفى خطة الدفاع إذ رآها الطريقة المثلى للنجاح فانسحب ليلا إلى شبه الجزيرة الجنوبية وتحصن في موقعه الأول بمعسكره الأصلي – ولقد كان حصار أكتافيوس محكمة حتى أن موارد أنطونيوس قد قلت، حتى كادت تبلغ حد المجاعة، فأصبح مقامه لا يحتمل البقاء . وكان لزاما عليه أن يجد وسيلة للخروج من ذلك المأزق، وقد أقنعه سير الحوادث بأن أكتافيوس قد عقد العزم على ألا يحاربه في موقعة برية فاصلة . وإنه لا سبيل إلى إجباره على ذلك –كما أنه تأكد بأنه لا يمكنه هزيمة أكتافيوس في موقعة بحرية ؛ لأنه كان قليل الخبرة بالحرب البحرية وقوة أكتافيوس البحرية أعز من قوته وهي بالأمس القريب قد برهنت على عظمتها وخبرتها بأساليب الحرب البحرية انتصارها على سكستوس مى فكان هذا النصر بمثابة الحجر الأساسي في عظمتها البحرية، وزد إلى ذلك أن سفن أنطونيوس كانت مثل خططه بطيئة متثاقلة بينما كانت سفن أكتافيوس صغيرة، سريعة الحركة في التنقل ؛ فكانت آمال أنطونيوس في

النصر بكرة تكاد تكون معدومة، كما يفهم ذلك من الأوامر التي كان يصدرها . وعلى ذلك كان الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلكه هو أن يخترق أسطول عدوه، ويهرب إلى مصر حيث يمكنه أن يجمع قواته من برقة وسوريا ويقاوم أكتافيوس مقاومة برية عنيفة – ولو أن أنطونيوس سمح لكليوباترة بالهروب من المعركة وحدها لوجد نفسه وحيدا في بلاد قد ضاعت فيها هيبته، وتقلص نفوذه أو كاد، ولاضطر أن يعرج وحده على بلاد لا يعلم إلا الله مدى استعدادها لمناصرته ومؤازرته في محنته . ذلك إلى أنه لم يكن معه جيش قوي بآماله وعتاده فقد نهكته الأمراض وتفشته الأوباء، وأضعفت قوته المعنوية فوق ذلك الهزائم المتوالية وانحياز كثيرين من الرومان فيه إلى العدو، وهو بطبيعة تكوينه كان ينقصه الإخلاص لأنطونيوس والشجاعة في ميدان الحرب.

ويفهم من كل ذلك أن ملابسات الأحوال أشارت على أنطونيوس بإتباع طريق الفرار، وهو الجندي الخبير الذي لا يحتاج إلى نصائح محترفي الحرب . وقد وافقت كليوباترة أيضا على هذه الخطة، ولكنه رأى ذراً للرماد في العيون أن يدعو مجلسا حربية للانعقاد، وأن يعرض عليه الموضوع بتفاصيله للبحث، وقد عرض عليه بالفعل أحد أمرين : إما التقهقر وأطالة أمد الحرب، وإما البقاء والمقاتلة في موقعة فاصلة، ففضل كانيدوس كراسوس الخطة الأولى، وأخذ يبرهن على سدادها، ونصح لأنطونيوس أن يتقهقر إلى تراقيا أو مقدونيا في البلقان لكي يستدرج عدوه وراءه، ثم يحاربه في موقعة لاشك في انتصاره فيها، لأنه كان قائداً بريا أكثر كفاية من عدوه . وقال إنه ليس من العار تسليم البحر إلى

أكتافيوس. وإنه لمن الحق أن يترك أنطونيوس الميدان الذي يعرف كيف ينتصر فيه، ويخاطر بأسطوله في حرب بحرية، ثم أشار خصوم كليوباترة اليوم، وإن كان منهم من رشته بالأمس، على أنطونيوس بإعادة الملكة إلى بلادها . أما هي فقد عارضت خطط كانيديوس كراسوس بشدة ونصحت أنطونيوس بأن يحتل بعض أماكن حصينة سوف لا يجد أكتافيوس مفرا من حصارها، وبذلك يوزع قوته ويفي فيها بعض رجاله، وأن يقوم الأسطول في نفس الوقت هجوم عنيف ليفك الحصار. وقد حمى وطيس الجدال ولكن القرار الأخير فوض أمره لأنطونيوس الذي أصبح من المحتم عليه أن يقرر خطة معينة للمستقبل فلم يوافق على خطة كانيديوس كراسوس، واتبع مشورة كليوباترة إذ رأى أنه لو تقهقر جيشه إلى داخل البلاد لترك أسطوله وشأنه محبوسة في الخليج، ولوقع دون شك في قبضة الأعداء، وهل كان من الممكن الدفاع عن إمبراطوريته دون أسطول؟ بل هل كان من المعقول ترك أسطوله دون معين تحت رحمة الأعداء ؟ وهلا توجد وسيلة أخرى بها يمكن إنقاذ الكتائب والأسطول وبعد فترة راحة واستجمام القوى يمكن قيادتها إلى القتال في أحوال أليق وأنسب؟ وقد يتساءل الإنسان هل كانت اقتراحات كانى دروس كراسوس قابلة للتنفيذ في هذه المرحلة ؟ ويمكن القول من المعلومات الضئيلة التي لدينا بأن ذلك كان مستحيلا أو على الأقل شديد الخطر، وكانت اعتراضات كليوباترة على تضحية جزء من أسطولها شيئا معقولا، ويصعب على المرء أن يعتقد أن أنطونيوس قد تصرف بحكمة، لو أنه ضحي بكل سفينة حتى ولو ضمن النصر برة – وإنه لمن

المعقول أن نرى جند أنطونيوس شغوفين وحريصين على أن يترك لهم وحدهم تقرير هذا المصير، واتخاذ قرار حاسم بشأنه، ولكن ذلك لا يبرهن على حسن تصريف الأمور لو أن أنطونيوس استمع لنصيحة جنده فقط وينفذ لهم ما يريدون، فإنه عندئذ قد يستهدف لخطل الرأي وعلى ذلك كانت موقعة أكتيوم وهي من أعظم المواقع في التاريخ القديم، مشكلة حار في أمرها المؤرخون من القرن الأول الميلادي إلى يومنا هذا[٦٤]. وقد اتفقوا جميعاً على أن أنطونيوس وكليوباترة مسئولان عن خطة الموقعة ولكنهم اختلفوا في ماهية تلك الخطة تماماً وقد تبين بوضوح تام أن إنزال أحسن الجند على ظهر مراكب الأسطول واقتحام نطاق الحصار البحري والرحيل إلى مصر مصطحبة الملكة والبحث عن موقع أكثر ملائمة وانتهاز فرص أنسب للقتال – كل ذلك كان مقدمات الموقعة أكتيوم. ولما استقر رأي أنطونيوس على هذه الخطة أصدر أوامر لم يفهم الجند مغزاها ولا مراميها لأول وهلة، فقد أمر بالاحتفاظ بثلاثين ومائتي سفينة كانت أحسن السفن وأكثرها عدة ومن بينها ستون سفينة كانت تحت إمرة كليوباترة، ثم أمر بإحراق بقية السفن التي كانت غير صالحة للقتال، ولم يكن بها ع دد كاف من الجند وأمر مرشدي السفن بالاحتفاظ بالساريات وأن يأخذوا معهم أشرعة كبيرة ما كان يحتاج إليها في حالة الحرب، بل هي في الحقيقة عائق كبير يمنع سرعة حركة الجند

---

(٦٤) تناول العالم تارن (Tarn) موقعة أكتيوم بالبحث في مقال طريف نشر في مجلة الدراسات الرومانية (Journal of Roman Studies) في العدد ٢١ لسنة ١٩٣١ ص ١٧٥ وما بعدها . وفيه يدل على أن أنطونيوس لم تكن لديه خطة واحدة وإنما كان أمامه حرية الاختيار بين أحد أمرين فإما أن يكسب النصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلا وإلا فإن خطته كانت تنصر في أن ييمم شطر مصر .

فوق متونها. وقد علل الاحتفاظ بها بلزومها عند اللحاق بالعدو، ولكن هذا التعليل لم يقنع ضباطه الذين تسرب إليهم الشك في حقيقة الأمر خصوصا وأن أنطونيوس أمر بنقل النفائس ليلا إلى السفن التي احتفظ بها. وكانت الخطة تقضي بإنزال عشرين ألف جندي إلى السفن والفين من حملة الرماح وفريق آخر من رماة المنجنيق . ولقد فزع الجند عندما تسرب إلى أذهانهم أنه ينوى الالتحام مع العدو بهذا الرهط كله في موقعة بحرية . وقد رجاه أحد ضباطه وهو يشير إلى آثار جروح عديدة بجسمه ليظهر له بلاهه وجلاده، أن يغير خططه ويحارب على اليابس، وقد كان يعبر في هذا عما يجول برأس بقية الجند، ومع ذلك فإن أنطونيوس لم يعره التفاتة – وقد أيدت أوامره الأخيرة شكوك من أساءوا الظن به، فقد كان المقصود من تلك المعركة البحرية أن تكون ستارة للهروب إلى مصر – الأمر الذي صمم عليه . وتأكد كل من ديليوس وأمينتاس من أغراضه الحقيقية، إذ لم تخدعها أوامر أنطونيوس المهمة، فانفض من حوله كل من ديليوس وأمينتاس وصحبها عشرون ألفا من الجند، وانضموا جميعا إلى أكتافيوس في العقد الأخير من شهر أغسطس. وقد أطلع ديليوس الفار أكتافيوس على قصد أنطونيوس، وأخبره بأنه قرر أن يشق لنفسه طريقاً في الخليج ويهرب مع كليوباترة إلى مصر . وقد كان ديليوس هذا مقرباً من أنطونيوس الدرجة مكنته من معرفة حقيقة أغراضه . وكانت الخطة التي رسمها أكتافيوس لنفسه بمجرد أن أحاط عليا بنيات خصمه أن يسمح لعدوه بالخروج من الخليج . ثم يتعقبه من المؤخرة في عرض البحر ويدحره، ولكن أجريبيا وهو

الساعد الأيمن لأكتافيوس عارض هذه الخطة، مبينا أنها خطة غير عملية لأنها قد تمكن العدو من نشر أشرعته والفرار بها على عجل، فيكون من المستحيل اللحاق به وبذأ يطول أمد الحرب دون مسوغ. فقبل أكتافيوس نصيحة أجريپا هذه وصمم على أن تكون خطته إرغام العدو على القتال، وعدم السماح له بتهريب النفائس المصرية، ولذا قضت تعليماته الأخيرة بانزال ثماني كتائب وخمس فصائل إلى سفنه، والإستعداد للقتال. فكانت موقعة أكتيوم يوم ٢ سبتمبر وفيها كان أنطونيوس يقود القسم الأيمن من الأسطول وكانت كليوباترة على رأس سفنها الستين في مؤخرة الأسطول. أما أكتافيوس فكان يقود القسم الأيمن من أسطوله وأجريبا يقود الجناح الأيسر . وتقدم أكتافيوس ومعه مسقنه وكان كلما اقترب من العدو اتسع خط القتال، حتى أخذ أسطوله يحيط بأسطول عدوه من الجانبين، وظل الخصيان وجها لوجه بضع ساعات دون البدء في القتال، وأخيرآ تقدم قائد الجناح الأيسر في أسطول أنطونيوس وقد استدرجه أكتافيوس إلى عرض البحر، متظاهرة بأنه يتقهقر بأسطوله، ولما أمعن قائد هذا الجناح الأيسر في التقدم في عرض البحر، نحنا بقية أسطول أنطونيوس نحوه، فتقهقر أجريبا ومد في خطوط القلب والميسرة. فقد أنطونيوس زمام أسطوله وتوزعه البحر بامتداد خطوط القتال لأن أسطو له تبع دون تبصر أسطول الأعداء الذي أخذ يتقهقر بيط هو نظام، فعمت الفوضى أسطول أنطونيوس بضع ساعات، ثم لحقت سفن أكتافيوس الصغيرة بسفن أنطونيوس الكبيرة التي أخذت كل واحدة منها تقاتل حسبما يتراءى لها، وبذلك قامت تلك المعركة

الهائله بين أسطول قوى متصل الأرسان، ونثير من السفن لا يتصل بعضها بعض ولا تجمعها قيادة محكمة ذات خطط متزنة. ومع ذلك فقد ظلت النتيجة معلقة بين كفتى ميزان لا تثقل إحداهما عن الأخرى حتى تمكن أعداء أنطونيوس من فصله عن قلب أسطوله، وذلك عند محاولته منع أجرها من الإحاطة بأسطوله . وفي تلك اللحظة أدركت كليوباترة أن النصر بدأ يحالف أكتافيوس وأنها وأنطونيوس قد خسرا الموقعة، فاغتنمت فرصة وجود ثغرة في أسطول الأعداء، وأمرت رجال أسطولها باقتحامها، وصادف ذلك أن هبت ريح شمالية مكنتها من الإبحار نحو مصر . وعندئذ أطاع أنطونيوس عاملا أقوى من الحب لكليوباترة، ولو أنه كان متشوقاً في ذلك الوقت لأن يصحب الملكة . فلقد ارب لكي يضمن سلامة التقهقر لأن التقهقر كان ممكنا ولو أن الأمل في النصر كان معدومة . وعلى ذلك ترك المعركة عقب ذلك مباشرة وتبع كليوباترة بسفينته وحدها.

فرار أنطونيوس وكليوباترة

وإتباعاً للرأي التقليدي الذي يقتبسه الناس من المؤرخ پلوتارخوس وصف هذا الفرار من ميدان القتال بأنه خيانة من كليوباترة، وتلبية لداعى الغرام من جانب أنطونيوس الذي أنفطر قلبه عندما رأى أن روحه قد فرت من جواره، ولكن هذه الرواية الخيالية لا تتفق مع الواقع وهي بمثابة تفسير وجداني لموقف عسكرى. وقد قيل إن كليوباترة نقضت عهد أنطونيوس لما رأت أنه قد دارت عليه الدائرة في المعركة في الوقت الذي كانت تأمل فيه بأن تحصل على شروط مشرفة للصلح مع أكتافيوس،

وقيل أيضا إن هيام أنطونيوس بكليوباترة دفعه إلى أن يطرح كل اعتبار آخر وراء ظهره. لما رآها فارة ميممة وجهها شطر مصر . ولكنه من السهل أن نفند ذلك الرأي إذ أكد المؤرخ ، ديو ، أن خطة الهرب هذه كانت مدبرة من قبل، ويرى ذلك جليا في الاستعداد للمعركة، بل إنه يؤيده ويزيد « ديو ، على ذلك بقوله : إن أكتافيوس كان على علم تام بتلك الخطة قبل المعركة وقد أطلعه عليها من نكثوا العهد من رجال وأتباع أنطونيوس . وقد حذا المؤرخون الحديثون حذو «ديو» واعتمدوا عليه، فإنهم يقولون إنه كانت هناك خطة مديرة قبل المعركة بين أنطونيوس وكليوباترة، كما جاء في وصف وديو، تلك المعركة . ويمكن المرء أن يتساءل ما الذي كانت تكسبه كليوباترة بانتفاضها على أنطونيوس إذا فرض أنها هي التي دفعته إلى القتال حرة لكي تتخلص منه ونخونه حتى تحصل على رضاء أكتافيوس ؟ والجواب على ذلك لاشي لأمها بجعل أنطونيوس كبش الفداء ما كانت تكسب شيئا من أكتافيوس، أو تتقرب زلفى إليه، بل على العكس من ذلك تخسر حماية أنطونيوس لها نهائيا من غير أن تكسب أي شيء في وقت لم يكن أنطونيوس قد فقد الأمل في النجاح وكان الجيش لا يزال تحت تصرفه، ومن المؤكد أنها لم تكن تأمل أي خير من أكتافيوس، وهو الذي لم يعلن الحرب على أحد سواها، فهي الهدف الذي كان يرمي إليه مهامه وهي التي تزوجها أنطونيوس بدلا من أخته أكتافيا - وفي الحق إنه ليس من المعقول أن ترد على خاطرها ف كرة التحول إلى أكتافيوس إلا إذا ضاع كل أمل لها في الانتصار . وفي أكتيوم كانت لا تزال تثق بالمستقبل، وقد

تدخلت بالفعل في وضع خطط الحرب التي كان يتوقف كيانها على الانتصار فيها. ولكن مع أن التقهقر إلى مصر كان خطة مدبرة قبل الموقعة، فإن تنفيذ هذه الخطة كان بغير إحكام، وكانت الظروف والملابسات غير ما كان يتوقع أنطونيوس . وكانت النتيجة أنه بدلا من أن يرى نفسه على رأس معظم أسطوله ويقود قوة كبيرة من جيشه تحملها سفنه نحو مصر بعد اقتحام الحصار، رأى نفسه أحد الهاربين من معركة خاسرة، وهذا ما قضي القضاء الأخير على نفوذه في الشرق، وختم مصيره ومصير الملكة . ولما انتشر خبر موقعة أكتيوم في العالم الهلينستى وأرجاء الشرق، أحدث هزة ورجة كبيرة، فعصف بآمال الكثيرين وألقى الذعر والخوف في نفوسهم في حين فتح أبواب الأمل في النصر الحاسم والفرج القريب لغيرهم، وسنرى أنه ان مضى وقت طويل حتى يختفي من الميدان هاتان الشخصيتان الكبيرتان اللتان أقامتا الأرض وأقعد تاها وهما أنطونيوس وكليوباترة فيستريح منهما العالم القديم بانتحارهما ويصفو الجو كل الصفاء لأكتافيوس الذي ذاق طعم الانتصار في أكتيوم، ثم استساغه فلعبت برأسه نشوة النصر، ولكنه كبح جماح نفسه فلم يطلق لها العنان، ومضي في طريقه ونفسه ممتلئة ثقة واطمئنانا بأن المستقبل القريب له ليتم العمل الذي بدأه في أكتيوم فيأتي على عدويه اللدودين ويصرعهما بعد أن كادا يصر عانه .

فر أنطونيوس من الموقعة حزينة كئيبة على سفينة مصرية إلى مصر في صحبة زوجته، بل معبودته كليوباترة، وحاول أكتافيوس اللحاق بعدويه الفارين من الموقعة، ولكنه لم يوفق فعاد إلى الميناء وبدأ يفكر في ضم

جيوش أنطونيوس التي كان قد تركها وراءه، ومضى في طريق فراره لا يلوى على شيء، ولا يأبه لما سيكون من أمرها. وكانت هذه الجيوش قد تركت معسكرها، وبدأت التقهقر إلى مقدونيا فتبعها أكتافيوس وأسرع في اللحاق بها. ولم يجل بخاطر هؤلاء الجنود البواسل أن قائدهم الأعلى قد فر، ولم يكن في نيتهم التسليم لعدوهم، ولكنهم لما استبطئوا أنطونيوس وعلموا أنه رحل الغير عودة فأورثهم مهر وبه الخزي والعار، ووجدوا فوق كل ذلك أن القائد الجديد كراسوس الذي كان مطلعا على حقيقة الأمر، وعلى ما كان من أمر أنطونيوس قد لاذ بالفرار أيضا، لم يجدوا بدأ من مواجهة الأمر الواقع بعد أن ظلوا سبعة أيام يرفضون ما كان يعرضه عليهم أكتافيوس، وهم واثقون من أن قائدهما تغيب إلا من أجل مهمة حربية، فلا تأكد لدهم آخر الأمر أنه ولى فرار،استخذوا وسلموا تسليما . وهذا يرينا أنه لو أن أنطونيوس رجع مباشرة إلى جيشه وانفصل من كليوباترة لاستمر جيشه على ولائه له، ولقادهم إلى حرب مظفرة أو هزيمة غير منكرة، ولكنه لم يفطن إلى أن جنده كانوا ينقمون على وجود كليوباترة وعلى استسلامه الظاهر لنفوذها وقد زاد الطين بلة، وأذهب كل روح معنوية في الجيش ترك كانيديوس كراسوس وهو يعلم علم اليقين حقيقة الأمر، للميدان، واقتفاؤه آثار الفارين واللحاق بهم، فاضطروا حينئذ إلى الخضوع والتسليم كارهين.

وبعد انتهاء الحرب وتسليم جنود أنطونيوس، قدم أكتافيوس فروض الشكر للآلهة على ما أولوه من نصر على عدويه في أكتيوم، ثم اتخذ التدابير اللازمة للإحتفاء بذكرى هذا النصر كل عام، فأسس في موضع

معسكره مدينة النصر "نيكوبوليس" تخليداً لذكرى هذه الموقعة واحتفى بهذه الذكرى بإقامة الألعاب في أكتيوم، وجعل يقيمها كل أربع سنوات – ولا شك أن هذه الأمور شغلته بضعة أيام عقب الموقعة مباشرة، كان في خلالها فرحا مسرورا . هذا ما كان من أمر أكتافيوس، وأما ما كان من أمر أنطونيوس وكليوباترة في أثناء فرارهما على ظهر إحدى مراكب الأسطول المصري، فلقد كانا كثيبين، قد أظلمت الدنيا في وجهيها، يكن كل منهما للآخر الكراهية المصحوبة بالسخط . وكانت تحيط بهما المخاوف من جميع الجهات، فالهزيمة من الوراء تطاردهما وتلاحقهما ملاحقة الظل لصاحبه، والمستقبل من الأمام مظلم حالك الظلمة، تسكنه أشباح مخيفة تلوح لهما بالخطر الداهم والكوارث المدلهمة التي يخبئها لهما القدر المحتوم. وقيل إنهما قضيا بضعة أيام فوق سطح هذا المركب الذي أقلهما من أكتيوم يتحاشيان اللقاء . ولم يجد أنطونيوس في نفسه من الشجاعة ما يكفي لأن يجمع قوته ويخاطب زوجته . وكان خلال هذه الرحلة لا يفكر إلا في الكارثة التي نزلت به، وأفقدته جيوشه، وكانت كليوباترة من جانبها تفكر في مصيرها ومستقبل مصر الذي أصبح مهددة. وعلى ذلك قضى الجانبان الأيام الأولى من رحلتهما في حزن واكتئاب، فأنطونيوس يرى الماضي القريب فتذهب نفسه حسرات على مافاته من الأمر، قد برح به الأسى، ونال منه الكمد واستولى عليه اليأس القاتل، وكليوباترة تنظر إلى المستقبل المظلم فتنحدر عبراتها، وتستدر شئون عيونها، ويستولى عليها الهلع والجزع.

وهنا قد يتساءل المرء عن الدور الذي يمكن أنطونيوس أن يمثله

على مسرح السياسة بعد أن فقد جيشه وقوته، وأصبح مهزوماً مدحوراً . لقد تغير وجه الأمور، وأصبح أنطونيوس اليوم غيره بالأمس من الوجهة الدستورية والسياسية، وكانت كل عنايته موجهة في ذلك الوقت نحو الفرار إلى مصر والاعتصام بها . وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام القيا مراسيهما عند رأس تايناريوم (Taenarium) في جنوب شبه جزيرة البليبونيز ببلاد اليونان، ويظهر أنهما قد اصطلاحا هناك، وعادت الأمور بينهما إلى مجاريها، وصمما على الخطط الأولى التي سيتخذانها.

ولما كانا لا يستطيعان البقاء طويلا برأس تايناريوم خشية أن يقعا في يد أكتافيوس، وكانا يخشيان كذلك أن يصل خبر الهزيمة التي لحقت بهما إلى مصر قبل وصولها، مجلا السفر عبر البحر المتوسط، ووصلا إلى پارايتونيوم (Paraetonium) ومحلها الآن مرسى مطروح، وكانت الميناء الغربية على حدود مصر التي تفصلها عن برقة أو ليبيا، وهناك افترقا فبقي أنطونيوس في بارايتونيوم ينتظر وصول جيشه من برقة، وأسرعت كليوباترة إلى بلادها . ولكن سوء الحظ لازم أنطونيوس فلم يكن موفقة في خططه، إذ كان قد وصل خبر الهزيمة إلى برقة، وكانت تخشى بطش القائد المنتصر وتود أن تضمن عفوه ورضاءه بالإسراع في الانضمام إلى جانبه والتنكر لعدوه. فقدم قائد جيوش أنطونيوس ولاءه إلى جالوس (Gallus) حاكم أفريقيا من قبل أكتافيوس، ولكي يبرهن هذا الحاكم على ولائه، وصدق نياته أعدم رسل انطونيوس الذين كان قد أرسلهم إلى حاكم أفريقيا، وهكذا خسر أنطونيوس جيوشه في برقة وتبددت تلك الأماني الأخيرة التي بناها على أساس واه . وفي هذا

الوقت جال بخاطره الخلاص من الحياة بالموت، وإنقاذ نفسه بأن يودع الحياة ويتركها بيع نفسه، ولكن كانت تعوزه الشجاعة الكافية، فتغلبت محبته للحياة على الخلاص منها، وبعد أن استولى عليه اليأس، وأقعده عن التفكير في الإقدام على عمل جريء لم يجد مفرا من أن ييمم شطر ناحية واحدة طالما اتجه نحوها مندفعة وراء رغبته وعاطفته وحبه للاستمتاع – تلك هي الإسكندرية وكليوباترة.

عودة كليوباترة إلى الإسكندرية

وفي الوقت نفسه كانت الملكة أشجع وأنشط من أنطونيوس، فسارعت إلى تدارك الأمور قبل أن يصل خبر الهزيمة إلى الإسكندرية فتظاهرت في عاصمة ملكها بأنها منتصرة ظافرة، وأمرت بالاحتفاء بهذا النصر الوهمي على أعدائها وتزيين مراكبها بأكاليل من الغار لتضلل رعاياها . وفي الواقع لو كان الشك تطرق إلى أهل الإسكندرية، وارتاب الحزب المهادي لها في انتصارها في أكتيوم لقبض على زمام الأمور ومنعها من الوصول إلى الميناء، ولكنها بدهائها وخداعها تمكنت من التغرير بشعبها إلى أن طأطأ خصومها لها رءوسهم. ولما استقر بها المقام في قصرها واحتل جيشها المدينة، أمرت بقتل أعدائها فخرت تلك الرءوس العاتية صريعة، وبذا تخلصت نهائيا من عقبة كؤود لم تسلس لها القياد، وضمنت عدم تكدير صفو هنائها من هذه الناحية ؛ ولم تكن الملكة تعرف التردد في التخلص مثل هذه الطريقة من كل من كانت تشك في إخلاصهم، إذ أنها كانت تدرك ألا سلام لها مادام هؤلاء على قيد الحياة، فاستراحت من متاعبهم واستفادت بأموالهم وكنوزهم، وملأت

خزائنها بما كانت تفرضه من الضرائب على شعبها وما استولت عليه من كنوز المعابد. وادخرت كل هذا عتاداً كان عونا لها في قابل أيامها . ولقد جمعت كل قواتها الداخلية في الإسكندرية، وصممت على ألا تستسلم لليأس وتفر من الميدان، وألا تسلم للعدو بدون الاشتباك معه في حرب وأخذت تسعى في الحصول على حلفاء لها فأرسلت تخطب ود ملك ميديا وكانت ابنته يوتابي خطيبة ابن كليوباترة المسمى الإسكندر هيليوس أي الشمس لا تزال مصر وأرسلت الملك ميديا رأس ملاك أرمينيا الذي كان سجينة في الإسكندرية ثمنا لصداقتها ودليلا على حسن التفاهم بينهما على مواجهة الموقف الجديد – ولم تكن مجهودات الملكة مقصورة على ناحية واحدة، بل تعددت نواحى نشاطها، وجال بخاطرها بعض المشروعات التي تدل على جرأة عظيمة، ووصفها پلوتارخوس بأنها " من أجسر وأعجب المشروعات "– كل ذلك من أجل تحاشى وقوع كارثة عظيمة، أوشكت أن تودي بحياتها، وتعصف بملكها العظيم، مؤملة أن تغير في آخر لحظة ذلك المصير المخيف الذي كان ينتظرها. فأخذت في بناء أسطول ومراكب في البحر الأحمر تستطيع أن تهرب بها محملة بكنوزها وذخائرها إلى الهند أو بلاد أخرى أجنبية إذا ألجأتها الضرورة القصوى أو الحاجة الماسة إلى الفرار، ولكن النبطيين من سكان بطراء (سلع) والأعراب في شبه جزيرة سيناء أحرقوا مراكبها بتحريض من حاكم سوريا الذي خان عهد أنطونيوس، وانحاز إلى جانب القائد المنتصر أكتافيوس – ولما وجدت أنه لم يتحرك أحد لنصرتها ومساعدتها في محنتها في هذه البلاد، وحبط ذلك المشروع الجري،

ولتوجهه اشطر المغرب لعلها تفوز هناك مالم تفز به في المشرق. إذ قد فكرت في أن تنزل إلى أسبانيا بقوة حربية، وهناك تثير الثوار ضد أكتافيوس، وبذا يتجدد النضال، وتعود الحرب خدعة، وربما جال بخاطرها أن يصادف ذلك المشروع هوى في نفس أنطونيوس الذي كان قد وصل في ذلك الوقت إلى الإسكندرية فينضم إليها، ويتعاونان من جديد على تنفيذه، ولكن قد يتساءل المرء هل كان في استطاعة أنطونيوس تنفيذ مشروعاتها بمثل تلك المقدرة التي كانت له في الأيام الخالية ؟ لقد سلبته فاجعة أكتيوم عقله وصوابه وخارت قواه، وفقد الثقة بنفسه، وتهدم جسمه، وعاش في عزلة في منزل ابتناه لنفسه في الميناء الشرقية بالإسكندرية، وسماه تيمونيوم (Timonium) تيمنا باسم تيمون الأثيني الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا، غريب الأطوار يستأنس بالذئاب والحيوانات إذا عوت ويفر من الإنسان كلما رآه – هكذا عاش أنطونيوس ينفر من أخيه الإنسان، ولا يثق بأحد من الناس، وإنه لمن المستحيل على المؤرخ أن يجزم بالدوافع الحقيقية التي جعلته يسلك هذا المسلك الغريب . أنه كان يشك في كل من رآه أم لأنه كان قد تم الحياة وملتها، أم لأن الصدمة التي لحقته بعد أن هوى من أوج عظمته أفقدته رشده وصوابه، وجعلته يتخذ هذا المسلك ؟ لقد عاش ليشهد عدوه اللدود يدخل أثينا دخول المنتصر الظافر، ويستقبله الشعب الأثيني بأحسن ما استقبل به أنطونيوس من قبل – عاش ليشهد الملوك والأمراء، بل والحكام والولاة ينفضون من حوله، ويسارعون لتقديم فروض الولاء والطاعة لعدوه المنتصر، وكلما اتجه بصره رأي

عدوه تعقد له ألوية النصر، ويستقبله الناس استقبال الفاتح المنتصر، وكأنما العالم كله قد هجره لينضم لعدوه – تلك لاشك كانت بعض الخواطر والهواجس التي كانت تجيش بصدره، وهو في وحدته وعزلته، فا أشقاه وما أبأسه !!!

ولكن بؤس أنطونيوس وشقاءه لم يحركاه لينشط لعدوه. لقد جردته هذه الصدمة من الرغبة في التفكير في مستقبله، ولكنها لم تؤثر في محبته الكليوباترة، إذ دلت الحوادث التي وقعت بعد ذلك على أن محبته لها وارتكانه عليها لم تهن ولم تضعف – وفي هذه المرحلة وصل إلى الإسكندرية ملك فلسطين المسمى هيرود (Herod) يحمل في جعبته مشروعة خطيرة، لو نفذ لكان فيه القضاء المبرم على كليوباترة، إذ حاول هذا الملك إقناع أنطونيوس – بكل ما كان يملك من القدرة والمهارة والدهاء – أن في قتل الملكة ضرورة ملجئة، وأن التخلص منها بهذه الطريقة الماكرة هو الوسيلة الوحيدة التمهيد الطريق في الصلح مع أكتافيوس، ولكن مساعي هيرود لم تنجح إذ أبي أنطونيوس أن ينصت له أو يفكر في أي مشروع يرمي إلى مسها بسوء، وكانت محبته لها هي الدافع الذي أوحى إليه اتخاذ هذا المسلك جعله يصم آذانه ويعرض عن مشروع هيرود – تلك المحبة التي كانت تسري في عروقه، والسلطة التي كانت لها عليه هيا اللتان أنقذناها من مخالب هيرود اليهودي الماكر . وهكذا أضاع أنطونيوس سلكه هذا وعناده فرصة خلاصه ثم خسر هيرود نفسه، فأخذ يعمل على تدبير خطة أخرى للانضمام الأكتافيوس، بعد أن يئس من إقناع أنطونيوس بالأخذ برأيه . ولقد استعان بتقديم الهدايا

الفاخرة، وما كان عليه من المهارة السياسية في إستمالة أكتافيوس، وجلب محبته له والعفو عنه، ومن ذلك الوقت تفاني في خدمة سيده الجديد، ولم يأل جهدا في العمل على إرضائه .

ولقد أنفض من حول أنطونيوس سكان آسيا الصغرى كلها وقواته التي كانت في سوريا وفلسطين وبرقة، وكان يأمل أن يحشد كل هذه القوات في مصر ليقاوم بها أكتافيوس المقاومة الأخيرة، ولكنها حذت حذو جيشه في بيروس، وخانت عهده عند أول فرصة سنحت، وانضمت إلى أكتافيوس . وما أتى ضغثاً على إبالة أن قدم على أنطونيوس كانيدبوس كراسوس نفسه يحمل ذلك الخبر المشئوم، وهو عصيان جيشه في أكتيوم وانضمامه إلى أكتافيوس، وبذلك ساعد القدر المحتوم على تحقيق ما جال بخاطر أنطونيوس إذ ذاك من أن يرتبط نهائية بحكم الصلات إلى أقصى حد كليوباترة، فأصبحت قوته مقصورة على مصر، ولا حليف له ولا ناصر من دونها – ولقد انقضى عام بأكمله بين موقعة أكتيوم ودخول أكتافيوس الإسكندرية، قد أعمل فيه الفكر لتدبير شئونه قبل أن يتقدم خطوة، ربما كانت ذاهبة بثمرات انتصاره في أكتيوم، فقد خشي أن يكون مغامرة في التعجيل بقدومه إلى الإسكندرية، فيجر على نفسه حربا فيها كما حدث اليوليوس قيصر من قبل . وإن ذلك البطه والتريث في الحركات المنطوي على تفكير عميق هو السبب الذي جعل المعركة النهائية الفاصلة مقرونة بهذا الانتظار الرهيب الذي كان يسود جو الإسكندرية . وإن ذلك اليأس الذي استحوذ على عقول ذوي السلطة والقوة في الإسكندرية لهو السبب في ذلك الارتباك الكبير،

الذي كان من مظاهر تعدد نواحي التفكير، ومنازع الآراء واضطرابها – ومع تعذر معرفة الدوافع الحقيقية التي كانت تحرك أنطونيوس بسبب قلة التفاصيل التي وصلت إلى أيدينا عن هذا العهد الأخير، يمكننا أن نستنبط أن حالة أنطونيوس الكمية التي لازمته في معزله في مبنى "التيمونيوم"، قد تبدلت إلى فرح وسرور، ولكن هذا التفكير لم يكن صادرة عن حبه الحياة، أو تعلقه بزخرفها، أو مظهر من مظاهر حبه للملكة والتفافه حولها، بل قصد كل من أنطونيوس وكليوباترة أن يلقيا في روع أهل الإسكندرية أن ليس هناك خطر يهدد كيان مصر، إذ كيف يكون من المعقول أن يشتغلا بتنظيم كل هذه الاحتفالات في وقت يتوقعان فيه زحف الجيش الروماني على البلاد ؟ ولقد تذرعا ببلوغ كل من قيصرون بن كليوباترة من قيصر، وأنتيلوس (Antyllus) بن أنطونيوس من فلقيا، سن الرشد لإقامة هذه الاحتفالات المموهة الساترة للحقائق .

كليوباترة تضع خططا جريئة

ولقد أسست كليوباترة جماعة سميت بالشركاء والإخوان في الموت، قد انضوى تحت لوائها كل من جهدهم اليأس من حياة عزيزة بسبب ظفر أكتافيوس وتوقع الفتك بهم، وقد ارتبط أعضاؤها بأغلظ المواثيق والأمان أن يعيشوا ويموتوا سويا . ولما كان سلاح الموت مسلطة فوق رقابهم، وكان شبهته المخيف أمامهم أنى ذهبوا، دفعهم هذا الشعور بالموت القريب إلى قضاء الوقت القصير الباقي من حياتهم في الاستمتاع بالحياة أيما استمتاع . فتركوا العنان لملاذه وشهواتهم، ومضوا في طغيانهم يعمهون. وإنه لمن المستحيل أن نكشف الآن عن حقيقة

البواعث التي دفعتهم إلى إنشاء هذه الجماعة الانتحارية، أهي بواعث دينية أم أغراض عملية دفع إليها اليأس القاتل . وقد بنت كليوباترة داخل قصرها الملكي زيادة على معبد الإلهة إيزيس مقبرة لها، تشبها بما كان يفعله الفراعنة الأقدمون الذين بنوا المصاطب والأهرام لتكون المقر والمثوي الأخير لأجسامهم . ولكن هذه المقبرة التي بنتها الملكة لم تها للموت سب، بل جملتها مستقرة لجميع كنوز البطالمة من ذهب وفضة ولآليء، وأحجار كريمة، وعاج وآيات للفن وغير ذلك من الأشياء الثمينة التي اعتاد الفراعنة أن يدفنوها في مقابرهم لتكون بجوار أجسامهم بعد موتهم. ولكن هذا الكنز العظم كان مقدرا له أن يلعب دورا كبيرا في تطور الحوادث المستقبلة، وذلك لأن كليوباترة كانت تعلم علم اليقين أن أكتافيوس كان مشغوفاً بالاستيلاء عليه ليفك به أزمته، ويسد به حاجته .. ولكيلا تمكنه من الحصول عليه جمعت المشاعل والمواد القابلة للالتهاب بالمقبرة، حتى تستطيع أن تشعل النيران في هذا الكنز الثمين قبل أن يصعد نَفَسُها الأخير.

وقيل إن الملكة أخذت في هذا الوقت تجمع المعلومات التفصيلية عن المواد السامة وأثر كل منها، وكانت تقوم بهذه التجارب على أجسام المجرمين لكي تقف على خواص كل منها وأثره، ومقدار الآلام التي يشعر بها من تخالجه حشرجة الموت بسببه، وكانت ترمي من وراء ذلك إلى معرفة أي هذه المواد بطيء الأثر، وأيها سريعة ومقدار الألم الذي يصحب كل واحدة منها. ولم تتردد في إزهاق أرواح الناس كما تصل إلى طريقة سهلة للتخلص من حياتها. وكانت هذه المحاولة خليقة بأن تصدر

عن ملكة امتازت بعقل نشيط، وذكاء حاذق لا يقف بصاحبته عند حد، أطمعها في العظمة والسلطان في الحياة، ثم زين لها التغلب على الموت قبل الممات بعد أن حم القضاء وصار الفشل قاب قوسين أو أدني . وفي تجاربها التي أجرتها على الإنسان والحيوان، قيل إنها توصلت إلى أن السم السريع العمل يتسبب عنه أشد الآلام والأوجاع، بينما السموم ذات العمل البطيء، يصحبها ألم وضعف . ثم توسعت في دراسة أنواع السموم وخاصة أثر سم الحية . ويروى أنها وصلت إلى النتيجة الآتية وهي أن لذعة الثعبان لا يصحبها ألم أو انفعال، بل يتبعها نوع من التصلب في العضلات، ثم يعقب ذلك اضمحلال سريع في الجسم وارتخاء تام في العضلات يصحبه الموت .

وفي وسط هذه الاستعدادات لملاقاة الموت، وخلال ذلك الجو الحالك الظلمة الذي كان ينذر بقرب النهاية، ويملأ أرجاء السراي الملكية، تبدو لنا محاولة أنطونيوس الدفاع عن البلاد في "پارايتونيوم" على الحدود الغربية لمصر، ولكن محاولة أنطونيوس هذه لن تغني عن الواقع فتيلا . وهي على العكس من ذلك ستعجل بالقضاء النهائي على أمله الأخير . وبذلك تتبدد ثقته في نفسه وفي رجاله، ويخر صريعا جزاء ما قدمت يداه . وكان بريق الأمل والثقة في النفس التي تجددت عنده باعثة له على الظن بأن النصر سيكون لا شك حليفه بفضل شجاعة بعض أتباعه المخلصين، وبتأثير نفوذه الشخصي الذي كان له عليهم، وهذا جعله يعتقد بأنه بمجرد ظهوره أمام جند الأعداء، وجلهم حاربوا من قبل تحت لوائه، وأخلصوا في الماضي له، سوف يهرعون إليه مسرعين،

ويقدمون له ولاءهم وإخلاصهم، فيحاربون في صفه كما فعلوا من قبل في الحرب الأهلية في إيطاليا . ولكن الحوادث برهنت على أنه كان خاطئة في مزاعمه هذه، فا أن ظهر أمام ميناء "پاراتونيوم" التي كان قد استولى عليها جند العدو، وأصبح يهدد حدود مصر الغربية حتى تحقق أن الزمان قد تغير . وأن سحره وبيانه وشخصيته التي أتت بالأعاجيب في سابق الزمان، لم تعد ذات أثر في نفوس الجند، فإنه لما وصل إلى حوائط حصن وپارايتونيوم، وطلب إلى حامية ذلك الحصن أن تعود إلى حظيرة قائدهم السابق أمر جالوس الذي كان متولية القيادة على الجيش في هذه المنطقة، أن نفخ في الأبواق حتى لا يسمع الجند صوت أنطونيوس، وهكذا ضاع أمل أنطونيوس الأخير وألحقت به جند العدو خسائر فادحة لم يقو على احتمالها، وصد هجماتها، وعجز أسطوله أن يستولى على ميناء " پاراتونيوم " فأتى تحطيم أسطوله وإحراق بعض سفنه، وإغراق البعض الآخر في الميناء ضغثا على إبالة، ولاذ من هذه الهزيمة المزدوجة بالفرار إلى الإسكندرية حيث بقي ينتظر وصول الجيوش الرومانية المنتصرة، وهي تزحف وتتدفق إلى مصر من الشرق، وقد دانت لها كل البلاد، وكتب لها النصر أني ذهبت . وكان حضور الأعداء سببا في استيلاء اليأس التام على أنطونيوس وكليوباترة، وكان هذا اليأس يدفعهما للتفكير أحيانا في خطط جنونية، وكان آخر الأمر سببا في تفكك تلك الرابطة المقدسة التي كانت بينهما، والتي كانت السبب في كل هذه الكوارث والفواجع التي صبت فوق رأسيهما . وكانت كليوباترة هي البادية في العمل على فك هذه الرابطة الزوجية، والتحرر من هذه العقدة، كما

كانت في الماضي هي العامل الأكبر في تقوية هذه العلاقة، وتنميتها إلى أقصى حد. بدأت العلاقة بينهما إذا تدخل في دور حاسم، حتى قطع الموت العقدة حد السيف . وكانت أمام كليوباترة في هذه المرحلة مسألتان دقيقتان إلى أقصى حد، وهما كيف تستطيع أن تتقرب من أكتافيوس وتسوى خلافها معه حتى تحافظ على عرشها، ثم ما هو الدور الذي يمكن لأنطونيوس أن مثله في هذا الموقف الجديد.

وللمرة الرابعة منذ زيارة سكستس بمبي الإسكندرية عام ٤٨ ق.م قبل موقعة فارساليا التي تقرر فيها مصير النزاع بين يوليوس قيصر وما جنوس بمبي، كان مستقبل كليوباترة ومصيرها كملكة لمصر يتوقفان على مقدم قائد روماني إلى مدينة الإسكندرية، ولكن الروماني في هذه المرة كان هو أكتافيوس، ولقد كانت تعلم تمام العلم أن الظروف في هذه المرة كانت مغايرة تماما لسابقاتها، وأن موقفها إذ ذاك كان مغايراً لموقفها بالأمس، وأن القرائن لا تبشر بالتوفيق . وأني لها أن تطمع الآن في الصلح مع أكتافيوس وهو الروماني الذي لم تدخر وسعة ولم تأل جهدا في تحريك قوى السماء والأرض للعمل على هدمه وفنائه، ولكنها الأماني الخادعة أحيت في نفسها بعض الرجاء في المستقبل. تلك كانت مهزلة القدر، وكم له من مهازل -- كليوباترة التي ارتكبت في نظر روما أعظم الجرائم وأفظعها .. واقتطعت من الدولة الرومانية أملاكها، وسلبت أثمن دررها تحاول في ذلك الوقت الصلح مع روما المنتصرة، صاحبة الحول والطول وسيدة العالم، ثم تطمع أكثر من ذلك في كسب ولاء أكتافيوس الذي أعلن الحرب عليها بنفسه، والذي لم ينس لها أنها

سلبت أخته زوجها، وأنه بتحريضها ورغبتها طردت أخته أكتافيا، من بيت زوجها أنطونيوس على ضفاف التيبر – تلك كانت سخرية القدر، أطمعت كليوباترة في النصر إلى النهاية . تقدم إليها أكتافيوس، والحقد عليها يأكل قلبه، والكراهية لها تجيش بصدره، يضمر لها كل سوء ويطمع في التنكيل والبطش بها لأنها العدو اللدود، ولكن كليوباترة مع ما قدمته من إساءات له ولأخته كانت تعلل النفس ببريق الأمل في حلمه وعطفه وعفوه عنها.

والآن نعود إلى أنطونيوس لنرى كيف تأزمت حالته، وتحرج موقفه، وأصبح وجوده حجر عثرة في سبيل كليوباترة، التي رأت أنه لا يجب أن تتأخر عن تقديمه قربانا تضحية في سبيل طمعها في الاتفاق مع أكتافيوس، وكان القدر يسخر الأمور ضده، فلم تجد مفرا من أن تهمله، ولا تحسب له حسابا كما عاملها من قبل عندما تزوج من "أكتافيا" وأهمل شأنها، ولكن بينما كان يرفض اقتراح هيرود أن ينجي نفسه بتضحيتها وقتلها لم تتردد عن أن تضحي به . ولم تظهر له ما أضمرت، وعلى ذلك صممت على التخلص منه مع أنها اضطرت أن تعيش معه، وأن تدافع بالاشتراك معه، وأن تجرى بينهما وبين أكتافيوس سلسلة طويلة من المفاوضات الدبلوماسية عن طريق الرسل، وكان غرضها الأساسي إذ ذاك أن تلبس للحالة الجديدة لبوسها، فتتخذ عدوا من صديقها الحالي، وصديقة من عدوها بالأمس، وتتقمص هذا الشكل الجديد كما تنقذ الموقف، وكان هذا الدور الذي لعبته آخر وأصعب دور مثلته على مسرح الحياة، ولكنها فشلت فشلا ذريعة في القيام بالشق

الثاني، فلما أظلمت الدنيا في وجهها امتدت يدها إلى جسمها، وتخلصت من حياتها كما سنرى فيما بعد .

وفي هذه المرحلة بدأت مفاوضات دبلوماسية ذات شأن عظيم، وخطر كبير عقب عودة أكتافيوس من إيطاليا في نهاية فبراير عام ٣٠ ق.م، وكانت هذه المفاوضات في الظاهر بين فريقين، المنتصر الظافر والمهزوم المقهور، ولكنها في الحقيقة كانت بين ثلاثة : أكتافيوس، وأنطونيوس، وكليوباترة، وكان لكل من هؤلاء الثلاثة خطط ظاهرية وأخرى سرية، وكانت تتجاذب الثلاثة عوامل خفية، وتؤثر من وراء ستار في الموقف من حب مدعى ورغبة غير حقيقية في الموت، وأخيرا عزم مصطنع على الحياة . ولقد أظهر أكتافيوس خلال تلك المفاوضات صلابة مشوبة بصراحة لا تعرف الإلتواء والتردد في أمر واحد وذلك هو إصراره على حرمان أنطونيوس من كل وسيلة للنجاة بنفسه وحياته . وكانت ردوده لأنطونيوس كصمته العميق تظهر تصميمه على طلباته التي كانت تتلخص في تلك العبارة المختصرة، التي تلخص الموقف أحسن تلخيص "إن موتك أمر محتوم" إذ قد هداه عقله إلى أن ذلك المنافس الذي استخدم جند الرومان في الدفاع عن ملكة مصر والذي حاول أن يقضي على روما من أجل أن يؤسس بدها إمبراطورية شرقية يونانية، مركزها الإسكندرية، لابد أن يلقي حتفه أولا، وبعد أن يتوارى عن الميدان يمكن أن يعاد تأسيس الإمبراطورية الرومانية من جديد . ويكفي للتدليل على خضوع أنطونيوس وكليوباترة التام لأكتافيوس أنهما كانا الباديين بفتح باب هذه المفاوضات، فرجا أنطونيوس، وألحف في الرجاء أن يسمح له

أكتافيوس أن يعيش كآحاد الناس في أثينا إذا لم يرغب أكتافيوس في بقائه في مصر، بينما طلبت كليوباترة أن تحتفظ بعرش مصر لأبنائها. ولقد أجزلا العطايا والهبات الفاخرة لأكتافيوس عله تأخذه الشفقة عليهما فيجيبهما إلى طلباتهما، وزيادة على هاتين الرسالتين الرسميتين اللتين أرسلها كل من أنطونيوس وكليوباترة معة، قد انفردت كليوباترة بإرسال رسالة سرية لأكتافيوس معها شارات الملاك كعلامة لخضوعها، راجية أن يعيدها إليها ثانية أو منحها لأبنائها، وبذا أفهمته أنها على أتم استعداد لتضحية أنطونيوس . وفي الحال دخل معها أكتافيوس في مفاوضات سرية . ولقد كان للرسائل التي وصلته من الإسكندرية تأثير تجاوب صداه في ثلاثة أشكال : في أول الأمر أجاب على طلب أنطونيوس بالصمت والإعراض التامين، متجاهلا وجوده، ومفترضة موته، ثم كتب إلى كليوباترة رسميا يطلب إليها أن تكف عن الحرب في الحال، وأن تسلم مقاليد الحكم، ومتى فعلت ذلك يمكن حينئذ البحث في مآلها وتقرير مصيرها .

وفي هذا الجواب نرى بريق أمل لكليوباترة إذا قرن معاملته لأنطونيوس، ولقد أردف هذا برسالة سرية ردا على رسالتها السرية، يعد فيها الملكة بالإبقاء عليها وعلى عرشها على شريطة أن يقدم أنطونيوس أو ينفى من مصر . ولكن الردين اللذين وصلا كليوباترة لم يشفيا غليلها، كما أن أنطونيوس لم يقنع بصمت أكتافيوس وإهماله شأنه، فعوَّل الإثنان على أن يعيد الكرة، علهما يفوزان هذه المرة بأكثر ما فازا به في المرة السابقة، فلجأ أنطونيوس إلى حيلة جريئة إذ قدم الأكتافيوس آخر قتلة

قيصر واسمه يوبليوس توريليوس (Publius Turallius) كيما يثأر أكتافيوس منه لقتل أبيه، ولقد أقدم على هذا مع أن توريليوس هذا كان يعيش إلى هذه اللحظة صديقة الأنطونيوس في الإسكندرية . ولقد ظن أنطونيوس أنه من المناسب، بل من الضروري أن يصارح أكتافيوس بشأن علاقته بكليوباترة، ومحبته لها، فكتب إليه شارحة حقيقة الحال وملتمسة لنفسه العذر بأنه وكليوباترة كلاهما قد شغف حبة بصاحبه حتى صارت بينهما عاطفة أبدية متبادلة لا يمكن انتزاعها إلا بنزع الروحين. ولكي يبرهن لأكتافيوس على مقدار إخلاصه تضحيته للملكة أكد له أنه على أتم استعداد لأن يموت إذا كان في موته هذا خلاص للملكة.ولكن كل الدلائل تدل على أنه لم يكن خالص النية في استعداده للتضحية، وأنه لم يكن يقصد ما يقول فعلا لأنه دافع عن حياته بشدة وضن بها إلى النهاية. ومهما تكن دوافعه ونواياه فإن الجواب الذي لقيه من أكتافيوس على رسالته كان الصمت التام، وقتل صديقه الذي أرسله مصفداً في الأغلال . أما وعود أكتافيوس لكليوباترة في هذه المرة، فلم تزد عما قاله من قبل، وكانت رسالته لها تجمع بين الترغيب والتهديد، والوعد والوعيد، ومع ذلك فلم يلق هـ ذا الإهمال في قلب أنطونيوس يأساً، ولم تثبط عزيمته بإعراض أكتافيوس عنه فبدأ يلعب على الوتر الحساس، ويستعطفه على قلبه يرق بإرسال ابنه أنتيليوس (Antyllus) إليه وكانت قد خطبت له في عام ٣٧ ق .م . يوليا (Julia) ابنة أكتافيوس ثم أرسل معه مقداراً كبيراً من المال، وظن أن ابنه وهذا المال الكثير سيشفعان عند أكتافيوس، ويكونان سبب خلاصه . وفي الوقت نفسه أرسلت

كليوباترة لأكتافيوس تبلغه أنها إذا ضيق عليها الخناق لن تجد مناصاً من الانتحار، وتخريب كل ما تملك من نفائس وكنوز . ولقد كان أكتافيوس شديد الرغبة في المحافظة على حياة كليوباترة يقدر حرصه على قتل صاحبه، والتخلص من منافسه بأي ثمن . وعلى ذلك لم يغير موقفه بالنسبة الأنطونيوس، فقبل المال ورد الرسل بدون جواب . أما تهديد كليوباترة فلقد كان سبباً في إزعاجه، لأنه كان يريد أن يملأ بكنوزها ونفائسها خزائن الدولة الخالية، وأن يدفع منها مرتبات جنده ويجزل لهم العطاء والهبات، في حين كان يريد أن يحتفظ بها نفسها ليعرضها في احتفائه بالنصر عند عودته إلى روما، فتكون بشخصها أكبر رمز محسوس على ما كسبه من نصر، وأبدع آية لانتصاره . ومن أجل ذلك كان الاحتفاظ بحياتها لتحقيق هذه الغاية، والاستيلاء على كنوزها ونفائسها، والقضاء على أنطونيوس والتخلص منه بأي ثمن، مشغل أكتافيوس الشاغل، والمحور الذي تدور عليه سياسته في هذا الدور الأخير من النزاع.

ولكي يمنع كليوباترة من أن تتسرع بارتكاب ذلك الأمر الخطير، ولكي يكسب ثقتها، وعدها في شيء من الغموض والإمام أنه في حالة وفاة أنطونيوس سوف يسمح لها بالاحتفاظ بعرشها . ثم أرسل لها أحد رجاله المخلصين، وأمره أن يحادث الملكة بكياسة ولياقة، وأن يؤكد لها بأن أكتافيوس قد أحبها، ووقع في شرك غرامها، وأصبح من عشاقها . وقد أمل أكتافيوس بذلك أن يطمعها فيه، ويحيى الرجاء في قلبها بأنها ستستولي على مشاعره، كما استولت على أبيه قيصر وزميله أنطونيوس

من قبل، فتحجم عن الإقدام على الموت منتحرة، وإتلاف جميع نفائسها فيتم له كل ما يريد ويبقى في التنكيل بها. أما عن غرام أكتافيوس بها، فلم يكن أمراً يستحيل عليها تصديقه، فأحواله الغرامية كان يجري ذكرها على الألسنة وتفيض بها المجالس ما جعل الملكة على استعداد لأن تصدق ما جاء في رسالته، وفوق ذلك

فإنها كانت تعتمد على مقدرتها في الإغراء والاستواء، وتثق في قدرتها على تنمية هذه الرغبة في أكتافيوس، حتى تجعله يهيم بها ويصير من عبادها كما فعل أب له من قبل. وكانت في ذلك الوقت تبلغ التاسعة والثلاثين من عمرها، ولكنها كانت على جانب عظيم من الجاذبية والذكاء مع تقدم سنها . ولقدُ سرّت، وأيقنت أنها وجدت مخرج من مأزقها، فأكرمت مثوى رسول أكتافيوس، وكان هذا التكريم لرسول أتي من قبل عدوهما أكتافيوس مثيرة لاشك في نفس أنطونيوس، ولكن لم يكن في مقدوره أن يفعل شيئا وخصوصا أن أكتافيوس كان قد تقدم بجيشه من سوريا حتى وصل إلى الفرما (بيلوزيوم) على مصب الفرع الشرقي للنيل . وكانت حامية المدينة تحت قيادة سيلوكوس (seleucus) قد أبدت مقاومة ضعيفة للأعداء . وقيل إنها سلمت بناء على أوامر خفية من كليوباترة نفسها، وأدى وقوع المدينة في يد العدو إلى انتشار الإشاعات بأن قائد الحامية بالمدينة قد خان بلاده، وملها للعدو بناء على تعليمات من كليوباترة. وأخذت الإشاعات عن خيانتها تذاع، ويرجف بها الناس، وإن مسلك كليوباترة هذا – إن صحت الإشاعة التي نسبت إليها الخيانة – ليتفق مع سياستها التي رسمتها لنفسها في هذه المرحلة الأخيرة، التي

كانت تنطوي على عدم تحقيق مطامعها بالقوة، بل كانت معتمدة الاعتماد كله على عطف أكتافيوس ورحمته، وعلى مقدار نفوذها الشخصي، ولم يكن يمنعها من إلقاء السلاح بين يدي خصمها، والجنوح إلى التسليم المطلق سوى خوفها من أنطونيوس الذي كان لا يزال قابضة على ناصية الأمور، يأتمر الجيش كله بأمره . وكان الاستيلاء على الفرما ذا أهمية حربية عظيمة ؛ لأنه جعل الطريق مفتوحة إلى الإسكندرية من الشرق . ولقد جاءت الإشاعات إلى الإسكندرية تترى عن خيانة كليوباترة . وقال المؤرخ ديو بأنه لما كان أكتافيوس يتقدم نحو الإسكندرية، نهت كليوباترة رعاياها سراً عن أية مقاومة له . ولقد روج الرومان الموالون لأنطونيوس هذه الإشاعات، ليوقعوا في روعه صدقها، ولكن الملكة حاولت إدحاض هذه التهم بالإلحاح على أنطونيوس في أن يعاقب من كان سبب هذه الهزيمة، وهو حاكم الفرما بقتل أسرته التي كانت بالإسكندرية، حتى تزيل كل تهمة من شأنها أن توحى بأنها كانت على اتفاق معه على الفشل والتخاذل، والتمكين للأعداء. وهكذا حاولت إسكات صوت الرومان دون أن تقدم برهان قطعية على براءتها. ولكي تكسب أكتافيوس إلى جانبها كان لا بد لها من أن تستعين على تنفيذ مآربها بالكتمان الشديد، خشية أن يعلم أنطونيوس فتستهدف لعدوانه، وتعرض نفسها لخطر الموت، ولكنها كانت تعلم أنها إن لم تفعل ذلك فلا أمل لها في رحمة القوى الظافر . وكانت أغراضها ونواياها الحقيقية معروفة في الفرما، وإن كانت في الإسكندرية تمثل دور أروائية مسرحية . وفي كلنا المدينتين كانت تحاول إنقاذ حياتها، وتسوية مركزها بقدر ما

كانت تسمح به ظروفها السيئة . وبينما كانت حليفة لأكتافيوس سرا، كانت في الوقت نفسه لا تزال تقم مع أنطونيوس في أحد القصور الملكية بالإسكندرية. ولقد اضطرتها ظروفها الصعبة والمواقف الحرجة التي وقفتها أن تستحث الجند على القتال، بينما كانت في الوقت نفسه تتخذ التدابير لكي تمنعهم من أن يستميتوا فيه، وكانت تقضي أوقاتها من الصباح إلى المساء تقدح زناد فكرها متلمسة طريقة لإيجاد مخرج لنفسها، فأثبتت بذلك شدة بأسها وعزمها الحديدي وحدة ذهنها . ولقد ظنت أنها توصلت إلى نتيجة يحسن السكوت عليها، وهي أن أصبحت حليفة أكتافيوس، ولكنها لم تكن تشك في أن تلك المحالفة كانت مؤسسة على الخداع والمكر، وأن القدر يخبئ، لها شراً مستطيراً، وأن أكتافيوس يخفي لها في جعبته ذلاً ومهانة ليس بعدهما من مزيد.

بيد أن المقادير كانت تعاكس مشروعاتها من ناحية أخرى، وذلك لأن أنطونيوس كان قد بدأ يتجدد نشاطه، ووضع لنفسه خطة عملية هي على النقيض من الخطة التي ترسمتها لنفسها، فصمم على امتشاق الحسام مرة أخرى، عله يصل بحد السيف إلى ما لم يستطع الوصول إليه بالمفاوضات واللين، وكان قد تأكد أن عدوه لن يرحمه، وأن خلاصه لن يكون بغير الدفاع عن نفسه بشجاعة المستميت . ولما علم بوصول أكتافيوس إلى كانوبوس (أبي قير)، قاد فرسانه وقابل خيالة أكتافيوس فدحرهم، وكان هذا النصر آخر انتصار أحرزه، وبريق أمل بعث فيه النشوة والسرور والاختيال والإعجاب، وجعله يزهي به ويتكبر، ولكنه كان لا يزال حتى ذلك الوقت يشعر أن الظفر كل الظفر في ابتسام

كليوباترة له ورضائها عنه ؛ ولذلك سارع من ساحة القتال إلى القصر الملكي في الإسكندرية، وارتمى بنفسه بين أحضان كليوباترة وكله محبة وفرح وسرور، وشجيه النصر الذي أحرزه على التفكير في خطط ومشروعات جديدة، فأمر رماة السهام أن يصوبوا سهاماً إلى معسكر أكتافيوس يعمل كل منها وعدت بأن كل جندي يسلم نفسه إلى أنطونيوس يكون جزاؤه ألفا وخمسمائة دينار . ولقد أفسد أكتافيوس عليه تدبيره هذا، بأن حمل بنفسه إلى جنده، وعد أنطونيوس، وبين لهم أن في هذا العمل برهان حسية على حرج مركزه، وتأزم حالته، ووعدهم خيرة أكثر، وعطاء أجزل متى تم لهم فتح الإسكندرية . ولما وجد أنطونيوس أن حيلته لم تنفع أراد أن يقوي مركزه في أعين جنده، فطلب إلى أكتافيوس أن ينازله القتال وحده فأجابه أن سبل الموت مفتحة بين أيديه، وأن له أن تختار من بينها غير المبارزة طريقة، ثم ختم رسالته بقوله إن طريقة واحدة يتعذر عليه سلوكها، إذ قد أحكم سد مسالكها وهي الطريق إلى الحياة – وإن هذا الحوار الأخير بين القائدين لهو ختام لسلسلة الاتهامات التي كان يكيلها كل منهما للآخر، في رسائله وخطبه، وكان كل منها يعرف أن الغلبة للأقوى، وأن الموت المؤكد للمهزوم المدحور، ولكن أنطونيوس كان لا يزال متعلقة بأهداب الحياة فأخذ يستعد للموقعة الفاصلة التي لم يطل فيها أمد القتال، وذلك لأن جند أنطونيوس هجروا جانبه، إما يأسا من أن ينالوا نصراً وهم في جانبه، وإما تنفيذا لأوامر كليوباترة السرية بعدم القتال وإلقاء السلاح، ولذلك فرت الجموع الغفيرة من المشاة والفرسان إلى صف أكتافيوس، ولم يبق لأنطونيوس

سوى الأسطول الذي أخذ يتأهب به كما يلقى آخر سهم في جعبته، ولكن كليوباترة سلبته هذه الفرصة الأخيرة فأفسدت عليه حارة الأسطول، وأغرتهم بالانضمام إلى جانب أكتافيوس. ولابد أن ذلك الدور الذي لعبته الملكة في خيانة الجيش كان سراً قد هتك حجابه، وفشا أمره، وذاع بين الجموع خبره، فتسرب الشك إلى نفس أنطونيوس، غير أنه أغمض عينيه عن الحقيقة، واستولت عليه عواطفه وأندفع وراء أهوائه، وهنا نترك خيال القارئ يتصور تلك اللحظة الرهيبة التي تمثلت فيها الحقيقة المؤلمة سافرة أمام عينه، والتي أدرك فيها تماما أنه لم يعد في استطاعته أن يقاوم، وأن القضاء المحتوم قد حان أوانه . فانسحب إلى أحد القصور الملكية حيث انزوى وحيدة منبوذا من جنده وأحبائه، لا حول له ولا طول، ينتظر تلك الساعة التي يدخل فيها منافسه الإسكندرية فتحاً مظفراً.

انتحار أنطونيوس

كان أنطونيوس يبلغ من العمر إذ ذاك ثلاثة وخمسين عاما، لم يخالجه أدنى شك في أن قضاء المحتوم قد حان، ولم يق بينه وبين أكتافيوس حائل سوى مدينة غير حصينة، وقد اكتظت شوارعها بأناس من جميع الأجناس، فهم المصريون واليهود واليونان، وجاليات من الأسيويين والإفريقيين، وكلهم ترتعد فرائصهم من هول الحكم الروماني المرتقب . ولكن أنطونيوس حتى في تلك اللحظة الرهيبة كان لا يفكر في غير كليوباترة، ولا يزال محافظة على العهد القديم، ناسيا نفسه، باقيا على حبها، فأخذ يندب حظها المنكود . على أن الملكة التي كانت موضع

كل ذلك الإخلاص والمحبة لم تكن تفكر فيه أو تقيم له وزنا في وضع خططها، بل كانت ترى أن الفرصة قد حانت وتتطلب منها الإسراع في العمل على قتل أنطونيوس كيا تحصل، ثمنا لذلك، على رضاء أكتافيوس، فلجأت إلى الحب الذي يكنه لها، تستخدم منه سلاحا قاتلا يأتي على أنطونيوس .

ولكي تنفذ خطتها التي رسمتها لجأت إلى قبر ابنته على شكل معبد هو "الماوسليوم" (Mausoleum) وأخبأت فيه كنوزها ونفائسها، واتخذته مولها الأخير تعتصم به ضد هجمات العدو ولو إلى حين قصير، وفيه تستطيع أن تتخلص من حياتها متى أدركت وأيقنت بفشل كل الوسائل لنجاتها. ويؤخذ مما كتبه المؤرخ پلوتارخوس أنها خشيت غضب أنطونيوس، وبعثت إليه من هناك من يقول له إنها فرت إلى قبرها "وإنها انتحرت لكي تنجو من إنتقام أكتافيوس" . وكانت واثقة أن أنطونيوس الذي لم يكن ليستطيع، وهو في أوج عظمته وفي أسعد أوقات حياته أن يعيش بدونها، سيصعق عند سماع خبر انتحارها، فيذهب صوابه، ويكون خبر موتها الضربة القاصمة، وبذلك يموت وتطوي صحيفته. وبموته يبعث الأمل في نجاتها -- هكذا فعلت كليوباترة فقرت إلى قبرها، ولم تصطحب معها سوى وصيفتها الأمينتين إيريس (Eiris) وخار ميان(Charmian) وخصها الذي كان يلازمها، ثم أحكمت وراءها باب القبر الذي تحصنت فيه . ولقد تحقق ظنها، إذ كان خير انتحارها المزعوم كالسهم أصاب فؤاده أو كالصاعقة أذهبت لبه ورشاده ؛ ولم يتركه الخبر المشئوم إلا مشدوها جريحاً كاليماً، فلقد وضح له الطريق

التي يحق لمثله أن يسلكها في مثل هذه الأحوال.

وكان شبح الموت منذ موقعة أكتيوم يتمثل له، وفكرة الانتحار تجيش بصدره وتداعبه بين حين وآخر، ولكن كان يحوزه العزم والإقدام . بيد أن خبر موت حبيبته قوي عزمه على الموت واقتفاء أثرها والحذو حذوها فأمر أحد خدمه وعبيده المسمى ايروس (Eros) أن يطعنه بخنجره فعز على الخادم الأمين أن يهوي بخنجره على صدر سيده، وهوى به على صدره فر صريعا، ضاربا بذلك مثلا أعلى في الشجاعة والوفاء والإخلاص : وكان منظره حافزا لأنطونيوس فامتدت يده إلى خنجره، وهوى به على نفسه سفر صريعا على الأرض، ولكن الضربة لم تكن قاضية لساعتها، والجرح لم يكن بليغاً إلى درجة الموت العاجل، فأخذ يتقلب ويضرج في دمه متوجعاً متوسلا إلى من حوله أن يجهزوا عليه ويخلصوه من عذابه، وعندئذ بلغ مسمع كليوباترة خبر انتحار أنطونيوس، ولكن سرعان ما ذاع الخير بأنه لا يزال على قيد الحياة، وكانت رغبته الأخيرة أن يرى كليوباترة، ولقد تحققت تلك الرغبة إذ جاءه ديوميديس (Diomedes) كاتم سر الملكة، وأخبره بأن الملكة تود أن تراه، ولقد مدة القدر في حياته حتى حمل إليها في مقبرتها وهو مدرج بدمائه، وهنا قد يعجب الإنسان لماذا حققت الملكة رغبة أنطونيوس الأخيرة، فسمحت لحمله إليها وهي السبب في انتحاره والمدبرة له . وقد يصح القول في الجواب عن ذلك بأنها رغبت الاستحواذ على جثته، حتى لا يدعى أحد لنفسه شرف قبله . أما ما حدث بينها داخل تلك المقبرة فلم يتسرب إلى الخارج منه إلا ما رغبت كليوباترة وخادمتاها في

أن يذعنه . وقد وصف المؤرخ پلوتارخوس وداع العاشقين وصفة مؤثرة، إذ ناجته بقولها إنه سيدها وزوجها . وهو الآخر ظل يواسيها طول ما بقي بين ذراعيها وأخذ يحثها على ائتمان بروكليوس (Proculeius) فقط وهو من أتباع أكتافيوس عندما تبدأ مفاوضاتها معه، وقد جاء في پلوتارخوس أنه طلب منها وهو يلفظ النفس الأخير ألا تذهب نفسها حسرات على مصيره ونهايته، بل يجب أن تذكر الماضي من سعادته، وأنه كان سعيدا حتى في ختامه المحتوم، إذ لم يهزمه وهو الروماني الشريف إلا رومانى شريف مثله . وإنه لمن العسير أن نصدق ما يقوله البعض من أن اليأس قد بلغ منها مبلغا عظيما جعلها تمزق صدرها حزنا وكمدة، وأن أنطونيوس ناداها بأحب الأسماء قبل أن يموت، وأنه أعلن لها أنه سعيد الموته بين ذراعيها . وقد يقال إن مثل هذه العواطف في موقف كهذا بعيدة الاحتمال، وإنه ليس من الطبيعي صدورها في مثل هذه الظروف، ولكن لا يمكن الجزم بما جرى بينهما ساعة اللقاء، وعندما حان حينها للافتراق الأبدي . وإن أقصى ما يمكننا أن نصدقه أنه لقي الموت بين أذرع كليوباترة حيث تَنَعَّم وشرب كأس ملاذه حتى الثمالة .

وكان موتاً حادثة خطيراً قام له الناس وقعدوا في جميع أرجاء الدولة الرومانية، ولكن العالم تنفس الصعداء لموت ذلك الرجل الذي خضب أرض الشرق والغرب بدماء الأبرياء من أجل طموحه ومطامعه السياسية، ثم رغباته وشهواته، ولقد أسرع أحد حراس أنطونيوس حاملا ذلك النبأ العظيم إلى أكتافيوس في معسكره ومعه سيف أنطونيوس المخضب بالدماء ليشهده على صدق نبثه . وما كاد أنطونيوس يلفظ النفس الأخير

حتى أرسلت كليوباترة رسولا من قبلها إلى أكتافيوس ليزف إليه هذه البشرى، وبوصول ذلك الرسول من الملكة تأكد لدى أكتافيوس موت ذلك القائد العظيم، ولكنه بدل أن يتلقى الخبر بالسرور والفرح تلقاه بالحزن والكآبة، إذ تصور زميله القديم في الجهاد وقائد روما المظفر في ماضي حياته قد صار جثة هامدة، فعكف في خبائه يبكيه، ولم يمنع تنازع المطامع بينهما وتضارب مشاربهما من أن يسح الدمع عليه مدراراً . وقد تذكر أكتافيوس تلك الدموع التي ذرفها أبوه يوليوس قيصر من قبل، وفي أرض مصر بالذات منذ ثمانية عشر عاما عندما جاءه النعي بموت يمي، ورآه مجندلا على شاطئ الفرما، فلم يشأ أكتافيوس أن يكون أقل من أبيه وفاء وإحساسا في موقف يشبه موقفه، إذ أن موت أنطونيوس موت يميكان نتيجة تدبير أيد مصرية، فالأول من صنع كليوباترة، والثاني كان نتيجة تدبير بطلميوس،. أخيها وزوجها الأول. وكلاهما لم ينل الثواب المنتظر جزاء ما قدمت يداه .

وبعد أن بكي أنطونيوس، بدأ أكتافيوس يشعر بضرورة كسب الرأي العام إلى جانبه . وفي وسط هذا الجو المضطرب وتحت أرعاد آلات الحرب والقتال، وبينما كانت الإسكندرية والملكة ومن حولها ملعون من هول ما ستتمخض عنه الظروف، وترتعد فرائصهم من شدة خوفهم من بطش ذلك القوى القاهر، كان لدى أكتافيوس متسع من الوقت يجمع فيه أصدقاءه والمقربين منه ليثبت لهم بما دار بينه وبين أنطونيوس من الرسائل أنه كان على أتم استعداد لحسن التفاهم، وأنه حاول جهد استطاعته أن يصل إلى حل مرض مع أنطونيوس الذي يحمله هو وحده

مسؤولية فشله في الوصول إلى نتيجة مرضية وتسوية ما بينهما من خلاف بروح ملؤها الرغبة الصادقة في حسم النزاع من غير أن يضطر إلى قتل نفسه، واختتم أقواله برثاء أنطونيوس والتعبير عن شديد أسفه لوقوع تلك الفاجعة .

أما موقف الملكة بعد موت أنطونيوس فلقد كان حرجاً شديد الحرج، ضيقاً شديد الضيق إذ كانت تعلم أن حسابها سيكون عسيرة، وأن عقابها سيكون قاسية غاية القسوة، مع أنها بذلت أقصى جهدها في سبيل أسترضاء أكتافيوس فقدمت له خدمة جليلة بتدبير مقتل أنطونيوس – وكانت سياسة أكتافيوس بعد ذلك ترمي إلى الاحتفاظ بشخصها، ثم بكنوزها الثمينة وهما أمران لا تقوى جيوشه وعساكره على تحقيقهما : ولذلك صمم على الاستمرار في خطة الخديعة والمكر وبذل الوعود الخلابة حتى يستحوذ عليها، وتصيح في قبضة يده، فأرسل لها رسولين من قبله وهما صديقه الحميم بروكليوس (Proculeius) وخادمه الأمين إيافروديتوس (Epaphroditus) كما يفاوضاها، وزودهما بالتعليمات الدقيقة عن الطريقة التي يجب أن يسلكاها، والوعود الغامضة التي يمكنهما بذلها، ولكن كليوباترا فرفضت أن تسمح لها بالدخول إلى قبرها الحصين، إذ أنها كانت تعلم أنها تستطيع أن تملى شروطها ما دامت مستحوذة على كنزها، ولكنها أخذت تفاوض بروكليوس من كوة أو ثقب بباب المعبد الحصين . وإنه ليس من الممكن معرفة شروطها التي عرضتها إذ ذاك على سبيل التحقيق، ولكن يمكن الظن بأنها كانت تتلخص في الاحتفاظ بعرشها لنفسها أو لأبنائها من أنطونيوس . ومن

المؤكد أنها كانت قد صرفت النظر في ذلك الوقت عن الأمل في أن تجلس ابنها من قيصر المسمى قيصرون على عرش مصر، إذ أنه عندما تبين لها أن الأمر قد صار بيد أكتافيوس وآل إليه مصير البلاد، أيقنت أن قيصرون سيكون أول من ينتقم منهم أكتافيوس فأرسلته مع مربيه رودون (Rhodon) إلى إثيوبيا أو بلاد النوبة ليحاول منها الفرار إلى بلاد الهند . على أننا مهما نعمل الفكر ونطلق العنان للخيال، فإننا لن نستطيع تفهم سر الحوادث التي تعاقبت إثر انتحار أنطونيوس، وسيبقى الشيء الكثير منها مكنونة في طي الكتمان . وقد يسائل الإنسان نفسه عن الفائدة الحقيقية التي كانت تعلقها كليوباترة على وعود أكتافيوس الغرامية، مع أن هذه الوعود يمكن نقضها بسهولة، ومع أن لدى أكتافيوس ألف وسيلة ووسيلة للتخلص منها ومن جميع الأشخاص غير المرغوب فيهم، مهما يبذل لهم من وعود وعهود. ولربما كانت كليوباترة مصممة على مقابلة أكتافيوس نفسه والحصول منه على تأكيد شخصي لتلك الوعود والآمال التي أبداها عن طريق پروكليوس ورسله المخلصين . وكانت التعليمات التي تلقاها هؤلاء الرسل تقضى بألا يجعلوا الريب يتسرب إليها في احتفاظها بعرشها، وألا يجول بخاطرها أن أكتافيوس يحافظ على حياتها من أجل عرضها في روما عند احتفاله بنصره، وأوصاهم بأن يؤكدوا لها إخلاصه بدون أن يورطوه بعهد أو ذمة، وأن يحاولوا إقناعها بالتسليم من تلقاء نفسها، ولكنهم وجدوا الموقف أشد حروجة مما ظن أكتافيوس، فسارعوا بإخباره ليتدبر الأمر بحكمته، فأرسل لها كورنيليوس جالوس (Cornelius Gallus) وهو الذي أصبح فيما بعد أول حاكم روماني على

مصر بعد موت كليوباترة . وكانت له دراية ومعرفة خاصة بالشئون المصرية وأساليب السياسة فيها، فنفذ التعليمات التي تلقاها من سيده، وهي أن يطيل حواره ومفاوضاته مع الملكة، وكان ذلك بواسطة ثقب في باب المقبرة الحصينة المعتصمة بها، وفي الوقت نفسه سوار بروكليوس المقبرة بصحبة بعض الجند من الجانب الآخر . ولقد علمت كليوباترة بصعود بروكليوس ومن معه إلى معقلها الحصين، ولكن بعد فوات الوقت، وبينما هم يقتربون منها، مدت يدها إلى خنجر كانت قد أخبأته في طيات ردائها، وحاولت أن تطعن به نفسها، فسارع بروكليوس إليها وحال دون تحقيق رغبتها، وخلص حياتها الثمينة لأكتافيوس . فاستحق بذلك ثناء قائده لأنه احتفظ له بالملكة وكنزها من عبث العابثين . ولقد حاول أكتافيوس تهدئة روعها وسمح لها بالبقاء في قبرها وأمر إيافروديتوس أن يعاملها بالاحترام الذي يليق بالملكة، وأن ينفذ لها كل رغباتها، وألا يعصي لها أمرة. ولكنه كلف في الوقت نفسه مراقبتها أشد مراقبة خشية أن تتخلص من حياتها بالانتحار، وسمح لها بتحنيط جثة أنطونيوس وبالقيام بكل ما يلزم من معدات لدفنه والاحتفال به احتفالاً يليق بمثله من عظماء الرجال، بيد أنه مع كل تلك التجلة والاحترام والسهر على تنفيذ رغباتها كانت تشعر بالموت يقترب منها رويدا رويداً، يخيم عليها بظلماته ويهبط عليها بكلكله .

أما مدينة الإسكندرية فقد كانت ترقب تطور الحوادث بعين ملؤها الخوف والهلع، لا تدري ماذا ينوى القائد المنتصر صنعه في مدينة عزلاء، لا مدافع عنها، ولكن لما وجد أكتافيوس أنه السيد الذي لا منازع

له في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية أراد أن ينهي الحرب، وأن يبدأ عهدة جديدة يسود في السلم والطمأنينة، ولم يجد من الضروري أن يقسو ويشتد ويبطش بالأهلين، ويخضب بدمائهم شوارع العاصمة المصرية، واكتفي باحتلال الإسكندرية بجيشه كعلامة النصره، وكان دخوله المدينة إيذانا للعالم أجمع أن جميع الممالك التي تحيط بالبحر المتوسط قد اعترفت بسلطان الدولة الرومانية، وآن البحر المتوسط نفسه قد أصبح بحيرة رومانية . ولكن الخوف كان قد تملك الإسكندرية، وملأ أرجاءها كما حدث أيام يوليوس قيصر في صدر عصر كليوباترة وقت احتلاله المدينة عقب انتهاء الحرب المعروفة حرب الإسكندرية. وللمرة الثانية في حقبة قصيرة هي عهد هذه الملكة، سار الجند الرومان في شوارع المدينة، وعلا صوت أقدامهم وعجيجهم في أنحائها وأبهائها وقبواتها وقصورها الغناء ومعابدها الفخمة ومبانيها العالية، وقد ازدحمت بالناس من جميع الأجناس إذ خرجوا على بكرة أبيهم ليقدموا ولاءه للقائد المنتصر . ولقد تأثر أكتافيوس بعظمة المدينة وجمالها فلم يتنكر لها في المعاملة، ويحكمها بيد حديدية، بل ترفق وخفف الوطء، وأركب بجانبه وهو داخل المدينة معلمه الفيلسوف أريوس (Arius) الذي كان من أهل الإسكندرية وذلك ليشعر أهلها برأفته، وليقدم برهانا حسية على شديد احترامه وتبجيله الفلسفة، ثم توجه بموكبه للملعب الرياضي – الثقافي والمعروف بالجمنازيوم (Gymnasium) حيث وقف أنطونيوس منذ أربع سنين من قبل يقتطع أملاك الدولة الرومانية في آسيا وأفريقيا، وهما لكليوباترة وأبنائها ؛ ولكي يمحو ذكرى الحرب وويلاتها أعلن نيته في

استعمال الرأفة والرحمة، فخر له جميع الحاضرين راكعين ساجدين. وكان خطابه باللغة اليونانية التي يحسن المستمعون فهمها، ودفعه على اتخاذ هذا السبيل عظمة الإسكندرية التي كانت أم المدائن والأمصار في ذلك العصر، واحترامه لمؤسسها الذي كان قدوة لوالده يوليوس قيصر، وإكرامه لشأن مر بيه ومعلمه أريوس ورغبته في كسب محبة الأهلين له. ولكن مع عموم عطفه ورفقه لم يعف عن بعض أفراد كان يرى التخلص مهم ضرورة لامناص منها ولا يصح إغفالها . وأهم من حرص أكتافيوس على قتله قيصرون وأنتيلوس وكليوباترة، فقد أرسل أكتافيوس جنده للحاق بالأول وهو في طريقه إلى إثيوبيا فأغروا معلمه فزين له أن أكتافيوس سوف يعترف به ملكا على مصر، ولذلك أقنعه بالعودة إلى الإسكندرية، وفي طريقه إليها أمسك به كمين كان قد تربص له وقتله . وكان هذا الحادث بعد انتحار كليوباترة . أما أنتيلوس فكانت كراهية أكتافيوس له شديدة، وهذا يرجع إلى والدته . فلقيا، أكثر منه إلى أبيه أنطونيوس، ولكننا لا نستطيع أن نتكهن بالدافع الحقيقي الذي كان الباعث على قتله . وبذلك تخلص أكتافيوس ان إسمين كريهين على نفسه .

انتحار كليوباترة

أما كليوباترة نفسها فقد كانت تشعر مع الأبهة والعظمة التي كانت لا تزال تحيط بها، أن نهايتها قد حانت، وأن تيار الحوادث يعلو من حولها شيئا فشيئا، ويجرف في طريقه من كانوا موضع سخط أكتافيوس، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى يبتلع ذلك التيار القوى شخصها . وإن

مسلك الملكة التي غررت بأنطونيوس، ودفعته إلى الموت دفعة، والتي حاولت قبل وقوعها في يد العدو، التفاهم مع رسله في أثناء تحصنها في مقبرتها، ليدلنا على أنها كانت ترغب في الحياة، وأنها كانت تطمع في الاحتفاظ بعرشها في مصر لنفسها أو لأبنائها . ولكن بعد وقوعها أسيرة في يد العدو إنهار بناء آمالها عن أساسه،. وأصبح هشيما تذروه الرياح، وأيقنت حينئذ بما يخبئه لها القدر وهي العليمة بأساليب السياسة وتصاريفها، تعز ذليل الأمس، وتذل عزيز اليوم، فأني لها بالرحمة وكيف يرحمها أكتافيوس؟؟حقا ربما سنح لها خاطر أشع في نفسها بريق الأمل بين حين وآخر، مرتكنة في ذلك على قدرتها على كسبه إلى جانبها بفضل ما أوتيت من قوة الجاذبية الشخصية والنفوذ العظيم، والمقدرة على أمر الرجال، ولكنها لا بد كانت في سريرة نفسها تعلم علم اليقين أن الفشل ينتظرها، وأن مصيرها المحتوم هو أن تتردى في هوة سحيقة من اليأس، وأن الموت الوشيك لابد آت عما قريب . وكانت الملكة تردد على لسانها الأخصائها في ذلك الحين الجملة الآتية وأن يستطيع أحد أبدا أن يعرضني في موكب نصر، . وهذه الجملة تدل على أنها كانت تفضل الموت العاجل على آن يمثل بها هذا التمثيل المهين، ولكن القدر كان يكيل لها بنفس الكيل التي كانت به لأختها أرسينوى (Arainod) التي سبق بها في شوارع روما مكبلة في السلاسل والأغلال تحت أعين كليوباترة نفسها في الاحتفال بانتصار يوليوس قيصر، ثم أمرت بها فقتلت – كل تلك الفظائع تمثلت أمام ناظرها، وتذكرت ما أعدته لها تصاريف الحدثان . ولكن الملكة مع ارتكابها هذا الجرم مع

أختها تستحق إعجابنا الشديد ؛ لأنها رفضت أن تستسلم للقدر، وصممت على ألا نمكن أحداً من أن يعرضها في موكب رسمي من مواكب النصر . وكانت روما التي استردت قوتها وسطوتها ترى في كليوباترة عدوتها اللدودة التي أعلنت عزمها على الجلوس في الكاپيتول (Capitolium) في روما والحكم بين الناس، والتي غررت بقيصر، وأطمعته في إقامة ملكية هيلينستية من العالم الروماني، ثم غررت من بعده بأنطونيوس، البطل المغوار فكسبت الأول إلى جانبها، وكانت سبب نكبة الثاني . وإنه لمن الصعب أن نتصور مقدار الكراهية الشديدة وروح الانتقام والسخرية وفحش القول الذي كان لاشك يكيله الشعب الروماني الملكة، ويتردد صداه في شوارع روما لو قدر لها أن تساق في طرقاتها ترسف في السلاسل والأغلال – كل تلك الاحتمالات لابد أن تكون قد جالت بخاطرها، وجعلتها تصمم على التخلص من حياتها فتوسلت إلى أكتافيوس أن يقتلها، ولكنه لم يحبها إلى ما طلبت، فأعملت الفكر كما تنتحر رغم تلك التحوطات والرقابة الشديدة التي كانت تحيط بها لمنعها من الوصول إلى مأربها . وصممت على أن تلقي آخر سهم في جعبتها بأن تعيد تمثيل دور ليبته من قبل وصادفت فيه نجاحا عظيما، فخيل إليها أن التوفيق قد يلازمها إلى النهاية ولذلك طلبت مقابلة أكتافيوس، وتمت هذه المقابلة بين الاثنين في معقلها الملكي، وقد علمنا بنبأ هذه المقابلة الوحيدة بينهما من پلوتارخوس وديو، ولكن لم نعلم من التفاصيل الحقيقية لتلك المقابلة بين الاثنين إلا النزر اليسير . ويقول پلوتارخوس، والعهدة في روايته على طبيب كليوباترة المسمى أوليپوس، إن أعز رغبة

لديها كانت في أن تلقى الموت، وإنها آثرت الامتناع عن الأكل حتى تموت جوعا، ولكن أكتافيوس هددها إذا عمدت إلى تحقيق ذلك بأن ينزل بأبنائها ضررة بليغة، وينكل بهم . وهناك روايتان مختلفتان بشأن زيارة أكتافيوس لها في معقلها الذي اعتصمت به، إحداهما جاءت على لسان بلوتارخوس مستمدة من أوليمپوس، والأخرى ذكرها "ديو" الذي كان يعبر فيما يسرد عن الوصف الرسمي لتلك الزيارة . فقدمها لنا في صورة الفاتنة البارعة التي لم تكن لعجزها الحيلة ولا الدهاء، والتي لم تكن تعرف حقا للضمير، فحاولت في بساطة وسذاجة أن تستعطف أكتافيوس إلى جانبها، وتستميله إليها بتقبيل صور يوليوس قيصر وخطاباته، ثم تقدمت إليه بعروض، صحبتها بكلمات عذبة معسولة ونظرات فاتنة تأخذ بالألباب . ولما أعرض عنها ونأى بجانبه وأجابها بجفاء دون أن يذكر شيئا عن ملكتها، ودون أن ينبس ببنت شفة عن ذلك الحب المزعوم، قال « ديو، إنها يئست منه، وطلبت إليه أن يسمح لها بأن تموت، وأن تدفن في نفس القبر الذي يضم رفات أنطونيوس، ويقول "ديو" إنها أيدت طلبها هذا بأن تركت بعد موتها كتابة ضمنته هذا الطلب . وعندئذ طب أكتافيوس خاطرها بالترفق في حديثه معها حتى لا تقطع الأمل، لأنه كان ينوي أن ترافقه إلى روما لتسير في موكب نصره فتضفي عليه من الروعة والبهاء ما كان يطمع فيه، وسمح لها أن تذهب في صحبة وصيفتيها لزيارة قبر أنطونيوس حيث أخذت تستمطر الرحمات من السماء عليه وتتوسل إلى روحه أن تنقذها من محنتها وتخلصها من عار السير في موكب النصر الروماني في روما، وأن تسمح لها بمشاركته

قبره . ويعد ختام صلواتها أروع مثال ضربه پلوتارخوس في التعبير عن مبلغ الأسى واللوعة أو هو أنات صادقة جرت على لسانها، ما كان لأترابها وبنات جنسها، لا من قبلها ولا من بعدها، أن يأتين بمثلها، فكانت مخلصة عندما نادته يقولها ، ليس بين أتراحي، وما أكثرها، ما هو أمرت وأقسى من تلك اللحظات القصيرة التي قضيتها بعد أن أفتقدتك"..

ومهما يكن من أمر هذه المقابلة بين أكتافيوس وكليوباترة، فقد كانت مقابلة بين قاهر ومقهور، بل بين حاكم الرومان وملكة مصر. وأما مدى آمالها والحقيقة بشأن رغبتها في إيقاع أكتافيوس في شراك غرامها، أو إيقاظ عوامل الشفقة في قلبه ليسمح لها بالبقاء عصر وتصنعها اليأس للوقوف على شعوره الحقيقي نحوها – كل تلك أمور ستبقي سراً مكنوناً حملته معها إلى قبرها . ولقد كان موقفها وتوسلاتها وتضرعاتها وكل الوسائل التي تسلحت بها لغزة، صعب حله حتى على أكتافيوس نفسه . وقد قيل بعد ذلك إنها وهي في الأربعين من عمرها، حاولت أن تنجح لثالث مرة في إيقاع حاكم العالم الروماني في شراك حبها، ولكن وسائل إغرائها لم تنجح هذه المرة أمام جمود أكتافيوس . وفي أغلب الظن إن هذه القصة افتراء عليها، إذ قد بدأ الناس بعد انتحارها يشيعون عنها كل ما تجود به مخيلاتهم من أراجيف ليصوروها بغياً الملوك. وعلى أية حال فلقد كانت نتيجة تلك المقابلة بينها وبين أكتافيوس أنها وثقت تماما بأن أكتافيوس كان يرمي إلى عرضها كأسيرة على الشعب الروماني خلف مركبه الحربي، ما جعلها تصمم على الانتحار، ولكن لكي تنفذ مشروعها

هذا كان من الضروري أن تضلل أعداءها . خدعت أكتافيوس حتى أصبح يعتقد أنها تخلت عن فكرة التخلص من الحياة، وأنها وافقت على الذهاب معه إلى روما . ومن هنا كان السر في السماح لها أن تقدم آخر قربان على قبر أنطونيوس قبل رحيلها من مصر، وكان تصرفها هذا سببا في تخفيف الرقابة التي كان يقوم بها إيافروديتوس وأعوانه عليها، وبعد أن أذرفت الدمع المتون على أنطونيوس على نحو ما أوضحنا وقامت برثائه رثاء بليغة على قبره وودعته الوداع الأخير، عادت من هذه الزيارة إلى قصرها، وبعد قليل سميح الرقباء عليها بوصول سلة تين إليها كانت خبأت بها ثعبانا أو حية تسعى، وعندئذ أعطت إيافروديتوس خطابا ممهوراً بخاتمها، وطلبت إليه أن يسلمه إلى أكتافيوس في الحال . وقد رجته في ذلك الخطاب أن يدفنها مع أنطونيوس في قبره . ووجدت الملكة بعد ذلك بمدة وجيزة جثة هامدة بملابسها الملكية – ولكن طريقة موتها كانت سراً غامضة حتى لمعاصريها ولأول من است كشف جثتها، ومازالت للآن موضع الحدس والتخمين من الجميع . ومن العجيب أيضا أن المؤرخين الأقدمين المعاصرين يقولون بصراحة أنه لم يقف أحد على الطريقة التي ماتت بها كليوباترة . وقد وصلت إلينا حكايات مختلفة عن موتها . والرواية التي لاقت قبولا في روما بعد ذلك بعدة أسابيع هي أن كليوباترة وخادمتها قد لدغهن ثعبان، ولكن الكتاب ليسوا متفقين على شيء في أمر موتها حتى أن الذين صدقوا أن موتها كان بلذعة ثعبان لم يتفقوا على موضع اللذع . وقد تكون هذه الرواية بشكلها الرسمي مأخوذة في جملتها وتفاصيلها من كتاب نشره بعد موتها

طبيبها الخاص أوليوس (Olympus) عن أيامها الأخيرة، ولكن لا يمكن المرء أن يتأكد من صحة ما نشره أو ليبوس هذا، وهل كان هذا لغرض روانى ولتسلية الشعب الروماني، أم كان يرمي به إلى إظهار الحقيقة . وعلى ذلك فإن موتها سيبقى على الدوام سراً غامضاً على كل من يروم التاريخ من مصادره الحقيقية – وهكذا لجأ كل من أنطونيوس وكليوباترة إلى الموت بعد أن خابت آمالهما، وفشلت خططهما فات الرجل الذي أثار الشرق ضد الغرب تحقيقا لأطماعه ورغباته بعد فشل سياسته، ولحقته كليوباترة بعد أن أظلمت الدنيا، وضاقت في ناظرها حتى صارت أضيق من كفة الحابل، وتأكدت أن لا حياة ولا هناءة لها بعد فراق أنطونيوس . وموتها أصبح العالم الروماني بما فيه مصر في قبضة القائد المظفر أكتافيوس أغسطس، مؤسس الإمبراطورية الرومانية .

وإن العالم بأسره ليعلم ما كان من أمر تلك الحيات التي أمرت بإحضارها في قفص من التين الطازج، وموت هذه الملكة بتأثير اللذعات الحية، وموت وصيفتيها بعد أن بعثت لأكتافيوس برسالة ترجوه فيها أن يأذن بدفنها مع أنطونيوس في قبر واحد، وأنها بعد تناول العشاء صرفت الجميع عنها فيما عدا وصيفتها إيريس وخارميان، فلما قرأ أكتافيوس كتابها، محل بإرسال رسله كيما يستجلوا حقيقة الأمر، وعندما دخلوا عليها رأوا كليوباترة وقد لفظت أنفاسها الأخيرة، راقدة في رواء الملاك وبهائه على مخدع من عسجد، ومن تحت أقدامها إيريس وقد أسلمت الروح، أما خارميان فكانت لا تزال تعاني سكرات الموت، ومافتئت تحكم بأناملها وضع تاج سيدتها على جبينها وعندما إبتدرها أحد الرسل

غاضباً بقوله ، أيليق هذا – أي خارميان أجابته على الفور . "حسناً فعلت: وأيمن الحق، وإن هذا الخليق بسليلة ملوك أما جد" . ثم هوت لتوها بجوار مضجع سيدتها.

وقد تواترت الأقوال بأن أكتافيوس أمر بقتلها، وأن رواية لذعة الحية ما هي إلا من بنات أفكار الرومان، ابتدعوها لإخفاء جريرة هذا الإثم؟ ولكن ليس من المحتمل فيما يبدو أن يكون أكتافيوس قد رغب في قتلها قبل أن يحتفي بموكب نصره، وتسير هي فيه لتكون آية وعبرة للناس. وحسب ما جاء في " ديو " يظهر أنه بذل قصارى جهده ليحول دون تحقيق رغبتها،. والعمل على إنقاذ حياتها بعد أن حضر ورآها مضطجعة في فراشها، فلما عجز عن الوفاء بغرضه وأخذ في إظهار الإعجاب بها، والأسف عليها، ولكنه شهر بوجه خاص بمزيد من الألم والغضاضة لأنه حرم من الاستحواذ عليها حية لتكون أعظم درة في تاج نصره،، ثم مضى " ديو " في حديثه عنها فاخص أحوالها وصور أخلاقها فيما يلي : إنها ما كانت لتشبع أبدا في البحث وراء الحب، وما كان طمعها في الحصول على الثروة ليعرف حدة. إنها كانت طموحة للغاية، شغوفة بالشهرة، صلفة متعجرفة، محبة للشموخ بأنفها في قحة ؛ ولقد استحوذت على عرش مصر واستأثرت به بفضل غرام رجل هام بها، وكانت تأمل بانتهاجها نفس السبيل أن تصبح ملكة على عرش روما، ولكنها منيت بالفشل في ذلك وهكذا أضاعت ملك مصر . إنها استطاعت أن تستحوذ تحت سلطانها على اثنين من أبطال روما وعظمائها في ذلك العصر ولكنها تعثرت بسبب ثالثهم وأودت بحياتها

بظلفها " [٦٥]. ويتناول المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكلرك موضوع تهجم الكتاب الرومان على كليوباترة وتعمدهم القذف في حقها، وصب جام غضبهم عليها فيقول "إن هذا إلا حديث معاد وموضوع مكرر، طالما عرض له الكتاب الحديثون بالتفنيد" [٦٦]. ومن بين هؤلاء. الدكتور و. و. تارن في كتابه عن " الحضارة الهلينستية " إذ يقول " إن بريقا وهاجا قد ألقى على النزع الأخير من حكم الملك الأسرة (البطلمية) بفضل اسم كليوباترة . وقد سطر الكثير عنها ولكن قدرة قليلا ما كتب يعطينا فكرة صادقة عن تلك الإمرأة، التي استطاعت على الرغم مما اقترفته من جرائم وآثام وما يدورها من قصور ونقص، أن تبلغ درجة من العظمة، حدت بروما أن تهامها وتخشاها، وكانت في جسارتها ومطامعها من طراز ما تجلى من روح الإسكندر . وإنها لامرأة تصدت لها النبوءة فأشارت بأنها بعد أن تتمكن من القضاء على روما، سوف تعمد إلى الأخذ بيدها وبدء عصر ذهبي يتعين في مستهله وضع حد للنزاع والصراع الطويل بين أوربا وآسيا، وتسوية أوجه الخلف بينها وسواد حكم ترفرف عليه ألوية العدالة والمحبة ؛ وكانت مراميها تهدف إلى أن تكون سيدة العالم الروماني وإمبراطوريته الشاملة . ولو قدر لقيصر أن يمتد به الأجل ليحقق لها في أغلب الظن ما أرادت، ولكنه توارى عن الأبصار، ولحق به الموت فاضطرت إلى أن ترتد فتتكئ على أنطونيوس باعتباره خير من وجدت، واستطاعت أن كسبه آخر الأمر إلى جانبها وتتخذه أداة في تنفيذ

([٦٥]) كاسيوس ديو، ٥١، ١٥

([٦٦]) بوشيه ليكارك، تاريخ اللاجيديين، جزء ثان ص ٣٣٦،. هامش رقم ١

برنامجها المنطوي على جرأة وجسارة والمتضمن محاولة غزو روما بواسطة جند من الرومان. ولكن هذا المشروع لم يخرج إلا بعد فوات الأوان، فكان العصيان والتمرد بين رجال أسطوله في أكتيوم سنة ٣١ ق .م،هو القاضي على الحلم الذي ساورها في قيام تلك الإمبراطورية. وبانتحارها في السنة التالية انتهت في الواقع آخر سلالة مقدونيه تربعت في دست الحكم واحتل أغسطس عرش البطالة " [٦٧]

وقد دلل العالم الأمريكي " وليم ان وسترمان " في مقال له منشور في أعمال المؤتمر العالمي الخامس لعلم أوراق البردي، على أن كليوباترة كانت ملكة مصرية صميمة في نظر المصريين، وأنها خلدت في الأدب الباقي من عصرها، ومن العصر التالي على أنها مصرية، ويستند في ذلك على ما جاء في أقوال پلوتارخوس، حياة أنطونيوس، الفصل ٢٥، من أن كليوباترة كانت "المصرية" . وإن المحاولة المسرحية الأخيرة من جانب كليوباترة في إقامة. دولة عظيمة ذات سلطان واسع عن طريق التحالف مع الحزب الروماني الموالي لأنطونيوس، كان العباد الأساسي فيها اعتقادها بأن ولاء الشعب المصري وإخلاصه لقضية الأسرة البطلمية ومليكة البلاد كان امرأة مسلمة به. وإن ذلك الحلم الرائع الذي داعب خيال كليوباترة في الوصول إلى سلطان الحكم على إمبراطورية مترامية الأطراف ربما كان عديم الجدوى، وينطوي على محاولة طائشة ومغامرة فاشلة، لو لم تكن واثقة من تأييد المصريين من رعاياها وولاتهم

---

(٦٧) و. و. تارن، « الحضارة المياه نستية »، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢ ص ٤٦

وإخلاصهم لها [٦٨]. وقال العالم سير هارولد إدريس بل في كتابه عن « الهيلينية في مصر، إن اثنين أذلا روما وجعلا أنفها في التراب. وهذان هما هانيبال، القائد الفينيقي، وكليوباترة، الملكة المصرية [٦٩].

وما كانت التهمة التي لصقت بكليوباترة، وهي أنها كانت ترغب في إشباع شهوتها بالأمر العسير في دفعه عنه أو تفنيد القول الذي كثير ما أطلقه بعض المؤرخين من أنها كانت امرأة بغي، فليس هناك من الحقائق ما يمرر هذه التهمة في حياتها الخاصة، إذ أنها أخلصت في علاقتها بكل من القائدين الرومانيين : يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، وكانت تأمل في أن تصير زوجة الأول، وأصبحت بالفعل زوجة الثاني . وهي وإن كانت صفة قاسية القلب، محبة للجاه والسلطان، ولا تتورع أحيانا عن ارتكاب أعمال لا يبررها الضمير الإنساني، فإنها على أي حال لم تنشها الشوائب والرذائل التي اتصف بها ملوك البطالة من أمثال بطليموس الرابع فيلوپاتور وغيرها من الإدمان على شرب الخمر والإنهماك في الملذات والشهوات الجامحة. وفي الحق إن مثلها فيه تطابق الأمثلة كثيرة غيرها من نساء هذه الأسرة البطلمية، في أنها لم يكن لها غرام خاص بالدس والكيد من أجل المغامرات في شئون الحب، وإنما كرست جهودها في العمل على الاستحواذ على الحكم والسلطان السياسي.

([٦٨]) وليم ان وسترمان، « البطالمة وما بذلوه من جهد في تحسين أحوال رعاياهم » مقال منشور في أعمال المؤتمر العالمي الخامس لعلم أوراق البردي المنعقد في سنة ١٩٣٧ ونشر في بروكسل سنة ١٩٣٨ ص ٥٧٧.

([٦٩]) هارولد إدريس بله. « الهيلينية في مصر » الفصلي الثاني « عصر البطالة » ترجمة زكي على .

وينعى عليها المؤرخ "ماهافي" (Mahaffy) أن مسلكها في أكتيوم كان يوم عن الخيانة، فولت الأدبار تاركة أنطونيوس في موقف لا يحسد عليه[٧٠]. ومضى في قوله إنها في أكتيوم قدرت وحسبت بغاية الدقة جميع فرص الكسب والخسارة ثم الأقدار التي كانت أمام القائدين المتنافسين، وكانت تأمل في النهاية أن تستطيع بفضل مقدرتها على الإغراء، استهواء عظيم روماني آخر وكسبه إلى جانبها . ولكن آراء " ماهافي " في هذا الشأن، لا يعتد بها، ولا بد أنه وصل إليها نتيجة قراءة مستفيضة في القصص الشجوى، غير هم تقريء للحوادث ودون اعتماد على تجارب الحياة الواقعة . ولعل في مقال الدكتور و. تارن (W . Tarn) عن موقعة أكتيوم وهو المنشور في مجلة الدراسات الرومانية [٧١]، ما يفي وينهض لتفنيد آراء "ماهافي" . وفي رأي تقارن أن " أنطونيوس لم تكن لديه في هذه المعركة خطة واحدة، وإنما أتيحت له حرية الاختيار بين أحد أمرين، فإما أن يكسب النصر لو استطاع، وإذا ما تعذر ذلك فإن خطته كانت تنطوي على أن ييمم وجهه شطر مصر». وإن كانت كليوباترة قد أمرت بأن تصطف مراكبها في الخلف كما تكون – في حماية من القتال، ووقفت هي على رأس ذلك الأسطول المصري، فلم يكن ذلك لأن الشجاعة كانت تعوزها أو لأنها كانت تخشى عواقب الإلتحام في تلك المعمعة، ففي شبابها قادت جيشا ضد أخيها في شرق الدلتا وركبت سفينة، تسللت بها من الفرما إلى الإسكندرية في مقتبل

(٧٠) Mahaffy, Empire of the Ptolemies p, 445

(٧١) W. Tarn, Journal of Roman Studies, XXI, 1931, p. 175

حياتها في ظروف محفوفة بالمخاطر والأهوال. على أنها في الظروف التي أحاطت بها في أكتيوم كانت ترى أن إنقاذ الكنوز التي لديها، وكانت تحملها معها في سفنها، أمرت على أعظم جانب من الأهمية، كما كانت تقدر أن عودتها سالمة إلى أولادها وملكتها يأتي في المقام الأول، وله من الأهمية ما يفوق تعريض حياتها للخطر في معركة ميئوس منها، وعلى ذلك فأمر الحرب كان مرتبا ومتفقا عليه مع أنطونيوس، مع ما كان يستتبع ذلك من غضاضة . وقضت شهامة أنطونيوس أن يعمل على تجنيب كليوباترة مواطن الخطر، وذلك بجعلها تقف في موضع آمن. ولو كتب له النجاح في حركته وخطته ضد أجريها، فإن كليوباترة كانت تبادر بالتقدم بمراكبها للقيام بدورها كاملا غير منقوص، ما عرف عنها من شجاعة وإقدام . ولكن لا هي ولا أنطونيوس كان راغبة في تعريض حياته للخطر من غير طائل، فأبناؤهما كانوا في مصر ينتظرون أوبتها.

وهناك من المؤرخين الحديثين من انبروا لإظهارها في صورة بطلة حظيت بعطف الناس "وملكة فتية، دقيقة التقاطيع تحمل بين يديها طفلها الرضيع وقد ارتسمت على محياه دلائل الصحة " وامرأة وحيدة مجروحة كليمة، قسا عليها الدهر، كانت تعمل جاهدة طوال حياتها من أجل تحقيق مطمع وطني باهر [٧٢]. إنها قضت الجانب الأكبر من حياتها مع أنطونيوس، فجاء كله صخب مليء بالأطوار الغريبة وغير متسق مع حياة الجندي الروماني الشجاع المقدام، الذي كانت تفرض عليه وطنيته لبلاده أن يقضي الوقت في محاربة الفرس والبارثيين والميديين والعمل على

---

[٧٢] أنظر المؤرخ " ويجول " (Weigall) في كتابه عن " حياة كليوباترة "

تأمين حدود الإمبراطورية الرومانية في الشرق . على أنه لو كان قد أدى واجبه كندي، أضاعت علينا صفحة مجيدة من صحف التاريخ الحافلة بالوثائق، مما سطره القلب البشري، والروح الأخاذة، ولأفلتت منا إحدى الروايات التراجيدية الخالدة، انبرى لتسطيرها تقر من الكتاب كانوا يفهمون روح كليوباترة الوثابة وشخصيتها النارية. لقد داهنت أكتافيوس واستطاعت أن تفلت من يديه وفوتت عليه فرصة ذهبية كان يروم اقتناصها ليتخذ منها أداة يحتفي بشخصها في موكب نصر يقيمه في شوارع روما، على النحو الذي جرى عليه العرف الروماني، وبذلك حرمته من أن يسلبها شهرتها الخالدة، ولو أنه استولى على زمردها وجواهرها وكنوزها كما يدفع منها رواتب جنده ويفي بديونه في إيطاليا .

ومما لا ريب فيه أنها فاقت أي مقدوني آخر، فيما عدا الإسكندر الأكبر، في عظمتها الباهرة وذكائها الخارق وأطماعها الواسعة . وقد استطاعت أن تؤثر ما أوتيت من قدرة سحرية ومقدرة وكفاية، على كل رجال زمانها وأبناء عصرها، وهي وإن لم تكن أنموذجاً خالصة للفضيلة، فإنها لم تكن وحشا كاسرة ألقت به المقادير (fatale monstrum**) كما صورها الشاعر هوراس في إحدى أناشيده [٧٣]. ولم تصطنع الخبث ونصب الأحاييل، كما أنها لم تكن مثال الزوجة الطيبة القلب الوادعة، ولم تكن وطنية رائدة الإخلاص في وطنيتها . وإنما كانت ملكة بطلمية،**

---

(٧٣) هوراس Odes B.L, XXXVII, 21-22، إذ أنشد يقول : « fatale monstrum quae generosius perire quaer fts » إن كليوباترة ليست بثمرة سوية وإنما هي وحش كاسر، بعثت بها الأقدار لتعيث في الأرض فسادا وتنشر الذعر والرعب في رجائه .

جمعت من خصال بني جنسها قسطا غير متعادل من الفضائل والرذائل على السواء؛ فهي البسامة في عظمتها وأبهتها، المونعة المشرقة في منبت قديم هو البيت الملكي المقدوني في مصر، وكان إذ ذاك آيلا الانهيار والسقوط . وهي طوال حياتها كانت أبعد ما تكون عن أن توصف بالإمرأة الخاملة .

وفي نطاق سياستها الداخلية وأسلوبها في الحكم، وعنايتها بأحوال البلاد الداخلية، كشف لنا مؤرخ جغرافي هو استرابون، النقاب عن قصور ظاهر من جانبها في هذه النواحي[٧٤]. فقال إنه في حكم كليوباترة كانت إدارة البلاد مختلة بسبب الترف والمجون الذي كان عليه مارك البطالمة المتعاقبون وما أصاب ثروة البلاد الطبيعية من تلف وضياع، وقد أنكي إسترابون باللائمة على كليوباترة وخصها بشيء من اللوم. ذلك أن عنايتها بالإشراف على مطالب الجيش والأسطول صرفتها عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية وإصلاح الجهاز الإداري المتداعي، كما كانت غيبتها عن مصر ومقامها في روما مدة بلغت نحو سنتين من ٤٦ ق.م حتى ربيع ٤٤ ق.م ثم ترددها على الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان لاستقبال أنطونيوس وتقديم العون له في شتى المناسبات – كان كل ذلك مدعاة لأن تصاب الإدارة المصرية ببعض الخلل، فأهمل تطهير القنوات المصرية، وتراكم الطمي فيها ونجم عن ذلك نقص في مياه الفيضان وتعذر وصولها إلى الحقول والمزارع، ما أدى إلى حدوث مجاعة في

([٧٤]) إسترابون . الكتاب السابع عشر من جغرافيته، ٧٩٧ – ٧٩٨

البلاد في عام ٤٤ ٤٣ ق. م[٧٥]. وهناك من البينة ما يكشف عن وقوع اضطراب في أحوال البلاد، منها نصب أو لوحة من طيبة عرفت بلوحة تورين مؤرخة في عهد الملكة كليوباترة، الإلهة المحبة لأبيها (Philopator) وبطلميوس وهو أيضا قيصرون، الإله المحب لأبيه وأمه [٧٦] . وقد أقام هذا التصب كهنة آمون رع في طيبة بالاشتراك مع شيوخ هذه المدينة وبقية سكانها تكريما لكاليماخوس، الذي عنى بأمر المدينة في أوقات المحنة الشديدة التي ألمت بها وخلصتها من المجاعة، متحملا العبء وحده بإخلاص وبذلك استحق منحه لقب مخلص المدينة . وفي وثيقة أخرى أصدرت كليوباترة – بالاشتراك مع ابنها بطليوس قيصرون، أمر ملكية في عام ٤١ ق.م، يقضي بأن السكندريين الذين كانوا يعملون في الريف، مشتغلين بحرث الأرض وزراعتها، لا يفرض عليهم من الضرائب سوى ما كان مقررا عليهم من ضرائب عادية مستحقة على الأراضي المنزرعة غلالا وكروماً . وكان هذا القرار الملكي استجابة لطلب تقدمت به بعثة من السكندريين مثلت بين يدي كليوباترة . وفيما عدا هذا المرسوم، لا توجد أدلة قاطعة على أنها كانت معنية بشئون البلاد الداخلية وساهرة على أحوال رعيتها.

ولما فشلت سياستها الخارجية وخابت آمالها توارت عن الأبصار على النحو المسرحي الروائي الذي أقام الأرض وأقعدها، بعد أن تأكدت

---

(٧٥) Appian, Bellum Civile, IV, p. 61; Pliny, Natural History, (1) V, 58 ; Josephus, A pion II, 60.

(٧٦) Turin Stele, OGI, 194

أن الدنيا أظلمت وضاقت فيناظرها . وبموتها أصبحت مصر في قبضة أكتافيوس، ودخلت البلاد في حظيرة العالم الروماني فأعاد تنظيم أحوال البلاد وعم سلام مخيم على ربوعها، جنت مصر من جرائه رخاءاً وخيراً وفيراً في صدر العصر الروماني.

الخاتمة

وهكذا قضى الأمر بأن تطوى صحيفة كليوباترة بعد فترة طويلة من الحكم تربى على العشرين عاماً، حافلة بالأحداث الجسام، ومليئة بالأزمات المتلاحقة . وفيما عدا أزمتها الكبرى التي انتهت بانتحارها، فإن الأمر الذي يستأهل العجب أن كل أزمة من هذه الأزمات كادت بمفردها تزلزل كيانها وتقضي على سلطانها. ومع ذلك فإنها استطاعت أن تخرج من كل واحدة منها مظفرة، قوية الجانب، بفضل ما أوتيته من فطنة وكياسة، وما توافر لها من مواهب جمة . وكانت بحسها المرهف وكفايتها النادرة قادرة على التغلب على ما يعترضها من صعاب وتحويل الخصوم إلى أعوان، بل إنها كانت تتخذ من بعض هؤلاء أدوات لتحقيق مآربها ومراميها . فكانوا ينبرون لخدمتها في تفان وإخلاص منقطع النظير . وليس من قبيل الصدف أن يجئ تاريخ حكمها مليئة بالأحداث الجسام والأزمات المتلاحقة، ومعاصراً لأحداث عالمية، ما لبثت مصر أن وجدت أنه قد زج بها في معامعها : إما لأن مصير البلاد نفسه كان متوقفاً على النتيجة التي يمكن أن يحسم بها ما كان ينشب من خلاف بين قادة الرومان، وما يسفر عن حل الأزمات بين رجال الحكم الثلاثي من أوضاع تؤثر في مستقبل مصر، وإما لأن كليوباترة كانت طامعة في خير مرجو تسعى إلى تحقيقه من وراء ما كانت تنصبه من شباك أو تتورط فيه من مغامرات، كانت تلتقي فيها بدلوها في شيء كثير من الحيطة والحذر .

وفي القليل النادر كانت كليوباترة تساق لبعض هذه الأزمات بحكم ما لها من صلات دون أن يكون لها فيها بطريق مباشر ناقة ولا جمل.

ولعل السر في أغلب ما كان يعترض سبيلها من أزمات هو أن ابنها قيصرون كان بمثابة همزة الوصل بينها وبين روما، ويمثل حلقة الاتصال بين مصر وبين ما كان يجري على مسرح السياسة العالمية . إنها اتخذت من قيصرون هذا في أول الأمر تكأة للوصول إلى بغيتها وأغراضها البعيدة المرمى . ومن هنا كانت أغلب غاياتها وأهدافها تقع خارج الحدود المصرية، فكبدت نفسها من المشاق ما هو فوق طاقتها كيما تنال مجداً مؤثلاً وسؤدداً ورفعة، وتؤسس ملكا عريضا يمت إلى قيصر وإلى حق ابنها منه في إرث أبيه، فكأنما هذا الابن هو الدافع والعامل الأول على إيقاظ تلك الآمال العريضة التي ينتها في خيالها وتصورتها في آفاق واسعة، لم تر بأسا من تحقيقها، إن استطاعت إلى ذلك سبيلا. وعلى ذلك كان هذا الابن عبئا على كاهلها، لأنها اتخذته محور تفكيرها الدائم ووجدت ألا مناص من أن تسعى إلى تصحيح وضع هذا الابن وإثبات بنوته وتثبيت مركزه على هذا الأساس . وهي في هذا السبيل لم تكن تتورع عن شيء، فأدى هذا إلى تورطها وركوبها متن الشطط . ثم مضت بعد ذلك في طريقها لا تلوى على شيء، غير آبهة بما كان يجره عليها أكتافيوس أو غيره من عمالقة الرومان وساستهم الذين كانوا يبغضون الملكية في شتى صورها ويحقدون على الملكة كليوباترة بالذات . ولعلها نسيت أو تناست أن أكتافيوس هو ربيب قيصر بحكم ما جاء في وصية الدكتاتور العظيم، وأنه بهذا الوصف كان ينظر شذراً إلى كل ما يقام

في مصر من ادعاء بصدد بنوة قيصرون وما يثار من أحقية هذا الابن في إرث قيصر، بل إن أكتافيوس كان يعتبر هذا الابن عمة في جبين أبيه قيصر . وكلما تمادت كليوباترة في إبراز هذه الحقيقة ونفخت في هذا البوق وعمدت إلى اصطناع الأعوان والأبطال الذين يضربون على هذا الوتر الحساس، وينتصرون سرا وعلانية لدعوى كليوباترة وما تبسطه من أحقية تدعيها لابنها من قيصر بعد أن اشتد ساعده ونما وكبر، تكدرت العلاقات بينها وبين أكتافيوس . وازدادت العداوة بغضة وسوءا حتى ضاع الأمل في عمل أي مهادنة أو مصالحة، فكل طرف من الطرفين كانت مصالحه على النقيض من الآخر . وقد أصبحت كليوباترة آخر الأمر العدوة اللدودة الأكتافيوس الذي أعلنها عدوة للرومان (hostis) وخصها بشن حرب شعواء عليها، لا بوصفها ملكة على مصر فحسب، وإنما لأنها أم لذلك المنافس الطبيعي لأكتافيوس في إرث قيصر . وعندئذ لم تأل الملكة جهدا في سبيل الدفاع عن حق ابنها، متفانية في ذلك، وعاملة على كسب الحلفاء من بين صفوف الرومان أنفسهم لنصرة قضيتها . وكان على رأس هؤلاء جميعا البطل المغوار أنطونيوس الذي كان له حتى النهاية في نفوس نفر كبير من الرومان، منزلة مرموقة ومركز ممتاز . ولما استحكمت حلقات الأزمة، وتكشفت نوايا الطرفين بطريقة سافرة، لم يعد يد من حسم الخلاف في ساحة القتال بخوض معركة برية أو بحرية أو كليهما معاً . وقد بانت أمارات كل هذا بشكل واضح جلي عندما ألقي أنطونيوس القفاز في وجه خصمه بتطليق أخته أكتافيا وإقصائها عن بيت الزوجية في روما، وإعلانه الزواج من غريمتها كليوباترة،

واعترافه بأبنائه منها، وانتصاره لقيصرون والعمل على تثبيت وتدعيم مركز هؤلاء جميعا، وعلى رأسهم كليوباترة بتوزيع الهبات التي أقتطعها من أملاك الرومان في آسيا والشام، وأسبغها على زمرة من هؤلاء الأبناء ، وعندئذ اتسعت هوة الخلاف، وضاع الأمل فيرتق الحرق وأصبح لا مفر من امتشاق الحسام لفض هذا النزاع .

وقد يحلو للمؤرخ أن يبحث وينقب في خلفية هذه الصورة العامة) أملا في تعرف الأسباب والمسببات وكشف الأستار عن معالم هذا الخلاف المحتدم الذي قيم العالم القديم إلى شقين : قوى الشرق تجاه قوى الغرب، وقد ألبت كليوباترة الشرق الهيلينستي ضد الغرب الروماني، واستعدت بلدانه، وأقامت الأرض وأقعدتها من أجل قضيتها وقضية ابنها الأكبر . وقد يكون هدف المؤرخ وبغيته من وراء ذلك بذل محاولة تهدف إلى تلمس المعاذير والتصدي للدفاع عن الملكة، فيصوغ من حولها إطارا من المعاذير (apologia) ليدفع عنها أوجه الاتهام، ويكون بمثابة إنصاف لقضيتها التي طلعت بها على العالم. وقد يتاح لهذا المؤرخ أن يسير شرطة بعيدة في البحث عن أسانيد تاريخية أو إشارات أدبية جاءت عابرة في كتب السير وقصص الشعراء والكتاب، وجلتهم من الرومان واليونان . ومما يدعو للغرابة أنه ليس من بين هؤلاء مصدر مصرى واحد، يمكن أن يعتد به في هذا الصدد . فلم يجد الزمان بشيء من هذا ليقص علينا وجهة النظر المصرية البحتة في هذا الصراع، ونستطيع أن نتلمس من ثناياه أوجه الدفاع عن الطرف الثاني، وهو المصري، وكان لسوء الحظ هو الطرف المغلوب . وذلك فيما عدا

عبارات تقليدية ما ينتش في مناسبات التكريم والتكريس على حوائط المعابد والمقابر والبوابات، وما يصور على العملة التي كانت الملكة تسكها بين حين وآخر لتسجيل أحداث. أو بدء حقبة جديدة في حكمها، وكانت تضمنها صورة لها ولأبنائها مع ذكر عبارات مقتضبة وبعض التواريخ للتوقيت، ثم ما كان يصدر عنها من أوامر ملكية (prostagmata) صماء، صيغت كلها في قوالب وصور مألوفة. وكانت هذه وتلاك تتناول أخص شئون الحكم، وليس لها علاقة بتكتيل القوى الداخلية في البلاد ولا بتنظيم شئون الدفاع . فلم ترد بها أدنى إشارة، ولو خفية إلى ما كان يقلق بال الملكية، ويقض مضجعها طوال هذه السنين، مع أن الملكة لم تكن بأي حال، خالية البال أو هادئة الفكر . وهي في واقع الأمر كانت قد نغصتها الأحداث وأرقت لياليها، فكان خصومها عديدين، وهم تارة من رجال البلاط المصري الذين حرضوا إخوتها وأخواتها على التنكر لها والبطش بها، وتارة أخرى كانوا من عظماء الرومان وأدبائهم من أمثال شيشرون الخطيب وعدد عديد من أعضاء السناتو الروماني الذين ما فتئوا يسخرون منها ويندددون بأساليبها ويكشفون عن مآربها ويفضحون نواياها .

وفوق هذا كله لم يكن الزمان نفسه كريماً بها، بل قسا عليها أكثر من مرة . ويوم أن سلبها يوليوس قيصر في الرابع عشر (Ides) من شهر مارس سنة ٤٤ ق.م، أظلمت الدنيا في وجهها إلى حين، إذ توارى هذا الدكتاتور فجأة، وهو في عنفوان قوته وأوج عظمته، وكانت تطمح في أن يحقق لها بعض مآربها . ولكن القدر اختطفه منها بعد أن أصبح قاب

قوسين أو أدنى من اتخاذ الخطوات الحاسمة لتصحيح وضعها ووضع ابنها منه، وهو على أهبة الخروج لتنفيذ برنامجه العسكري، وفي طياته كان يزمع تحقيق ما انتوي عليه مع الملكة، ولكنه أخذ هذا السر الدفين معه إلى قبره . وقد وعت فيه كليوباترة، إذ رأته بين عشية وضحاها، يخر صريعا في أحد دهاليز مجلس الشيوخ الروماني. وكانت تقيم إذ ذاك على مقربة من مكان مصرعه وتنزل بقصره على ضفاف نهر التيبر في روما، فوقع خبر هذه الفاجعة الأليمة عليها كالصاعقة وكاد يزلزل كيانها ويحطم قواها. ولكنها لم تيأس ولم يهن منها العظم، وإنما صورتها تلك الأحداث الجسام، بعد أن كادت تودى بها. وبعد مصرع قيصر ساد الصخب في روما وانتاب الرومان حالة من الاضطراب، والأسى طول الفاجعة الأليمة . وكشف ماركوس أنطونيوس، وكان متولى) وظيفة سيد الفرسان (magister equitum) وهي ثاني وظيفة بعد الدكتاتور، النقاب عن هذه الحالة في خطبته التأبينية، فأفصح عن المشاعر التي تملكت الشعب الروماني وأن النفوس كانت تغلي غليان الرجل وتتأجج فيها النيران . وأخشى ما كان يخشاه المؤيدون لقيصر والموالون للملكة هو أن يتحول هذا الغضب نحو كليوباترة، فينفجر بركانه في وجهها، ويلحق بها الأذى في هذا الجو المكفهر . ولذلك رؤى أن تعجل الملكة بالفرار من روما خفية، وتعود إلى الإسكندرية لتعيش بمنأى عن هذه الأحداث الصاخبة . فهل طال مقامها في أمان وسكينة ؟ كلا، إنها كانت ترقب الأحداث العالمية بعين حذرة، وتنتظر ما يمكن أن تتمخض عنه تصرفات الحدثان . ولا يستطيع أحد أن يقول إن التطورات التي كانت تجري في العالم الروماني، والقتال

الناشب في بلاد اليونان بين طرفي النزاع : الحزب الجمهوري والقتلة من ناحية، والآخذين بالثأر من هـ ذا الحزب الجمهوري من ناحية أخرى – كل ذلك لا يعنها في شيء أو أنه بعيد عن عقر دارها. كان صالح إبنها قيصرون، وهو لم يتخط بعد سن الطفولة، إذ كان يبلغ نحو أربع سنين، متوقفة على مصير تلك الحرب الناشبة . ولم يقتصر الأمر على مستقبل هذا الابن وحده، بل إن استقلال مصر نفسه وتحقيق البرنامج الذي كانت تنتويه الملكة – كل هذا كان متوقفة على الكفاح الذي خاض غماره طرفا النزاع من الرومان في فيليباى ببلاد اليونان سنة ٤٣ ق .م . وهكذا قضت الملكة نحو عام في الإسكندرية عقب فرارها من روما في حالة شديدة من القلق والاضطراب . إنها كانت تخشى أن تقدم رجلا أو تؤخر أخرى، فتسيء إلى أحد الجانبين، وبذا يضيع حقها وتفقد المكاسب التي كانت تعلل النفس بالأمل في تحقيقها . وقد أتيح لها بفطنتها وكياستها أن تتلمس سبيلها، فتخرج من هذه الأزمة منتصرة . فقد نقبت في جعبتها فوجدت المبررات التي تشفع لها وتفسر موقف حيادها المريب، الذي اعتبر على أقل تقدير أنه كان يتسم بالجمود وتعوزه المروءة وعدم الوفاء . ولكن اعتزازها بنفسها وبكفايتها وثقتها في عدالة مطلبها – ساعد كل هذا على خروجها من أزمتها هذه قوية الجانب، يبتسم لها المستقبل مرة أخرى، وتتطلع إلى تحقيق أحلامها . فكان أنطونيوس نفسه وهو بطل معركة فيليباى، الناصر الأمين لها والعون المدخر لمستقبلها في العشر السنين التالية، والبطل الذي أمن جانبها وتبني قضيتها علانية وفي تحد للعالم الروماني، وكان يحسم المدافع

والحليف ثم في آخر المطاف نعم الزوج الوفي والحبيب المتفاني.

وعلى هذا النحو جاء تاريخ هذه الملكة مترعة بالأحداث المتزاحمة، حاوية للغث والسمين منها، ومفعمة بالعظات والأخطاء . وفيه من الجدية الشيء الكثير، كما أن فيه كذلك من المساخر والمظاهر البراقة والخلابة ما جعل المؤرخ يتيه في بيداء من القصص التاريخي والروائي الذي قد يأخذ بالألباب، ولكنه لا يغني ولا يسمن من جوع. وسيبقي تاريخ الملكة كليوباترة على مر الزمان متعة القارئ، وفيه من الخلجات والمشاعر ما يستهوي الكتاب والمؤرخين على السواء. ولن يكف هؤلاء عن أن يلقي كل واحد منهم بدلوه، عله يصيب كبد الحقيقة، أو يكشف عن الجوانب الخفية من حياة كليوباترة بتسليط أضواء جديدة عليها، ولن يمل القارئ مطالعة هذه



أكتافيوس أغسطس

الصفحات الخالدة، ليشبع نهمه ويستجلى هذه المشاعر الإنسانية في أجمل وجل صورها.

أغسطس وتصويره لموضوع ضم مصر

وبعد أن انقضت سنوات عديدة على وفاة كليوباترة، أخذت الأصداء الخافتة تسمع عن مصر وأحوالها ضمن السجلات الرسمية، وكان منها ما دونه أكبر شخصية في عصره، ذلك هو أكتافيوس أغسطس الذي تناول في وثيقته الأنقيرية (Monumentum Ancyranum) موضوعات متفرقة، أحاط فيها إحاطة شاملة معالم السياسة التي انتهجها، وضمنها سجل حياته، وقد لخص فيها أهم أعماله المجيدة في أوقات السلم والحرب على السواء(Res Gestae divi Augusti) وعرض لحروبه المختلفة التي خاضها إما بنفسه أو بوساطة قواده ومندوبيه legati) . وكان من بين هذه الحروب بالطبع حربه ضد كليوباترة . وذكر قواعده في البر والبحر وبيان الشعوب والأجناس التي أخضعها، والقرصان الذين أمن البحر من شروره وآثامهم، وعدد المنشآت العمرانية التي شيدها والمعابد المختلفة التي كرسها الشتي الآلهة في روما وفي خارجها، ثم الألعاب الرومانية والتقليدية Ladi Romani) (et Ludi Saeculares التي أقامها .كما سرد المناسبات المختلفة التي أغدق فيه على جنده وعلى عامة الرومان المنح والعطايا التي أجزلها لهم، بعضها من إرث أبيه، وبعضها من جيبه الخاص. وقد أسهب في ذكر الألقاب والوظائف المدنية والعسكرية والدينية التي أسبغت عليه من مجلس الشيوخ الروماني أو مجالس العامة، منذ مطلع شبابه وهو لا يزال يافعة

في التاسعة عشرة إلى ما ته سنة ١٤م. وكان بعض هذه الألقاب والوظائف من قبيل التكريم البحت، والبعض منها من واقع. سلك الوظائف الرومانية . فأسبغ عليه الرومان لقب أب الوطن (Pater Patriae) ووكلوا اليه رعاية الأخلاق العامة والعمل على أن يجتث الفساد ويعيد العادات السليمة التي حافظ عليها الآباء وتوارثها الرومان .

وفي ثنايا كل هذا لم يغفل مصر وما أحرزه من انتصارات على ملكتها كليوباترة، بل كانت إشارته إلى ذلك بارعة وعابرة . وعندما عرض لحفلات النصر التي أقامها في روما، والمناسبات في كل حالة،ذكر أنها في مرتين كانت من النوع الذي يسير فيه القائد المظفر ممتطياً صهوة جواده (bis ovans) وفي ثلاث مرات كانت من النوع الذي يجلس فيه القائد على كرسي من العاج (curulis) . وهاك نص العبارة اللاتينية التي وردت في الفصل الرابع من هذه الوثيقة الأنقيرية : Bis ovans triumphavi tris egi curulistriumphos ،، وفي طيات هذه العبارة المقتضبة معان كثيرة وإشارات عديدة تلقفها الكاتب الروماني سويتونيوس، وتناولها بالشرح والتفصيل عندما عرض الحياة أغسطس (الفصل ٢٢)، فأفصح عن المناسبات في كل حالة : ففي المرتين الأولتين، دخل أغسطس روما عقب معركة فيليباى واحتفى بنصره هذا سنة ٤٠ ق.م، ثم احتفي مرة أخرى سنة ٣٦ ق م بانتصاره في الحرب الصقلية على سكستوس بمبي وفلول جيشه، وقضائه على القرصان . أما في المرات الثلاث التي كان احتفاله بالنصر فيها وهو جالس على كرسي من العاج، فكانت أولاها في مناسبة انتصاره في حربه في دالماشيا

(الليريوم) وفي المرتين الأخريين كان يحتفل بنصره على كليوباترة في أكتوم ثم في الإسكندرية . وما هو جدير بالملاحظة أن أكتافيوس أغفل ذكر اسم كليوباترة هنا متعمدا، وكان لهذا الإغفال مغزاه . على أن المؤرخ ليفي كشف لنا الستار عن هذا الغموض المتعمد، فالمح في صراحة في كتابه المختصر (Epitome 33) إلى ذكر كل هذه التفاصيل على النحو الآتي : ،Tres triumphos egit . unum ex IIlyrico, alterum ex Actiaca victoria، tertium de Cleopatra،وبذلك أغنانا هذا الكاتب عن الحاجة إلى التأويل والتفسير، فذكر صراحة أن الاحتفال بالنصر الأول كان بفضل ما كسبه في الليريوم وأنه في الثاني والثالث كان بفضل ما كسبه في أكتيوم والإسكندرية على كليوباترة . وهكذا لم تحظ من قلم أكتافيوس أغسطس إلا بإشارة عابرة مقتضبة إلى احتفاله بالنصر لتخليد ذكرى ضم مصر لسلطان الشعب الروماني، فلم يفصح عن شيء، وإنما أثر أن يحمل ذلك ضمن انتصاراته الأخرى . وإمعانا في الاقتضاب وعدم الرغبة في الإفصاح، على النحو الذي درج عليه أكتافيوس إزاء كليوباترة وأبنائها، جاء في الفصل الرابع من الوثيقة الأنقيرية (سطر ٢٧ – ٢٨) أنه في انتصاراته – التي احتفل بها، كان يسير في الموكب أمام عربته ملوك وأبناء ملوك بلغ عددهم تسعة . وقد عرفنا من مصادر أخرى أن يوليون وهيرودس وأنطيوخوس كانوا من بين هؤلاء . وذكر لنا ديو(.Dio، 51, 21) أن إبناً وبنتاً لكليوباترة كانا كذلك من بين هؤلاء التسعة.

ومع كل التفاصيل المسبة والوظائف العديدة التي تولاها أكتافيوس

أو الإشارات إلى الشعوب والأجناس التي أخضعها أو ارتبط معها بروابط الحلف والصداقة، فإنه لم يشر ولو مرة واحدة في وثيقته الأنقيرية هذه إلى كليوباترة وأبنائها صراحة وبالاسم، مع أن خصومته لها كانت عنيدة، وحربه التي أعلنها عليها خصيصا كادت تهز كيانه وتعصف به . ولكنه آثر ألا يذكر كليوباترة بالاسم، ويقتصر على الإشارة إلى ذلك الحادث الجلل وهو ضم مصر السلطان الرومان بعبارة موجزة، جاءت عابرة في سياق سرده للحوادث. فقال جملته المأثورة : (Aegyptum imperio populi Rounani adject) وما ها ضمت مصر السلطان الشعب الروماني (٧٧) .

وفي عبارته هذه من الإغفال والتعمية ما جعل المؤرخين يتخبطون في تعرف ما تتضمنه من المعاني والأهداف . فقد ستر أكتافيوس وراء هذه العبارة أكثر من حقيقة يلحظها المؤرخ المدقق، وهي أن أكتافيوس أغسطس عندها دبج هذا السجل التاريخي وأراد أن يودع في طياته جميع أسراره ومشاعره، لم يكن صريحة كل الصراحة، ولم يقصد أن يتوخى، فيما يكتب وما يصور من مشاعر ويكشف من أمور، ذكر الحقائق دون مواربة. إنه لم يكن ناسية لمجرى الحوادث، على الرغم من تلك الفترة الطويلة التي مرت على أحداث أكتيوم وما تلاها، وكانت قد انقضت عند موته سنة ١٤ م، فترة تقدر بنحو أربعة وأربعين عاماً منذ قيام الإمبراطورية . وهذه الفترة -– على طولها – ما كانت لتنسيه أحداث الأعوام الثلاثة المضطربة التي سبقت أكتيوم من ٣٣ حتى ٣١ ق.م ثم عام ٣٠ ق.م بالذات وفيه وقعت موقعة نيكو بوليس بظاهر الإسكندرية وفيه توارت

(٧٧) Res Gestae Divi Augusti, chap. XXVII.

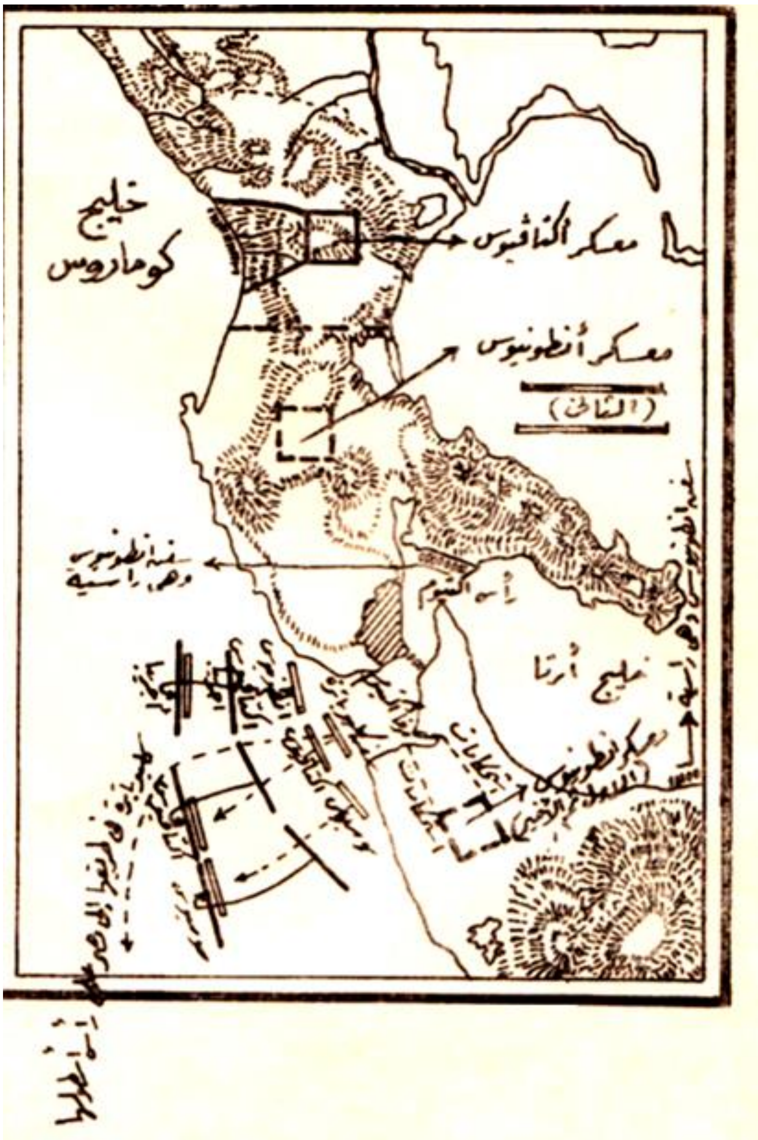
كليوباترة عن الأنظار إلى الأبد . وإنما هو الأسلوب البارع وطابع الرجل السياسي الحصيف الذي آثر أن يسيطر على الأحداث، فلا يقيم وزنا ولا شأنا لما عساه أن يثير هذا الماضي البغيض إلى نفسه، فيعيد بذلك إلى الأذهان موضوع حساسة طالما أقض مضجعه، وشاء ألا يذكر الناس بكليوباترة وابنها قيصرون وما كان لقيصر من علاقة بكليهما. إنه بلا ريب كان يبغى إسدال الأستار السميكة على كل هذا . ومن هنا جاء الاقتضاب، ولعل هذا هو السر في إشارته البارعة إلى حادث ضم مصر بعبارة مقتضبة كل الاقتضاب . ويا ليت الأمر اقتصر على الاقتضاب وحده، بل إنه تجني على الواقع من ناحيتين، فهو لم يضم مصر حقا إلى سلطان الشعب الروماني ولم يجعل منها ولاية حقه على نسق غيرها من الولايات الرومانية (provinciae)، وإنما جعلها ولاية من طراز فريد وأحاطها بسياج خاص واتخذ منها ضيعة خاصة له أو ما يشبه الضيعة، ووضع من الضمانات ما يكفل له دوام حكمها والمحافظة عليها، فاستن لها من قواعد الحكم (arcana imperii) ما جنبها الأخطار وأبعد عنها ذوى المآرب والأطماع . وقد قصر اختيار الحكام والولاة عليها (praefecti) على طبقة طيعة هي طبقة الفرسان الرومان (equites) وحرم على طبقة الشيوخ النابهين وأعضاء البيت الملك في روما أن تطأ أقدامهم أرض مصر أو يهبطوا إليها بقصد زيارتها، دون أن يحصلوا على إذن خاص منه بذلك، خشية على تلك الدرة اليتيمة في تاج إمبراطوريته من أن يكدر صفوها أحد أو يتخذ من موقعها الإستراتيجي الفذ وهي مفتاح البر والبحر (claustra terrae et maris) على حد قول المؤرخ

تاكيتوس،[٧٨] أداة يهدد منها الإمبراطورية أو يستأثر بها حاكم من الولاة . فكان حصيفا، بعيد النظر فيها اتخذه من ضمانات، حرص خلفاؤه الأولون على إتباعها . ثم هو يتجني مرة أخرى، عندما يؤثر عدم الإفصاح عن شي وهو يتحدث عن ضم مصر، فأغفل حقائق كثيرة في هذه النبيذ والخلاصات (breviarium) . وكان أولى به أن يسرد أهم التفاصيل التي أدت إلى هذا الضم، ليشبع تهم الباحث ويوفي للأجيال التالية حقها من المعرفة . ذلك أن تفاصيل حادث ضم مصر لسلطان الشعب الروماني لها أهميتها البالغة، لأن مصير الإمبراطورية قاطبة، بل ومستقبل العالم الروماني برمته كان متوقفة على نتيجة ذلك القتال الذي دار في أكتيوم. فكان أحرى به أن يذكر أسباب القتال في شيء من الصراحة، ويفسر الأجيال التالية وجهة النظر الرومانية وهي الوجهة الرسمية في هذا الشأن، فيعرض للأسباب التي من أجلها شن الحرب على كليوباترة وحدها في إصرار وعناد وحض العالم الغربي كله على أن يصب جام غضبه على الملكة كليوباترة بالذات. ولعل السر في كل ذلك عليه علم اليقين بأن هذا هو السبيل الذي يتعين عليه أن يسلكه، ووثوقاً منه بأن هذا سيجر معه بالتبعية حليفها الأول أنطونيوس وهو بيت القصيد. وكان حريا به كذلك أن يكشف. عما ترامي إلى سمعه وعلمه من أسباب فرار كليوباترة من المعركة في أكتيوم.. فيفضي إلينا ملخص ما تواترت به الإشاعات في ذلك الحين، ويوفر بذلك علينا ما عسانا نقع فيه من تخبط في دياجير الحدس والتخمين .

---

(٧٨) Tacitus, Annals, II, chap. 59

تلك صفحات من مأساة كليوباترة، عرضنا لها بشيء من الشرح والتفصيل . وهذا هو موقف العالم من هذه الملكة المصرية التي قسا عليها الدهر، فأثخنها بالطعنات والجراح حتى خرّت كليمة . وهي الآن أحوج ما تكون إلى كلمة عدلٍ وإنصاف.



موقعة أكتيوم

(سنة ٣١ ق.م.)

فهرس الأسماء والأعلام

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ي)

الفهرس